

نصوص من الأدب العربي المعاصر

وقل رب زدني علما
جامعة دمشق
Damascus University

الجمهورية العربية السورية
منشورات جامعة دمشق
مركز التعليم المفتوح
قسم: الترجمة

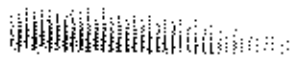
نصوص من الأدب العربي المعاصر

الدكتور: عبد النبي اصطيف
أستاذ في قسم اللغة العربية

الدكتور: عبد اللطيف عمران
أستاذ في قسم اللغة العربية

جامعة دمشق

١٤٣٤ - ١٤٣٥ هـ
٢٠١٣ - ٢٠١٤ م



الفهرس

مقدمة - ما المقصود بـــ الأدب العربي المعاصر..... ٧

الأدب العربي المعاصر وأجناسه الأدبية..... ٩

الشعر:

لأني غريب لـــ: بدر شاكر سياب..... ١٤

شفق زهران لـــ: صلاح عبد الصبور ٢٠

سوق القرية لـــ: عبد الوهاب البياتي..... ٢٥

تضيق بنا الأرض لـــ: محمود درويش..... ٣٢

اغنيات إلى السيد الجنوب لـــ: أدونيس..... ٣٦

إلى أين يا شاعر الأرض المحتلة؟ لـــ: عبد العزيز المقالح..... ٤٥

البحث عن دمشق لـــ: شوقي بغدادي..... ٥١

المسرح:

الفيل يا ملك الزمان لـــ: سعد الله ونوس..... ٥٨

القصة القصيرة: ٨٣

الاستغاثة لـــ: زكريا تامر.....

فن المقالة..... ٩١

نحن والغرب: من صدام الحضارات إلى الشراكة المعرفية..... ٩٣

تفاعل الحضارات من الحوار إلى الصراع..... ١٠٨

فن السيرة الذاتية: ١٢٤

من كتاب الأيام لطه حسين

(١)- الفصل الرابع عشر قصة حب..... ١٢٦

(٢)- الفصل الخامس عشر المرأة التي أبصرت بعينيها..... ١٣٧

(٣)- الفصل السادس عشر طلبت تأجيل الامتحان للزواج..... ١٤٥

فن الرواية..... ١٥٦

رواية الباطر..... ١٥٨

الأشجار واغتيال المرزوق..... ١٧٦

رواية النبر..... ٢٠٥

ترجمة مقال (نحن والغرب) إلى اللغة الإنكليزية..... ٢٣٠


وقل رب زدني علما
جامعة دمشق
Damascus University

مقدمة

أ.د.عبد النبي اصطيف

ما المقصود بـ "الأدب العربي المعاصر" الذي يضم كتابنا هذا مجموعة من نصوصه؟

سؤال ربما يديره أي قارئ له بينه وبين نفسه، ويتوقع أن يجد جوابا عليه في مقدمة الكتاب الذي بين يديه.

فأما الأدب فهو ذلك الفن الجميل Fine Art الذي يستخدم اللغة الطبيعية أداة له، والمقصود باللغة الطبيعية اللغة الإنسانية التي يستعملها الناس في تفكيرهم وتعبيرهم وتواصلهم بعضهم مع بعض، ومع موروثهم المدون بها.

وهو بهذا المعنى 'إنشاء' discourse (أو 'خطاب' كما يحلو لبعض العرب أن يسموه) تؤدي فيه اللغة وظائف عدة، أبرزها وأهمها الوظيفة الجمالية Aesthetic function التي تسود الوظائف الأخرى وتتحكم بها وتهيمن عليها وكثيرا ما توجهها من أجل أسر القارئ في فخ المتعة ليمضي منها إلى رحاب الفائدة، ذلك أن الأدب متعة وفائدة في آن معا.

وأما العربي فإنها صفة تنصرف إلى لغة هذا الأدب، فالمقصود بالأدب العربي المعاصر ذاك الأدب المدون باللغة العربية الفصيحة تمييزا لها عن اللغة العربية المحكية، وتمييزا له عن نظيره المدون باللغات الأجنبية والذي ينتجه كتاب عرب مقيمون في المغتربات المختلفة يجدون في هذه اللغات أدوات طيعة يفصحون من خلالها عن أفكارهم وميولهم ومشاعرهم ويتواصلون بها مع مواطنهم الحديث التي قادتهم إليها ظروفهم الخاصة بكل منهم.

وأما المعاصر فإنها صفة تشير إلى الأدب الحديث العهد بالقارئ والذي يشمل عادة جيلين أو ثلاثة أجيال من الكتاب العرب الذي يتداخل إنتاجهم الموزع بين جيل يمثل زمنيا القديم من جانب وآخر يمثل الحديث من جانب

آخر، وثالث يمثل الطليعة Avant-Garde التي تستشرف الآفاق الجديدة لهذا الأدب وتتطلع إلى بلوغها أدبا يتجاوز إنتاج الجيلين اللذين يتنازعان أذواق القراء العرب وميولهم وأهواءهم وبالتالي دعمهم المادي والمعنوي الذي يكفل للكاتب استقلاله المادي، وحريته في التفكير والتعبير.

الأدب العربي المعاصر
وأجناسه الأدبية

الأدب فيض مستمر تنتجه الأمم الحية ما عاشت، ولأنه كذلك فإنه يستعان على دراسته بتقسيمه إلى وحدات تبعا لمعايير خارجة عنه كالزمان والمكان، أو وفقا لمعايير داخلية تمليها الأعمال الأدبية نفسها.

وتصنيف الأدب تبعا لمعايير من التنظيم أو البنية الداخليين قديم قدم أفلاطون، ومستمر استمرار هذه الظاهرة الإنسانية في مختلف التقاليد الأدبية القومية، وأرسطو، وهوراس، وكوينتيليان، ورجال عصر النهضة من أمثال دانتي وسواه ومن تلاه من مفسري النظرية الكلاسية في الأجناس الأدبية، وأعلام الكلاسية الجديدة والثائرين بها من نقاد الرومنتية، ونقاد القرن العشرين من الشكليين الروس، والأرسطيين الجدد من نقاد شيكاغو، ونورثروب فراي وسواه يشكلون صوى بارزة في محاولات النظر في هذا التصنيف عبر العصور.

والواقع أن كل جنس أدبي رئيسي أو فرعي، عريق أو حديث، مستمر أو منسي، غدا في واقع الأمر **مؤسسة تعني الكثير للمعنيين بالأدب أدباء ونقادا** وقراء. وهم يتعاملون مع هذه المؤسسة مثلما يتعاملون مع أية مؤسسة خلقها المجتمع الإنساني، يعبرون عن أنفسهم ويعملون من خلالها أحيانا، ويعيدون تشكيلها من داخلها أحيانا أخرى، ويثورون بها ويسعون إلى خلق مؤسسات بديلة عنها في أحيان ثالثة، يستجيبون في ذلك كله لحاجاتهم الفنية من جانب، وللحوافز التي يقدمها النقاد والقراء من جانب ثان، وللشروط السياسية والاجتماعية والاقتصادية والثقافية السائدة في مجتمعهم من جانب ثالث. وفي تتبع المرء لمسيرة مؤسسة الأجناس الأدبية يمكنه أن يميز الأجناس التالية:

١- الشعر الغنائي: **Lyrical Poetry** وهو جنس أدبي رئيسي قوامه القصيدة والمقطعة. ويعتقد أنه أقدم الأجناس الأدبية، اتصلت نشأته بالغناء في معظم التقاليد الأدبية. وعلى الرغم من أنه كان في بداية نشأته يتوجه، في جزء غير يسير منه، إلى الجمهور ويسعى إلى الاستجابة لذوقه واهتماماته، فقد بات يغلب عليه انصراف الشاعر للتعبير عن ذاته، وهو لهذا جنس أدبي ذاتي. وجل الشعر شعر غنائي يعبر فيه الشاعر عن ذاته، ويفصح فيه عن كوامنها. ولكنه بسبب نشأته الغنائية وغلبة طابع الإنشاء عليه، ظل يأخذ اهتمامات جمهوره وذوقه بعين الحسبان وذلك بعد تبنيها والإفصاح عنها من خلال "أنا" الشعر التي قد تتسع لتشمل الجماعة كما في الشعر الجاهلي أو شعر المناسبات.

٢- الملحمة: **Epic** وهي جنس أدبي شعري موضوعي قديم يقوم على القصيدة القصصية الطويلة التي تسجل حقبة مهمة من تاريخ الأمة التي ينتمي إليها الشاعر أو الأمم التي اتصلت بها، ويمثل أبطالها قيم الأمة ومثلها العليا، أو تدور حول البطولة والمغامرات لشخصية أسطورية من شخصيات الأمة تستهوي الأفئدة، أو تتناول المصير الإنساني وخاصة في بعده الروحي. ويغلب على الملحمة الأسلوب القوي والسامي عادة، ولكن بعضها، كما في الملاحم الشعبية العربية، يمكن أن تكتب نثرا مرصعا بالشعر وربما بلغة أقل سموا نتيجة غلبة الطابع الجمعي التراكمي على تأليفها.

٣- المسرحية: **Drama** وهي جنس أدبي موضوعي أكثر حداثة نسبيا من الجنسين المتقدمين كانت أداته الغالبة هي الشعر حتى القرن التاسع عشر، وله أنواعه المختلفة التي ربما كان من أهمها المأساة tragedy، والملهاة comedy، والمأساة-الملهاة tragic-comedy، والفارس أو المسرحية الهزلية farce، والمسلاة entertainment play (وهي مسرحية يغلب عليها الرقص والغناء

لشغل الجمهور أثناء العروض الرئيسية أو قبلها)، ومسرحية المعجزات miracle play (التي تمثل مشاهد من حياة الأولياء والقديسين ومآثرهم)، ومسرحية آلام المسيح passion play (التي تصور الأيام الأخيرة من حياة المسيح)، ومسرحية الأسرار المقدسة mystery play، (التي يصدر مؤلفوها فيها عن قصص الكتاب المقدس)، وغيرها.

وثمة فضلا عن هذه الأنواع المتصلة أساسا بالشكل اليوناني والتي تشكل تطويرا له، أشكال أخرى كمسرح النو، والكابوكي اليابانيين، ومسرح خيال الظل التركي والعربي، وشعر التعزية الفارسي وغيرها. وعلى الرغم من وجود ظواهر مسرحية عديدة في الأدب العربي القديم فإن المسرحية في الأدب العربي الحديث مستلهمة أساسا من التجربة الأوربية بعيد المواجهة العربية الأوربية في منعطف القرن التاسع عشر أكثر مما هي تطوير لهذه الظواهر القديمة.

٤- القصة: Fiction وهي جنس أدبي نثري موضوعي له أشكال متفاوتة في طولها وأسلوبها، من بينها -- الرواية the novel وهي سرد تخييلي طويل عادة يجتمع فيه الحديث والتحليل النفسي للشخصيات وتصوير المجتمعات والعالم الخارجي، والأفكار، والمسحة الشاعرية، على تفاوت في أهمية هذه العناصر تبعا لتنوع الرواية. وللرواية، أنواع عديدة منها الرواية البوليسية detective novel، والرواية التاريخية historical novel، ورواية تكوين الشخصية أو bildungsroman، ورواية راعي البقر western، والرواية العاطفية sentimental novel، والرواية النفسية psychological novel، والرواية المثيرة thriller، وغيرها.

والقصة القصيرة short story وهي سرد قصصي حديث نسبيا ظهر في أواخر القرن التاسع عشر تكاد تكون لقطة تصويرية موضوعها في الغالب تلك

اللحظات العابرة القصيرة في الحياة الإنسانية. وهي جنس صعب جدا بسبب دقة مقوماته وحساسية لغته وتركيزها الشديد. والرواية القصيرة (النوفيلا) novella وهي جنس أدبي فرعي طوره أساسا الكاتب الإيطالي بوكاتشو، في مجموعته المرسومة بـ" الأيام العشرة" Decamerone، التي استلهم فيها "الف ليلة وليلة"، واستهوى شكلها بعضا من أبرز كتاب النثر الأمريكيين مثل هرمن ملفل، H. Melville ، وهنري جيمس، H. James، والعرب مثل غسان كنفاني، وعبد السلام العجيلي، ويحيى حقي وغيرهم.

والرومانسي romance وهي سرد طويل يغلب عليه التغني بالحب والبطولة. وثمة الحكاية tale وهي سرد خيالي بسيط، والحكاية الرمزية fable والخرافة وغيرها.

٥- السيرة **biography**، والسيرة الذاتية autobiography، والأولى منهما ترجمة لحياة شخص ما أدى دورا مهما في مجتمعه، والثانية ترجمة لحياة مؤلفها.

٦- **المقالة** essay وهي جنس أدبي نثري حديث نسبيا أدب الصحافة دورا كبيرا في تطويره بأشكاله المختلفة، ويطلق المصطلح في الأدب الإنكليزي على المعالجات الجادة لموضوع ما بأسلوب رفيع محكم وتصل المقالة حجم الكتاب المستقل أحيانا.

٧- **وفضلا عن الأجناس الأدبية المتقدم ذكرها** والتي تكاد تكون قاسما مشتركا الآداب القومية المختلفة بما فيها الأدب العربي، هناك أجناس أدبية تكاد تكون مقتصرة عليه منها المقامة وهي قصة قصيرة مسجوعة تتضمن عظة أو ملحة أو نادرة تتخذ معرضا للبراعة اللغوية والأدبية، وأصل معناها "المجلس"، والجماعة من الناس" وأشهر كتابها بديع الزمان الهمذاني ت ٣٩٨هـ، والحريري ت ٥١٠هـ، والموضح وسمي كذلك تشبيها له بالوشاح

أو القلادة التي تنظم حباتها من الأحجار الكريمة، وهو جنس أدبي شعري نشأ في الأندلس نتيجة عوامل عديدة يختلف دارسوه في تقدير أهميتها من بينها انتشار الغناء والموسيقى في الأندلس، والبيئة الأندلسية، والاحتكاك بالآخر وسواها من العوامل.

وما لبث أن انتقل إلى المشرق ليغدو واحدا من الفنون السبعة في الأدب العربي التي تضم إلى جانبه المواليا، وكان ما كان، والقوما، والدوبيت، والسلة، والزجل، وهي أجناس شعرية مختلفة ظهرت في عصور مختلفة نتيجة لمؤثرات داخلية وخارجية متنوعة، ويظهر بعضها تحللا ملحوظا من اللغة والعروض السائدين، وهي على وجه الإجمال أجناس فرعية عاشت، خلا الموشح والزجل، على هامش الأجناس الأدبية العربية الأساسية.

لأني غريب

لـــ: بدر شاكر السياب

بدر شاكر السياب:

شاعر عربي حديث من القطر العراقي ولد في قرية 'جيكور' جنوبي البصرة عام ١٩٢٦، وفيها تلقى دروسه الابتدائية. أتم دراسته الثانوية في البصرة، والتحق بعدها بدار المعلمين عام ١٩٤٣ حيث درس العربية والإنكليزية وتفقه في آدابهما. عمل في بداية حياته مدرسا لفترة وجيزة، انصرف بعدها للعمل الحكومي (موظفا في دوائر مختلفة) والصحافة. عانى أواخر حياته من مرض عضال أتى على جهازه العصبي بالتدريج، ليقضي نحبه في المستشفى الأميري في الكويت، ويدفن في الزبير عام ١٩٦٤.

انضم للحزب الشيوعي في مطلع نشاطه السياسي، ولكنه لم يلبث أن غادره ليعمل ضمن التيار القومي العربي. بدأ شعره رومنتيا، وتحول إلى الواقعية الاشتراكية فيما بعد، وانشغل بالقضايا القومية والوطنية والاجتماعية فضلا عن معاناته الشخصية مظهرا في شعره المتأخر من تغير حساسيته الفنية والنفسية نتيجة تماسه مع الشعر الأوربي (وبخاصة إليوت، وسيتويل، وشيلي وغيرهم) بتحفيز من جبرا إبراهيم جبرا؛ وهو بالتأكيد واحد من رواد شعر الحداثة المعروف بالشعر الحر.

للسياب مجموعات شعرية كثيرة منها: **أزهار ذابلة ١٩٤٧، أساطير ١٩٥٠ أنشودة المطر ١٩٦٠، المعبد الغريق ١٩٦٢، منزل الأقنان ١٩٦٣، شناشيل ابنة الجلبي ١٩٦٤ إقبال ١٩٦٥**، وغيرها. وله أيضا ترجمات مختلفة لأراغون وناظم حكمت، وإديث سيتويل وغيرهم.

درس السياب على نحو واسع وكتبت عنه مجموعة من الرسائل الجامعية في الوطن العربي وخارجه وربما كان من أبرز دارسيه إحسان عباس، وعيسى بلاطة، وعبد الكريم حسن. وهو مترجم على نحو واسع إلى معظم اللغات الأوربية وبخاصة الإنكليزية والفرنسية.

القصيدة:

لأني غريب

لأني غريب
لأن العراق الحبيب
بعيد، وأني هنا في اشتياق
إليه، إليها، أنادي عراق
فيرجع لي من ندائي نحيب
تفجر عنه الصدى
أحس بأني عبرت المدى
إلى عالم من ردى لا يجيب
ندائي،
وإما هززت الغصون
فما يتساقط غير الردى
حجار
حجار وما من ثمار،
وحتى العيون
حجار، وحتى الهواء الرطيب

حجار يندبه بعض الدم
حجار ندائي، وصخر فمي
ورجلاي ريح تجوب القفار.

❖ ❖ ❖

خيط الموروث في نسيج القصيدة:

تبدأ القصيدة من لحظة القطيعة المادية والنفسية التي بشمل الوطن والحبيبة وتتنامى، بعد تفاعلاتها المختلفة في نفس الشاعر، وتتمدد في كل الاتجاهات لتأتي على عالم الشاعر بمن فيه وما فيه وتحوله إلى حجارة، هي تجسيد لذروة هذه القطيعة.

ثمة في البداية انقطاع عن الآخر (وطنا وحبيبة)، وشعور عميق بالغربة لدى الشاعر عمن حوله وما حوله بسبب وجود هذه المسافة المادية (كان الشاعر في بيروت للاستشفاء) والنفسية بينه وبين الآخر الذي يجهد للتواصل معه. وإذ يكثف المرض غربته وبالتالي شعوره بالعجز والضعف والحاجة إلى الآخر يذوب حنينا نحوه، ويتجمع هذا الحنين في بؤرة تصدر عنها هذه الصرخة الضارعة:

أنادي، عراق!

ولكن ما هي حصيلة هذا التمدد باتجاه الآخر وذاك النداء الحار له؟ إنها النحيب، رجع الموت. وهكذا يزداد شعور السياب بالقطيعة عمقا واتساعا، وتلفعه مأساوية جديدة تضاف إلى مأساوية الموقف الأساسي (تزامن الغربة والمرض)، ولاسيما أن بعد الآخر(الوطن) لا يد للسياب فيه فيما يزعم - فالعراق هو البعيد، وليس الشاعر الذي قصد بيروت طلبا للشفاء.

إن هذا الشعور بالقطيعة مع الآخر، (وطنا وحبيبة)، واستحالة التواصل معه بسبب الموت الذي يسقطه الشاعر على الآخر، يضعان الشاعر في موقف يشبه إلى

حد كبير موقف السيدة مريم عليها السلام التي تدرجت قطيعتها مع الآخر وتعمقت واتسعت على نحو مماثل.

ولنقرأ ما ورد من آيات كريمة بشأنها. يقول الله عز وجل:

' واذكر في الكتاب مريم إذ انتبذت من أهلها مكانا شرقيا❖ فاتخذت من دونهم حجابا فأرسلنا إليها روحنا فتمثل لها بشرا سويا❖ قالت إني أعوذ بالرحمن منك إن كنت تقيا❖ قال إنما أنا رسول ربك لأهب لك غلاما زكيا❖ قالت أنى يكون لي غلام ولم يمسسني بشر ولم أك بغيا❖ قال كذلك قال ربك هو علي هين ولنجعله آية للناس ورحمة منا وكان أمرا مقضيا❖ فحملته فانتبذت به مكانا قصيا❖ فأجاءها المخاض إلى جذع النخلة قالت يا ليتني مت قبل هذا وكنت نسيا منسيا❖ فناداها من تحتها ألا تحزني قد جعل ربك تحتك سريا❖ وهزي إليك بجذع النخلة تساقط عليك رطبا جنيا❖ فكلي واشربي وقري عينا' (القرآن الكريم، سورة مريم، الآيات ١٦-٢٦).

وكما يتبين من قراءة الآيات المتقدمة، فإن نقاط التشابه في الموقفين لا تقتصر على الانقطاع عن الآخر- ذاك الانقطاع المتكثف تدريجيا (السيدة مريم عليه السلام تنتبذ من أهلها مكانا شرقيا ، وتتخذ من دونهم حجابا، ثم تنتبذ بعد حملها بجنينها مكانا قصيا، والسياب منقطع عن الوطن والحبيبة لغربته، ومنقطع عنهما بضعفه وعجزه لمرضه)، بل تشمل حضور الموت (السيدة مريم عليها السلام تتمناه لنفسها، وهو شفاء دائها الوحيد، والسياب يضرع إلى عالم من ردى لا يجيب حنينه إليه، وهو إلى جانب ذلك مسكون في مرضه بشبح الموت الذي يلوح في الأفق القريب). وأهم من ذلك كله مأساوية الموقف نتيجة تعمق الشعور بالحاجة إلى الآخر من ناحية، وإدراك أن التواصل معه أمر شبه مستحيل من ناحية أخرى، بسبب طبيعة الظرف الخاص بكليهما (البعد الفاصل بين بيروت وبغداد لدى السياب المريض العاجز، والحمل غير المعهود والذي لا سبيل إلى تفسيره للآخرين هو عقبة التواصل معهم لدى السيدة مريم عليها السلام).

مهما كان الأمر، فإن معاناة السيدة مريم يمكن أن تنتهي بعض وجوهها من جانب، وتستمر وجوهها الأخرى من جانب ثان. فولادة السيد المسيح عليه السلام قد تنهي معاناتها الجسدية وتحمل لها بعض العزاء من ناحية، ولكنه ما بقي حيا سيبقى تجسيدا لخطيئتها الكبرى في عين الآخر الذي يأخذها بظاهر أمرها. ووضع كهذا يستدعي الرحمة بالطبع من الله عز وجل الرحمن الرحيم. وهكذا ناداها مناد (.. من تحتها ألا تحزني، قد جعل ربك تحتك سريا، وهزي إليك بجذع النخلة تساقط عليك رطبا جنيا، فكلي واشربي وقري عينا). لقد كان هز جذعه النخلة بداية النهاية في معاناة السيدة مريم، ومنعطف التحول في مصيرها – كان الإذن بمعجزات كثيرة حملت في طياتها خيرا عميما للسيدة مريم ولوليدها، عليهما السلام، ولقومهما، وللإنسانية.

ولكن لحظة حضور الموت العائد من التمدد حنينا نحو الآخر، متزامنة مع لحظة الموت ألوشيك الوقوع نتيجة الوضع الفيزيولوجي والنفسي للشاعر، جعلت السياب يفكر لا شعوريا بحركة مشابهة تأذن بسلسلة من المعجزات تبدل مصيره، ومصير من يحب، ومصير ما يحب. ولأن يأسه أعمق، وأوسع، وأشمل، من يأس السيدة مريم (فهو لا يتوقع وليدا، وليس ثمة من عزاء مرتقب) فراء يفزع إلى غصون سيكون هزها أسهل على الضعيف، وثمرها أقرب متناولا لليائس المغرق في يأسه. وهكذا جاءه النداء من داخله، وامتدت يده لهز الغصون طمعا في الرطب الجني- أي ثمر جني، في أن يأكل ويشرب ليقوى، وفي أن يقر عينا ليستعيد لبه من جديد، ريثما تتتالى المعجزات التي تنتشله، وتنتشل حبيبته، وتنتشل وطنه.

ولكن ماذا كانت الحصيلة؟

إنها لم تكن غير الردى، وليس هناك سوى الحجارة: الثمار حجارة، والهواء حجارة، والعيون حجارة، والهواء الرطيب حجارة، ونداؤه حجارة، وفمه حجارة، إن

هز الغصون لم يكن، كما كان الشاعر يرجو، بداية نهاية معاناته، بل بداية تنامي القطيعة التي في نفسه، زحفها في جميع الاتجاهات، واحتوائها لعالمه الذي يعصف به الموت من أطرافه كلها، ويأتي عليه في النهاية. وحتى الدم الذي يندي الحجارة، والذي يمكن أن يكون آية وجود حياة ما، يصبح آية إراقتها. إن تنامي القطيعة يتخذ لبوس تحجر الكون التدريجي الذي لا يملك الشاعر إلا أن يفر منه. ولكن أين المفر؟

وهكذا يجد القارئ لهذه القصيدة نفسه في مواجهة نصين يؤكد كل منهما الآخر، وينفيه في آن معا. فعلى الرغم من أن نص القصيدة يؤكد حضور النص القرآني فيه إلا أنه في النهاية ينفيه. وكذا الشأن في النص القرآني الذي يؤكد حضور نص القصيدة بتوضعه خلفية تتحرك مقابلها أمامية النص السيابي من جهة، وينفيه من جهة أخرى لأنه يقيم معه في النهاية علاقة تناقض حاد، لا سبيل إلى حلها.

وهكذا يتبين أن السياب استطاع أن يوظف النص القرآني الذي يشكل جزءا أساسيا من المخزون الثقافي الجمعي للقارئ العربي ليكون أرضية لنصه يتحرك أمامها، ولكن في اتجاه مخالف تماما لتوقعات القارئ، أي أنه استطاع أن ينطلق بنصه خارج آفاق توقعات قارئه على نحو مثير. فهو من ناحية حطم رتابة الصورة المألوفة، وشحنها، من ناحية أخرى، ومن خلال علاقات التناص الجديدة التي أقامها في قصيدته؛ بطاقة تعبيرية هائلة. لقد أطلقت هذه العلاقات النص الجديد في اتجاه معاكس تماما لمساراته الممكنة في آفاق توقعات القارئ.

بعبارة أخرى، لقد راكم السياب، باستحضاره للنص القرآني، جملة من التوقعات، ثم ما لبث أن انعطف بها انعطافا حادا هيأ له بالموقف الذي صاغه بإحكام صانع خبير. وهكذا كان تنامي القصيدة، على هذا النحو المباين جدا لتوقعات القارئ المسكون بالنص القرآني، جد حتمي، فرضه منطق القصيدة.

◆ ◆ ◆

شنق زهران

لـ: صلاح عبد الصبور

صلاح عبد الصبور:

شاعر من أبرز الشعراء العرب المحدثين ولد عام ١٩٣١ ودرس في جامعة القاهرة، واطلع على الأدب الأوربي الحديث وبخاصة ت.س.إليوت. عمل بداية في الصحافة الأدبية، وكان يسهم بمقالة أسبوعية في النقد الأدبي لصحيفة الأهرام. مضى من الرومنتية إلى الواقعية الاشتراكية إلى الانشغال بالمواضيع الميتافزيقية في مسيرة صاعدة بوأته مكانة مرموقة في الشعر العربي الحديث. تولى قبل وفاته إدارة الهيئة المصرية العامة للكتاب، وتوفي عام ١٩٨١.

لعبد الصبور عدة مجموعات شعرية منها الناس في بلادي ١٩٥٧، وأقول لكم ١٩٦١، وأحلام الفارس القديم ١٩٦٤، وتأملات في زمن جريح ١٩٧٠، ورحلة في الليل ١٩٧٠، وشجرة الليل ١٩٧٢، والإبحار في الذاكرة ١٩٧٩؛ وعدة مسرحيات شعرية هي مأساة الحلاج ١٩٦٤، ومسافر ليل ١٩٦٩، والأميرة تنتظر ١٩٧٠، وليلى والمجنون ١٩٧٠، وبعد أن يموت الملك ١٩٧٣؛ فضلا عن مجموعة من الكتب النقدية منها أصوات العصر ١٩٦٠، وحتى تقهر الموت ١٩٦٦، وقراءة جديدة لشعرنا القديم ١٩٦٨، وتبقى الكلمة ١٩٧٠، وكتابة على وجه الريح ١٩٨٠؛ وكتابه السيري حياتي في الشعر ١٩٦٩، وترجماته لإبسن وإليوت ولوركا، واختياراته الشعرية، وأعماله المشتركة مع آخرين.

أصدرت مجلة **فصول** (التي تصدر عن الهيئة المصرية العامة للكتاب) عدداً خاصاً عنه حمل عنوان الشاعر والكلمة (المجلد الثاني، العدد الأول، أكتوبر ١٩٨١) يضم دراسات ممتازة عن إنتاجه الشعري والنثري والمسرحي، وشهادات مختلفة لأصدقائه وببليوغرافية بإنتاجه وما نشر عنه أعده العدد الخاص كل من حمدي السكوت ومارسدن جونز.

ترجم شعره إلى أكثر من لغة عالمية، كما ترجمت كل من مسرحياته الشعرية **مأساة الحلاج، ومسافر ليل، والأميرة تنتظر**، إلى الإنكليزية، وكثيراً ما اقترن اسمه بدراسة تأثير إليوت في الشعر العربي الحديث.

القصيدة

شنق زهران

ونوى في جبهة الأرض الضياء
ومشى الحزن إلى الأكواخ...
تنين له ألف ذراع
كل دهليز ذراع
من أذان الظهر حتى الليل.. يا لله
في نصف نهار
كل هذي المحن الصماء في نصف نهار
مذ تدلى رأس زهران الوديع

كان زهران غلاماً
أمه سمراء والأب مولد
وبعينيه وسامة

وعلى الصدغ حمامة
وعلى الزند أبو زيد سلامة
ممسكاً سيفاً
وتحت الوشم نبش كالكتابة
اسم قرية
"دنشواي"

شبّ زهران قويا
ونقيا
يطأ الأرض خفيفا
واليفا
كان ضحاكاً ولوعاً بالغناء
وسماع الشعر في ليل الشتاء
ونمت في قلب زهران.. زهيرة
ساقها خضراء من ماء الحياة
تاجها أحمر كالنار التي تصنع قبلة
حينما مر بظهر السوق يوما
ذات يوم
مر زهران بظهر السوق يوما
واشترى شالاً منمنم
ومشى يختال عجبا مثل تركي معمم
ويجيل الطرف.. ما أحلى الشباب
عندما يصنع حبا

عندما يجهدُ أن يصطاد قلبا

كان يا ما كان أن زفت لزهران جميلة
كان يا ما كان أن أنجب زهران غلاما وغلاما
كان يا ما كان أن مرت لياليه الطويلة
ونمت في قلب زهران شجيرة
ساقها سوداء من طين الحياة
فرعها أحمرُ كالنار التي تحرق حقلا
عندما مر بظهر السوق يوماً
ذات يوم

مر زهران بظهر السوق يوما
ورأى النار التي تحرق حقلا
ورأى النار التي تصرع طفلا
كان زهران صديقاً للحياة
ورأى النيران تجتاح الحياة
مد زهران إلى الأنجم كفا
ودعا يسأل لطفا
ربما سوّرة حقدٍ في الدماء
ربما استعدى على النار السماء

وضع النطع على السكة والفيلان جاؤوا
وأتى السياف "مسرور" وأعداء الحياة

صنعوا الموت لأحباب الحياة

وتدلى رأس زهران الوديع

قريتي من يومها لم تأتدم إلا الدموع

قريتي من يومها تأوى إلى الركن الصديع

قريتي من يومها تخشى الحياة

كان زهران صديقاً للحياة

مات زهران وعيناهُ حياة

فلماذا قريتي تخشى الحياة!

جامعة دمشق Damascus University

ســوق القــرية

لـــ: عبد الوهاب البياتي

عبد الوهاب البياتي:

ولد البياتي في بغداد عام ١٩٢٦، وتخرج في دار المعلمين العامة فيها عام ١٩٥٠ مدرساً للغة العربية. ولكنه ما لبث أن تحول إلى الصحافة لتكون منبراً له يعبر من خلاله عن معارضته للنظام الملكي في القطر العراقي من جهة، وعن أفكاره اليسارية من جهة أخرى. وقد حصد البياتي نتيجة نشاطه السياسي هذا اغتراباً متجدداً عن وطنه حمله إلى سورية ومصر ولبنان والنمسا والاتحاد السوفييتي وأوربا الشرقية وإسبانيا، والأردن وسورية حيث وافته المنية في عاصمتها دمشق في الثالث من شهر آب عام ١٩٩٩ م.

عين البياتي عقب انتصار ثورة تموز ١٩٥٨م ملحقاً ثقافياً في السفارة العراقية في موسكو، ولكنه سرعان ما تخلى عن هذا المنصب ليدرّس في جامعة الشعوب الإفريقية والآسيوية في موسكو. وتابع بعد ذلك حياة الانتقال والاغتراب التي حفزت الكثير من إنتاجه الشعري الذي كان غزيراً بشكل عام.

نشر البياتي عدداً كبيراً من الدواوين الشعرية وذلك إضافة إلى ترجماته للشعر الأجنبي (بول إيلوار Paul Eluard ولويس أراغون Louis Aragon وغيرهما) ودراساته عنه، ومسرحية يتيمة هي "محاكمة في نيسابور" ظهرت عام ١٩٦٣.

من بين مجموعاته الشعرية: **ملائكة وشياطين** ١٩٥٠، **وأباريق مهشمة** ١٩٥٤، **والمجد للأطفال والزيتون** ١٩٥٦، **وأشعار في المنفى** ١٩٥٧، **وعشرون قصيدة من برلين** ١٩٥٩، **وكلمات لا تموت** ١٩٦٠، **والنار والكلمات** ١٩٦٤، **وسفر الفقر والثورة**

١٩٦٥، والذي يأتي ولا يأتي ١٩٦٦، والموت في الحياة ١٩٦٨، والكتابة على الطين ١٩٧٠ ، عيون الكلاب الميتة ١٩٦٩، بكائية إلى شمس حزيران والمرتزقة ١٩٦٩، الكتابة على الطين ١٩٧٠، يوميات سياسي محترف ١٩٧٠، قصائد حب على بوابات العالم السبع ١٩٧١، سيرة ذاتية لسارق النار ١٩٧٤، كتاب البحر ١٩٧٥، قمر شيراز ١٩٧٥، صوت السنوات الضوئية ١٩٧٩، بستان عائشة ١٩٨٩، ونصوص شرقية الذي صدر قبيل وفاته، وله كذلك في السيرة الذاتية تجربتي الشعرية التي صدرت عام ١٩٦٨ .

ترجمت قصائد البياتي، الذي يعد بحق أبرز شعراء مدرسة الواقعية الاشتراكية إلى الروسية والصينية والفرنسية والإسبانية وغيرها من لغات أوربة الشرعية. أما أبرز دارسيه من العرب المحدثين فهم إحسان عباس، محيي الدين صبحي، وصبري حافظ، وخلدون الشمعة وكما أبو ديب.

❖ ❖ ❖

القصيدة

سـوق القـرية

الشمس، والحمر الهزيلة، والذباب
وحذاء جندي قديم
يتداول الأيدي، وفلاح يحدق في الفراغ:
في مطلع العام الجديد
يداي تمتلئان حتماً بالنقود
وسأشتري هذا الحذاء،
وصياح ديك فر من قفص، وقديس صغير:

'ما حك جلدك مثل ظفرك' و 'الطريق إلى الجحيم

من جثة الفردوس أقرب' والذباب

والحاصدون المتعبون:

'زرعوا، ولم نأكل

ونزرع، صاغرين: فيأكلون'

والعائدون من المدينة: 'يالها وحشاً ضرير

صرعاه موتانا، وأجساد النساء

والحالمون الطيبون'

وخوار أبقار: وبائعة الأساور والعطور

كالخنفساء تدب: 'قبرتي العزيزة، يا سدوم[1]'

لن يصلح العطار ما قد أفسد الدهر الغشوم'

وبنادق سود، ومحراث، ونار

تخبو وحداد يراود جفنه الدامي النعاس:

'أبداً، على أشكالها تقع الطيور

والبحر لا يقوى على غسل الخطايا، والدموع'

والشمس في كبد السماء

وبائعات الكرم يجمعن السلال:

'عينا حبيبي كوكبان

وصدره ورد الربيع'

والسوق يقفر، والحوانيت الصغيرة والذباب

يصطاده الأطفال، والأفق البعيد

---

[1] سدوم في التوراة مدينة قديمة دمرتها النيران بسبب إغراق أهلها في الخطيئة.

وتثاؤب الأكواخ في غاب النخيل.

دراسة تكاملية للقصيدة:

تعد قصيدة "سوق القرية" لعبد الوهاب البياتي واحدة من عيون الشعر العربي الحديث. ذلك أنها تنطوي على حساسية فنية ونفسية متميزة بوأت صاحبها مكانة بارزة بين أعلام حركة الشعر الحر في الأدب العربي المعاصر. وفضلاً عن ذلك فإنها تتمتع بغنى وحيوية ونضارة ودنيوية لا يماثلها فيها إلا قلة قليلة من قصائد الشعر العربي الحديث. وعلى الرغم من أنها ظفرت بالكثير من الاهتمام بين صفوف دارسي هذا الشعر، فإن ما فيها من غنى وإبداع يمثل إمكانية مفتوحة دائماً على تذوق جديد.

يستطيع قارئ القصيدة أن يتبين منذ الوهلة الأولى أنه أمام قصيدة عربية حديثة، تباين، في حساسيتها الفنية والنفسية، القصيدة العربية الكلاسية المألوفة — قصيدة استطاعت تحقيق المعادلة الصعبة في جمعها بين الهوية العربية من جهة، وانتمائها العصر الذي نظمت فيه من جهة أخرى.

- **لا تمييز بين لغة شعرية ولغة غير شعرية**

ولعل أول ما يلفت انتباه القارئ لهذه القصيدة هي أنها قصيدة تتنكر لمبدأ وجود لغة شعرية poetic language متميزة عن لغة الحياة اليومية every-day language ومباينة لها. فليس ثمة في هذه الأخيرة شيء لا يرقى إلى مستوى الشعر، والأمر يتوقف أولاً وأخيراً على توظيف اللغة توظيفاً شعرياً جمالياً هو سر أدبية الأدب Literariness وشعرية الشعر Poeticity. إن الحمر الهزيلة، والذباب، وحذاء الجندي القديم، وسذاجة الفلاح، والوحش، وخوار البقر، والأكواخ المتثائبة، وغيرها من لغة الحياة اليومية، كل أولئك يتحول في القصيدة، إذ يوظف شعرياً، إلى لغة شعرية، تتميز بالقدرة على النفاذ إلى وعي القارئ ونفسه وروحه، بإمكانية الإيقاع به، واجتذابه إلى عالمها البسيط الساذج المفعم بالبراءة والجدة

والحياة معاً.

- **قصيدة متعددة الصوت Polyphonic Poem**

والواقع أن سر هذه الحياة التي تزخر بها القصيدة يكمن في تعدد الأصوات فيها. فعلى حين أننا نجد 'أنا' الشاعر، هي السائدة في القصيدة العربية الكلاسية، سواء أكان يغني ذاته، أم ينقل لنا على نحو غير مباشر عوالم الآخرين ممن تضمهم قصيدته، نفاجأ، في قصيدة البياتي، بوجود أكثر من 'أنا' تطل علينا، وتملأ المشهد حيوية وتعددية واجتماعية في آن واحد.

فهناك أولاً **صوت الفلاح** الذي يتداول حذاء الجندي القديم بديه مثلما يتناول الأيدي الأخرى، يحدث نفسه حديثاً مسرفاً في سذاجته الساحرة:

'في مطلع العام الجديد
يداي تمتلئان حتماً بالنقود
وسأشتري هذا الحذاء'

وهناك ثانياً **هذا القديس الصغير** – شبه المتعلم، كما يصفه الدكتور إحسان عباس، الذي يوزع الحكمة في هذه السوق الحقيرة، ينشر ما كان قد تعلمه، يردده دون كبير تفكير أمثالاً تنسجم غاية الانسجام مع المشهد بجملته:

'ماحك جلدك مثل ظفرك' و
'الطريق إلى الجحيم من جنة الفردوس أقرب'

وهناك ثالثاً **صوت أولئك الحاصدين المتعبين**، يحدثون أنفسهم حديثاً يبعث على الأسى من جانب، والتمرد والثورة من جانب آخر:

'زرعوا، ولم نأكل
ونزرع، صاغرين: فيأكلون'

وهناك رابعاً **صوت العائدين من المدينة**، يرثون ضحاياها. إنها الوحش الذي أخفقوا في حل لغزه، وبالتالي انضموا إلى صرعاه:

'يا لها وحشاً ضريراً

صرعاه موتانا، وأجساد النساء

والحالمون الطيبون'

وهناك خامساً الصوت الذي يخاطب بائعة العطور:

'قبرتي العزيزة، يا سدوم!

لن يصلح العطار ما قد أفسد الدهر الغشوم'

وهناك سادساً الحداد الذي أرهق عينيه النعاس؛ والحر، والتعب، فأرسل حكمته، ينفث فيها شجونه، ويسري عن نفسه بها:

'أبداً على شكلها أشكالها تقع الطيور'

والبحر لا يقوى على غسل الخطايا، والدموع'

وهناك سابعاً، أغنية الصبايا، بائعات الكرم التي تتدفق دفئاً وحنيناً وتطلعاً إلى الآخر، وحباً له:

'عينا حبيب كوكبان

وصدره ورد الربيع'

وإضافة إلى جميع هذه الأصوات، هناك أصوات الحمر الهزيلة، وطنين الذباب، وصياح الديك، وخوار البقر، وطرق الحديد وأوار نار الكير، وصخب الأطفال. وكل ذلك يشيع في المشهد حياة، أقل ما يقال أنها مثيرة للفضول، لما فيها من جدة وغنى وتنوع.

- **تقرير مصور**

والواقع أن القصيدة تكاد تكون تقريراً مصوراً حملته إلينا كاميرا مصوّر تلفازي ركزت على لقطات موحية جداً من حياة سوق القرية، التي تبدأ بظهور الشمس وتنتهي بعيد الظهر وقد عاد كل مشارك فيها إلى كوخه الحقير الذي يتثاءب كلاً في

غاب النخيل، وربما كان هذا النمط من التصوير سر درامية القصيدة من جهة، وموضوعيتها من جهة أخرى.

- **موضوعية صارخة**

وهذه الموضوعية لا تكمن فقط في الحيز الضئيل الذي يشغله السرد narrative في القصيدة، ولا في الأصوات المتعددة التي تملؤها حياة وحسب، ولا في اللقطات الموحية المثيرة ببراءتها وسذاجتها وعمقها في آن معاً فقط، بل في الانسلاخ التام الذي يباشر فيه الشاعر قصيدته أيضاً. لقد حقق البياتي انفصالاً يكاد يكون تماماً بين "أنا" الشاعرة وبين عالم قصيدته، فلم يكد يتدخل في شيء. إن القصيدة غنائية Lyrical وقصصية narrative ، ومسرحية dramatic في الوقت نفسه. إنها على نحو من الأنحاء جماع لعالم الشعر، أو لنقل ارتدادة إلى أصوله الأولى. وربما كان هذا أحد أسباب جاذبيتها، واستمرار حياتها في ذهن المتلقي لمدة طويلة.

- **انغماس في الواقع**

وإضافة إلى كل ما تقدم، نلاحظ أن القصيدة غارقة إلى أذنيها في الواقع. وإذا ما تساءل المرء عن مواصفات هذا الواقع، فإنه سيجد أنه الواقع الحقير الذي طالما ابتعد عن عالم شعرنا. إنه الواقع الذي ما سما يوماً ليبلغ الشعر، وما ارتقى من قبل ليسمق إلى عالم الفن.

- **قصيدة مفارقات**

وكما هو شأن الواقع، فإن القصيدة تزخر بالمفارقات Ironies، فحذاء الجندي القديم تتناوله أقدام العديد من الجنود قبل أن يستنفد حياته في الخدمة

العسكرية. ولكنه في القصيدة، وما إن يستنفد حياته الأولى، ويبدأ مواته، حتى يمارس دوراً إيجابياً على خلاف دوره هناك في الجيش. إنه هو الذي يتداول هنا، ولكنه لا يتداول الأقدام، بل الأيدي. فهل ثمة مفارقة أكثر عمقاً من هذه المفارقة؟ إنه عالم الفقر الحافل بالمفارقات.

والحكمة تصدر عادة عن الخبرة والنضج، ولكنها في هذا العالم تأتي من القديسين الصغار الذين لم يؤتوا خبرة، ولا علماً حقيقياً، إنهم كالببغاوات يرددون ما سبق أن تعلموه، أو لقنوه، في المدارس.

وكذلك فإننا كثيراً ما نردد 'من زرع حصد'، ولكن هذا المثل الواسع الشيوع يتحول في عالم القصيدة 'من يزرع لا يحصد، وإنما من يحصد هو غيره'. وأكثر من هذا فإن هذا الغير لا يمت بأية صلة قرابة، أو ما شابهها إلى أولئك الزارعين. إن الفلاح لا يمكن أن يحلم حتى بأن يحصد أبناؤه أو أحفاده زرعه.

وبائعة الأساور والعطور، واهبة الجمال لكل ما أفسده ومن أفسده الدهر، تدب كالخنفساء. وهل ثمة مفارقة أعمق من هذا التناقض الذي يسخر الشاعر من خلاله من هذا الواقع وعلى نحو خفي عندما يجعل صوتاً ما يناديها مشفقاً ومتشفياً، وهادئاً في آن معاً:

'قبرتي العزيزة يا سدوم!
لن يصلح العطار ما قد أفسد الدهر الغشوم'.

- **إلفة حميمة**

وربما كان من المهم الإشارة في النهاية إلى أن المواجهة لهذا العالم – عالم سوق القرية – لا يملك إلا أن يجب ما فيه، ومن فيه من جهة، ويثور بما فيه وبمن فيه من جهة أخرى. إنه الفن الذي يحفز الإنسان على التغيير، على التجاوز، على البحث عن عالم مغاير لعالمه الذي يسود فيه الظلم والفقر والبؤس والجهل والبراءة أيضاً.

تضيق بنا الأرض

لـــ: محمود درويش

محمود درويش:

يعد محمود درويش أبرز شعراء فلسطين بل الشعراء العرب المعاصرين، وربما كان من أكثرهم شهرة ونشاطاً، ولد عام ١٩٤١ م في قرية "البروة" في فلسطين المحتلة، وتلقى دراسته الابتدائية في مدرسة الـــ"الأونروا" في مخيم الدامور في لبنان، والثانوية في مدينة الناصرة في فلسطين المحتلة عام ١٩٤٩ م. وكان أبرز ناشطي الحركة اليسارية فيها إلى أن خرج منها واختار الحياة في المنفى متنقلاً بين العواصم العربية والأوربية، ومشاركاً فعالاً في النضال الوطني لاستعادة حقوق الشعب العربي الفلسطيني المشروعة في تقرير مصيره وإقامة دولته المستقلة. وقد اكسبه فنه ونضاله مكانة مرموقة في الوطن العربي والعالم، ورشح للعديد من الجوائز العربية والعالمية. يقيم الآن في رام الله حيث يصدر منها مجلة الكرمل الفصلية. من أبرز أعماله:

المؤلفات الشعرية:

أوراق الزيتون ١٩٦٤، عاشق من فلسطين ١٩٦٦، آخر الليل ١٩٦٧، العصافير تموت في الجليل ١٩٦٩، حبيبتي تنهض من نومها ١٩٧٠، أحبك أو لا أحبك ١٩٧٢، محاولة رقم (٧) ١٩٧٣، تلك صورتها وهذا انتحار العاشق ١٩٧٥، أعراس ١٩٧٧، مديح الظل العالي ١٩٨٣، حصار لمدائح البحر ١٩٣٨، هي أغنية هي أغنية ١٩٨٦، ورد أقل ١٩٨٧، أرى ما أريد ١٩٨٨، احد عشر كوكباً ١٩٩٢، لماذا تركت الحصان وحيداً ١٩٩٥، سرير الغريبة ١٩٩٩، جدارية ٢٠٠٠، حالة حصار ٢٠٠٢، لا تعتذر عما فعلت ٢٠٠٤.

المؤلفات النثرية:

ذاكرة للنسيان ١٩٨٩، الرسائل: محمود درويش ١٩٩٠، شيء عن الوطن ١٩٧١، عابرون في كلام عابر ١٩٩١، في وصف حالتنا ١٩٨٧، وداعاً أيتها الحرب، وداعاً أيها السلام ١٩٧٤، يوميات الحزن العادي ١٩٨٤.

ومن أبرز دارسيه عبد الكريم حسن، ورجاء النقاش، سعيد أبو خضرة، إبراهيم خليل، أحمد الزعبي، تهاني شاكر، أقنان القاسم، شاكر النابلسي، وغيرهم كثير.

❖ ❖ ❖

القصيدة:

تضيق بنا الأرض

تضيق بنا الأرض. تحشرنا في الممر الأخير، فنخلع أعضاءنا كي نمر
وتعصرنا الأرض. يا ليتنا قمحها كي نموت ونحيا. ويا ليتها أمنا
لترحمنا أمنا. ليتنا صور للصخور التي سوف يحملها حلمنا
مرايا. رأينا وجوه الذين سيقتلهم في الدفاع الأخير عن الروح آخرنا
بكينا على عيد أطفالهم. ورأينا وجوه الذين سيرمون أطفالنا
من نوافذ هذا الفضاء الأخير. مرايا سيصقلها نجمنا.
إلى أين نذهب بعد الحدود الأخيرة؟
أين تطير العصافير بعد السماء الأخيرة أين تنام النباتات بعد الهواء الأخير؟
سنكتب أسماءنا بالبخار الملون بالقرمزي
سنقطع كف النشيد ليكمله لحمنا.
هنا سنموت.
هنا في الممر الأخير.
هنا أو هنا سوف يغرس زيتونة... دمنا.

تدريبات

اقرأ نص القصيدة وأجب على ما يلي من أسئلة بدقة ووضوح:

١- يشكو الشاعر الأرض لأنها تضيق بقومه، وتعصرهم، فهل هي الأرض حقاً من يفعل ذلك؟ أم أن طرفاً آخر يقوم بذلك؟

٢- كيف يموت القمح ويحيا؟ اشرح ذلك.

٣- يقتل الشاعر وقومه الآخرين في دفاعهم الأخير عن الروح، ثم يبكون على عيد أطفالهم. ويرمي الآخرون أطفال الشاعر وقومه من نوافذ هذا الفضاء الأخير. هل تروقك هذه المقارنة؟ ماذا يعجبك فيها؟ اشرح ما تنطوي عليه من مفارقات.

٤- 'بعد السماء الأخير'، 'بعد الهواء الأخير'، ماذا يكمن في رأيك؟ هل يشير الشاعر بذلك إلى عبث المضي إلى ما بعد السماء الأخيرة والهواء الأخير؟، وما الخيار الذي يرشحه النص؟

٥- ماذا يعني الشاعر بكتابة الأسماء بالبخار الملون بالقرمزي؟

٦- 'هنا سنموت': هذا ما يراه الشاعر، ولكن هل الموت هو النهاية حقاً؟

٧- ماذا يحمل الزيتون من دلالة في رأيك؟

٨- ضع عنواناً بديلاً للقصيدة.

٩- أي شاعر يمكن أن يكون صاحب هذه القصيدة؟

١٠- أجمل صورة راقتك في النص؟ اشرحها وبين موطن الجمال فيها.

Damascus University

متخير من

أغنيات إلى السيد الجنوب[1]

لـ: أدونيس

أدونيس:

ولد أدونيس – علي أحمد سعيد– في قرية قصابين قرب اللاذقية عام ١٩٣٠. وأتم تعليمه الإعدادي والثانوي في طرطوس واللاذقية ليتابع دراسته في الجامعة السورية ويجاز منها في الفلسفة عام ١٩٥٤. بدأ كتابة الشعر في مطلع الخمسينات في موضوعات تتصل بالطموحات السياسية. وقد غادر سورية عام ١٩٥٦ إلى لبنان وأقام فيه حتى يومنا هذا. تعاون عام ١٩٥٧ مع يوسف الخال وأصدر مجلة (شعر) التي توقفت في مطلع الستينات. وهو يصدر الآن مجلته الخاصة به (مواقف). تشمل أعماله الشعرية: **قالت الأرض** ١٩٥٢، وقصائد أولى ١٩٥٧، **وأوراق في الريح** ١٩٥٨، **وأغاني مهيار الدمشقي** ١٩٦١، وكتاب **التحولات والهجرة في أقاليم الليل والنهار** ١٩٦٥، **والمسرح والمرايا** ١٩٦٨، **ووقت بين الرماد والورد** ١٩٧٠، **ومفرد بصيغة الجمع** ١٩٧٧ وغيرها.

مارس النقد والكتابة السياسية من البداية، وأبرز أعماله النقدية: **مقدمة للشعر العربي** ١٩٧٠، **وزمن الشعر** ١٩٧٣، **والثابت والمتحول، بحث في الإتباع**

---

[1] أدونيس، كتاب الحصار (حزيران ٨٢–حزيران ٨٥)، (دار الآداب، بيروت ،١٩٨٥)، من ص ١٦١–١٧٠.

والإبداع عند العرب ١-٣ ١٩٧٤-١٩٧٨، وفاتحة لنهايات القرن العشرين ١٩٨٠، إضافة إلى ديوان الشعر العربي ٣ أجزاء، (بيروت ١٩٦٤-١٩٦٨).

Damascus University

مقدمة:

استطاعت حرب تشرين التحريرية التي خاضها الشعب العربي في كل من سورية ومصر محو الكثير مما خلفته نكسة حزيران في النفس العربية على مدى ست سنوات. وإذ كانت أول حرب حقيقية يخوضها العرب ويحققون من خلالها إنجازات هامة على مختلف الصعد، فقد سعت الصهيونية، والإمبريالية، والرجعية العربية إلى إجهاض نتائجها من خلال جملة من الممارسات التي كان من أبرزها الاتفاقات المنفردة مع النظام المصري، التي زعزعت التوازن الاستراتيجي لمصلحة العدو، وأطلقت يده في المنطقة كقوة عظمى تتصرف بوحي من عدائها التاريخي للشعب العربي في كل مكان. وهكذا كان العدوان الصهيوني الواسع النطاق على القطر اللبناني الشقيق في حزيران من عام اثنين وثمانين وتسعمئة وألف، هذا العدوان الذي أتى على القسم الجنوبي منه يزرع فيه القتل والدمار محاولاً كسر شوكة المقاومة العربية والقوى الوطنية اللبنانية التي تقف في خندق الصمود والتحدي بقيادة سورية العربية. والحقيقة أن النجاح الأولي الذي حققه الغزو على الأرض أعاد إلى الكثيرين ممن أخذوا بوقع الكارثة الجديدة اليأس والتشاؤم؛ فأخذوا يترقبون خائفين عقابيلها الجديدة. أما سورية المناضلة فقد وقفت بكل إباء وشمم، وتضحية وفداء بوجه الغزو الصهيوني، وسجل جيشها العقائدي البطل ملاحم في البطولة والشهادة، وحال بين الغزو وتحقيق أهدافه وأفشل حسابات الصهيونية وعملائها وأثبت أن إرادة الشعب عصية على أي قهر، وبفضل بطولاته وتضحياته، انطلقت شرارة المقاومة اللبنانية في الجنوب، ليبدأ البعث العربي الجديد مؤذناً بالنشور الذي لم يطل انتظاره أكثر من عام.

وانطلق موكب الشهادة يصهر المناضلين جميعاً. ذابت الحدود والحواجز، ولم يبق إلا الفداء، ينهض به الجنوب – السيد، المسيح المخلص، المهدي الإمام

المنتظر – الذي ينشد أدونيس – الرؤية كما يسمي نفسه – أغانيه له، تراتيل تمجد حضوره الذي يستغرق عالمنا الجديد، وزمننا الجديد، زمن الشهادة.

تتألف قصيدة أدونيس من أربع وعشرين أغنية، تم اختيار مجموعة منها لتكون أنموذجاً يبين كيف يصوغ فعل الشهادة، التي تخضب في كل يوم بقعة جديدة من تراب الوطن بدم زكي طاهر، تجربة مهمة في الأدب العربي المعاصر.

القصيدة:

(١)

أغنية إلى لحظة ماضية

مرةً،
سألَ اللهُ أعرابَهُ أن يجيئوا إليهِ
فرآهم
بَشراً من حديدٍ ورملْ
يَحملون على جُمْجُمَهْ
أرْضَهُ المُسْلِمَه.

(٢)

أغنية إلى هذا الزمان

أحمدٌ، مريمٌ، كريمٌ
قرأوا ما يقول المكانُ وما يكتب المستحيلْ
وأتوا للنخيلِ يهزون جذع النخيلْ:
رُطَبٌ يابِسٌ،

والمكانْ

في الجنوب شمالٌ، في الشمال جنوبٌ

والمكانُ كما خيّلوا-

خيلوا أنه الساقُ والجذعُ، واستشرفوا رياحاً

من جديدٍ تُلقّح هذا الزّمانْ.

(٣)

اغنية إلى الزمن-الضد

لو تجرّأتُ، قلتُ: النجوم السماء وتاريخُها،

الناسُ، واللغةُ القائمهْ

جُثّةٌ عائمهْ

لو تجرأتُ، سَاءَلتُ: من يُحرِقُ الآن؟

ماذا يُسِرّ، بماذا يُجاهِرُ؟ هل

قال؟ هل كان؟ هلّا؟

لو تجرأتُ، غنّيتُ للمدن الآفله

للرّماد المُدمّى، وللآلة الآكلهْ،

ولأعلَنْتُ: هذي

آية الوَقْتِ، أرضٌ

تتناسَلُ في جُثّةٍ، وربٌّ

علّقتهُ الجريمهْ

فوق أقواسِها، تميمهْ.

(٤)

أغنية إلى الوقت

إنه الوقْتُ، وقت الحصار، الذي لا يَرى
غيرَ هذا الدّم المتنقّل بين الشوارع،
ملْءَ البيوت الذي لا يرى
غيرَ هذا التفجُّر في جسَدٍ لا يُرَى،
وأقول لوجه الجنوب: توجّهْتُ
أنّى توجّهْتَ أتْبَعْكَ، تمضي
وأمضي إلى مثلَما
وتقود خُطاي إلى كيفَما
وتوجّه ناري إلى ما يُزلزل، يومئ لي... رُبّما.

(٥)

أغنية إلى المعنى

ليس هذا زمانَ البداءِ ولا آخرَ الأزمنهْ
إنّه نَهرُ الجرحِ يدفقُ من صدر آدَم-
معناهُ يُوغِلُ في الأرْضِ،
والشمس صورتُه المُعْلنهْ.

(٦)

أغنية إلى زينب

حضنَتْ زينبٌ طفلَها
تتنوّر سرّ اللقاء وعرْسَ اللقاءْ
بين تاريخها والبُكاءْ.

(٧)

أغنية إلى بضعة حروف

كان للميم أن يصنع القافَ جسراً
ويعمّر للواو بيتاً
من ضياء وحبٍّ،
كانت التاءُ تربو وتعْلو،-
إنها اللغة الهاديه
والقُرى تتفتحُ، والقلبُ يقرب من داره النّائيهْ.

(٨)

أغنية إلى فاطمة

فاطمَهْ
تُنزِل القمرَ الساهرَ المتمرّد من بُرْجِهِ
وتقود خطاه إلى بيتها

وتمدُّ له كي ينامَ رفيقاً لطفلتها النّائمهْ.

(٩)

أغنية إلى المائدة

للصداقة بيني وبين الجنوب، وأحزانِهِ العائده

كتبٌ، وثيابٌ

نسجتها البيوتُ، الرياحُ العناصرُ/

لا تهدمِ القاعِده

ابتهجْ واقتحمْ

وادْعُ مصباحَ هذي الدروب لكي

يرئس المائِدهْ

(١٠)

أغنية إلى الاعتراف

ابْتَهِجْ واعترفْ

للجنوب، لشمسِ الجنوبِ، لنيرانِ

أحشائه المُضْمَرهْ

والكلامُ الذي لا يُقال اعترافٌ

وأقول الوصولُ قريبٌ قريبٌ

وأرى قامَةَ الموتِ محنيّهْ

وأقول التواريخ تزهو وتقطف أعشابَها المُسكِرَه.

(١١)

أغنية إلى المسافات

نشوةٌ/ موجةٌ بادئهْ
في شواطئ من لهفة،
مرحباً، يا ضياءَ المسافات، لن أقطعَ الخيط
بيني وبينك، أحزانُك الدّافئهْ
تتسرّبُ في خطواتي
مرحباً، أيّها الخطوات التي تتخاصَرُ في كلماتي.

(١٢)

أغنية اللغات

كل تلك اللغات–الشظايا، خمائرُ
للمدن المقبله
غيّروا بنيةَ الاسم والفعل والحرف، قولوا
لم يعد بيننا حجابٌ
لم تعد بيننا سدودٌ،
واشرحوا صدركم
بالفواتح من سُوَرِ الرّغبات،
وجنّاتِها المقفلهْ.

◆ ◆ ◆

إلى أين يا شاعر الأرض المحتلة؟

لـ: عبد العزيز المقالح

عبد العزيز المقالح:

يعد عبد العزيز المقالح من أبرز شعراء اليمن المعاصرين وكتابه ونقاده، ولد في بلدة "السُّل" في اليمن عام ١٩٣٩ م، ودرس في كتّابها قبل أن ينتقل إلى صنعاء ليتم فيها دراسته الثانوية، وينتسب بعدها إلى دار المعلمين بين عام ١٩٥٧-١٩٦٠، ثم يرتحل إلى القاهرة ويتم فيها دروسه الجامعية وينال درجة الدكتوراه في اللغة العربية وآدابها من جامعة عين شمس عام ١٩٧٧ على رسالته حول الشعر الشعبي في اليمن.

تدرّج عبد العزيز المقالح في عمله من التدريس في المدارس الثانوية، إلى التدريس في جامعة صنعاء، مبارزاً بالعمل مذيعاً ومستشاراً في وزارة التربية بعد الثورة اليمنية ١٩٦٢، وأميناً عاماً للإعلان والتربية في مجلس الوزراء، ومندوباً دائماً لليمن في جامعة الدول العربية بين عامي ١٩٦٦-١٩٦٨. كان حتى تقاعده من أبرز أساتذة الأدب الحديث في اليمن، وتولى زمناً طويلاً رئاسة جامعة صنعاء، ورئاسة المركز اليمني للدراسات والبحوث. فاز بجائزة اللوتس التي تمنحها منظمة التضامن الأفرو-آسيوي للأدب مرتين في عامي ١٩٨٤ و ١٩٨٦.

ومن أبرز مؤلفاته في الشعر دواوين:

لا بد من صنعاء ١٩٧١، مأرب يتكلم ١٩٧١، رسالة إلى سيف بن ذي يزن ١٩٧٢، هوامش يمنية على تغريبة ابن زريق البغدادي ١٩٧٤، عودة وضاح اليمن ١٩٧٦، الكتابة بسيف الثائر علي بن الفضل ١٩٧٨، الخروج من دوائر الساعة السليمانية ١٩٨١، قراءة في أوراق الجسد العائد من الموت ١٩٨٦، وغيرها.

ومن أبرز مؤلفاته البحثية والنقدية:

الأبعاد الموضوعية والفنية لحركة الشعر المعاصر في اليمن ١٩٧٤، قراءة في الأدب اليمني المعاصر ١٩٧٤، شعر العامية في اليمن ١٩٧٨، أصوات في الزمن الجديد: دراسة في الأدب العربي المعاصر ١٩٨٠، أزمة القصيدة الجديدة: دراسة ومناقشات ١٩٨١، الشعر بين الرؤيا والتشكيل ١٩٨١، من البيت إلى القصيدة ١٩٨٣، عمالقة عند مطلع القرن: أحمد شوقي، حافظ إبراهيم، طه حسين، عباس العقاد، مصطفى صادق الرافعي، أبو القاسم الشابي ١٩٨٤، أوليات النقد الأدبي في اليمن ١٩٨٤، تلاقي الأطراف: قراءة أولى في نماذج من أدب المغرب الكبير ١٩٨٧، صدمة الحجارة: دراسة في قصيدة الانتفاضة ١٩٩٢.

وقد جمعت بعض المقابلات التي أجريت معه في ثرثرات في شتاء الأدب العربي ١٩٨٢.

❖ ❖ ❖

القصيدة:

إلى أين يا شاعر الأرض المحتلة؟[1]

إلى الشاعر الفلسطيني محمود درويش

الأرض لم تزل محتلة.. والدارُ
على سرير العار
تنام تصحو أمَةٌ
مهتوكة الإزار

[1] عبد العزيز المقالح، ديوان عبد العزيز المقالح، دار العودة، بيروت ١٩٨٦، ص ص ١٧٣-١٧٩.

كيف هجرتها.. وجئت نحونا؟
كيف قبلت أن تموت مثلنا؟
كيف ارتضيت أن تغمد في عيوننا القلم؟
أن تنزع الخنجر من قرارة السجان
أن تهجر الأحزان
أن تستعيض بالجبال.. بالحقول
بالشمس.. بالسهول
بدورة الفصول
بطاقةً ككسرة من خبزنا القديم
كقشرةٍ من تيننا العقيم
كيف تركتها وحيدة في السجن
يا رفيق سجنها؟
من سيغني كبرياء حزنها
وفي الشتاء..
من سيذوق دفء حضنها

قالوا لنا
أن تلعن القرود عن عند غابة القرود
أن تبصق اليهود في مدينة اليهود
تلك هي الشجاعه
أن تكتب الأشعار بالدماء
أن تحفر الأفكار في النجوم،
في السماء

تلك هي الأشعار
تلك هي الأفكار
لا الزمن العاتي، ولا الأمطار
لا الريح لا الإعصار
تمسح من قصيدة الدماء
حرفاً عتيقاً خالداً كالنار

وكنت ذلك الذي وعى ما قيل
صلبتها..
صلبت إسرائيل
في قومها.. في دارنا المغتصبة
في المعبد المكسور
أمام كل العور
ولم تخف
كنت شعار الجيل
ابناً لأمنا المغصوبه المنتحبه

حين أتى عبر الظلام المر صوتك الحزين
لكم شربنا في صوتها
لكم تحسسنا عليه جرحها
يفجر التذكار والحنين
يصبح في المهاجرين
لا..

لا تصدقوا أنباء صلبها

فهي بصحةٍ يندلق الشباب

ينكسر الضباب

على جبينها الحزين

ما زال في أحشائها من لحمكم جنين ..

يوماً سيصنع الإعصار والنهار

سيحرق المأساة والملهاة والستار

سيحرق الممثلين

فكيف جئت؟

ما الذي تبحث عنه بيننا؟

وما الذي تريده هنا؟

أكنت مهزوماً هناك؟

نحن مع المهزوم خبزنا ودمعنا

وشوقنا الجريح

لو لم يمت على صليبه المسيح

لو لم تزين هامة البطل

أيقونة المُلَيَق

ما عرفت روما قداسة الحريق

ولا مشينا خلفه حين رحل

ولم تسر تلك الحشود في ركابه

ولم تقف حزينة جموعنا ببابه

تطلب أن يبقى مكانه

وأن يظل

نحن مع الذي في الحريق في الآلام

أكبادهم تئز.. تشتوي

أحداقهم مفقوءة لا تعرف المنام

مع الذين في السجون

مع الذين يصلبون

مع الضحايا حيثما كانوا

وحيث يذهبون

١٩-٢-١٩٧١



جامعة دمشق Damascus University

البحث عن دمشق

لـــ: شوقي بغدادي

شـوقي بغدادي:

شاعر وقصاص وروائي ومقالي ولد في مدينة بانياس الساحلية عام ١٩٢٨، وتنقل في تحصيله ما قبل الجامعي بينها وبين كل من طرابلس الشام (١٩٣٤-١٩٣٩)، واللاذقيـة (١٩٣٩-١٩٤٥) ودمشـق (١٩٤٦-١٩٤٧)، التـي نـال مـن جامعتها درجة الإجازة في اللغة العربية وآدابها من المعهد العالي للمعلمين الذي درس فيه بين عامي (١٩٤٨-١٩٥١).

بدأ حياته العملية مدرساً في المرحلة الثانوية، وأسهم في الخمسينات في تأسيس رابطة الكتاب العرب (١٩٥١-١٩٥٨)، واتحاد الكتاب العرب في سورية، ونقابة المعلمين في دمشق، وأقام في لبنان عامين ونصف العام (١٩٥٩-١٩٦١)، و في الجزائر خمس سنوات درس خلالها في مدارسها الثانوية (١٩٦٨-١٩٧٢). زار العديد من الدول العربية والأجنبية، وترجم بعض إنتاجه إلى العديد من اللغات الأجنبية. أما أبرز مؤلفاته فتشمل:

في الشعر:

أكثر من قلب واحد ١٩٥٥، لكل حب قصة ١٩٦٢، اشعار لا تُحبّ ١٩٦٩، بين الوسادة والعنق ١٩٧٤، صوت بحجم الفم ١٩٧٤، ليلى بلا عاشق ١٩٧٩، قصص شعرية قصيرة جداً ١٩٨١، من كل بستان مختارات ١٩٨٢، عودة الطفل الجميل ١٩٨٥، رؤيا يوحنا الدمشقي ١٩٩١، شيء يخص الروح ١٩٩٦، و البحث عن دمشق ٢٠٠٢.

أناشيد وقصص شعرية للأطفال:

عصفور الجنة ١٩٨٢، القمر فوق السطوح ١٩٨٤.

في القصة القصيرة:

درب إلى القمة 'بالاشتراك مع آخرين' ١٩٥٢، حيُنا يبصق دماً ١٩٥٤، بيتها في سفح الجبل ١٩٧٧، مهنة اسمها الحلُم ١٩٨٦، فتاة عادية ١٩٩٨.

في الرواية:

المسافرة ١٩٩٣.

في المقالة والخاطرة والدراسات:

قديم الشعر وجديده 'بالاشتراك مع آخرين' ١٩٨٦، عودة الاستعمار 'بالاشتراك مع آخرين ١٩٩٢، قلها وامش ١٩٩٢.

◆ ◆ ◆

القصيدة:

البحث عن دمشق

'فاتحة'

لا يمكن أن توجدَ أغصانٌ
مثل ذراعيَّ
إذا أطلقتُهما
أجمعُ بينهما الدنيا

لا يمكن أن تمتدَّ جذورٌ
مثلُ جذوري
أعمقَ في الأرضِ

إذا أطبقتُ على الأرضِ
بكفّي وقدميَّ
وكلّ خلايا جسدي

لا يُمكن أن يُسمَعَ صوتٌ
أجملُ من صوتي
حينَ أُرتّلُ بعضَ حروفٍ
يتشكّلُ منها اسمُ حبيبي

لا يمكن أن يعشقَ مثلي إنسانٌ
امرأة صامتة باستمرارْ

يؤسفني يا ذاتَ الزنّارِ الأخضرِ
والسبعةِ أنهارْ
أنّ مواهبَ هذا العاشقِ
لا تتجاوزُ صحنَ الدارْ
لا تقدرُ أن تتسلق
أعلى من قافيتين
ومجموعةِ أشعارْ

يا أيّتها الشمسُ الباردةُ
على حيطانِ دمشقْ
ليس سوى أنبوبِ الألوانِ

المسفوحُ على الشرقِ
ليس سوى الأصفرِ فوق الشجرِ
وعند الأفقْ

في الغوطةِ فلّاحٌ مذهولٌ
يتساءلُ
كيف يموتُ البقدونسُ والنعناعُ
بلا سببٍ مفهومٍ

كيف تضاءلتِ الحبّةُ في شجرِ المشمشِ
كيف احمضّ الجانرّكُ
وتخشّبتِ العوجا
وانقرضَ الجمّيزْ

ما زال النهرُ يُسَمّى بَرَدى
والماءُ يقاومُ ويصفّقْ
كي يتطهّرَ من طينِ البشَرِ
ويخرجَ مَجْلوّاً
كعريسٍ من حمامِ السوقِ
ليستأنفَ زَفّته بين الحاراتِ
ويختلسَ زيارتَهُ
للقاعاتِ الخاويةِ
وللصالاتِ الموحشةِ

وغرفِ النومِ الباردةِ
وبركةِ بيتِ الموصلي
الناجيةِ من الموتِ
بفضلِ مديرِ الآثارْ

يؤسفني يا ذاتَ الزنّارِ الأخضرِ
والسبعةِ أنهارْ
يؤسفني أن أتغزّلَ بالجمعياتِ الخيريةِ
والسيّدةِ الثانيةِ الطيّبةِ القلبِ
وبالخانمِ تستجدي الرمَقَ
لآخرِ بيتٍ عربيٍّ ينهارْ

لا يمكن أن يوجد عُشّاقٌ
فقدوا العقلَ نهائياً
مثلَ السكانِ على الأسوارْ
ربطوها أحزمةً حول خُصُورِهِمُ
والتفّوا بمدينتهمْ
كي تهدمَ حجراً
لا بدّ إذن أن تَهدِمَهمْ
مثلَ الأحجارْ

في كل صباحٍ
يرتفعُ غطاءٌ صخريٌّ
عن ماءٍ مكتومٍ
وبقيةِ أسرارْ

في حيّ الشاغور تلثّمتُ
وفي القصاع سَفَرتُ
فما أجداني الحُبُّ
سوى مرمرةِ زمانٍ غدّارْ

صَيَّرني من عُشّاقِ التاريخ
ولَمَّامي الوردِ الشاميّ الذابلِ
والياسمينِ المتناثرِ في الريحِ
وحَبِّ الآسِ المُشْحِمِ كاللحم الأبيضِ
والحلوِ كشَهْدِ النحلِ
كما تروي الأخبارْ

اجهدُ أن أُرجِعَ
للشفةِ العليا المحلوقةِ شارِبَها
والساعدِ مرخيّاً
قبضتَهُ المرفوعةَ
والشِروالِ المتهدّلِ

زهوتَهُ الأولى
والحطبَ لبيتِ النارْ

قابلتُ أبا صيّاحٍ في أروقةِ المسرحِ
يتدرّبُ كي يرقصَ بعصاهُ على المزمارْ
ناديتُ من الصالةِ مفجوعاً
يا مالَ الشامِ ارفضْ دورَكَ
وارجعْ للمقهى المتصدّعِ
عند الدوّارْ
ارجعْ للحكواتيّ الصامتِ
ينتظرُ إشارتَكَ
ليُطلقَ عنترةَ من الأسْرِ
ويُبَرِّئَهُ من تُهمةِ تهريبِ الموزِ
وتسخينِ الأفكارْ

ناديتُ..
فلم يسمعني
إلا جُلّاسُ الصفِّ الخلفيّْ
ففادرنا
كي نعلنَ رفضَ النّظارةِ
توزيعَ الأدوارْ

❖ ❖ ❖

الفيل يا ملك الزمان

لـــ: سعد الله ونوس

سعد الله ونّوس:

كاتب مسرحي طليعي ولد في قرية حصين البحر القريبة من طرطوس على الساحل السوري، حيث أتم فيها دراسته ما قبل الجامعية عام ١٩٥٩. التحق بعدها **بجامعة القاهرة** حيث نال إجازة الآداب من قسم الصحافة فيها، تابع دراسته بعد ذلك في **جامعة السوربون** حيث حصل منها على دبلوم الدراسات المسرحية عام ١٩٦٨.

بدأ حياته محرراً في مجلة **المعرفة** السورية ١٩٦٤-١٩٦٥، ثم رئيساً لتحرير مجلة **أسامة** للأطفال ١٩٦٩-١٩٧٤، ثم محرراً للقسم الثقافي في صحيفة **السفير** اللبنانية ١٩٧٥، ثم مديراً للمسرح التجريبي ورئيس تحرير لمجلة **الحياة المسرحية** الفصلية، وكان عضواً في **اتحاد الكتاب العرب**، وعضواً في **اتحاد الصحفيين العرب**، زار عدداً كبيراً من الدول العربية والأجنبية، وترجم معظم نتاجه إلى اللغات الأجنبية. توفي بعد معاناة طويلة في دمشق في الخامس عشر من أيار عام ١٩٩٧.

أما أبرز مسرحياته فهي:

حكايا جوقة التمثيل ١٩٦٥، **مأساة بائع الدبس الفقير ومسرحيات أولى** ١٩٧٨، **فصد الدم ومسرحيات ثانية** ١٩٧٨، **حفلة سمر من اجل ٥ حزيران** ١٩٦٨، **الفيل يا ملك الزمان (و) مغامرة رأس المملوك جابر** ١٩٧٠، **سهرة مع**

أبي خليل القباني ١٩٧٣، الملك هو الملك ١٩٧٧، الاغتصاب ١٩٩٠، رحلة حنزلة من الغفلة إلى اليقظة ١٩٩٠.

ومن أبرز كتبه: بيانات لمسرح عربي جديد ١٩٨٨، و هوامش ثقافية ١٩٩٢.

المسرحية:

١. القرار:

(المسرح فارغ. زقاق تحصره في الخلف بيوت بائسة يتراكم عليها القدم والأوساخ. جلبة بعيدة وراء المسرح. ولولة. امرأة تصرخ. أقدام تتراكض.
يستمر هذا الجو الثقيل فترة.

الرجل[1] : يعبر الزقاق رجل مسرع الخطى متجهم الوجه).
لا حول ولا قوة إلى بالله العلي العظيم.
(فترة) لا حول ولا قوة إلى بالله العلي العليل..
(ويختفي في الجهة الثانية من الزقاق..
تسود الضجة المتناهية من اليمين وراء البيوت.
ولولة نساء وأصوات، ومختلف العبارات التي تنتشر من أفواه الناس أوقات المصائب.
تميز عويل امرأة ثم يبدأ كل شيء بالخفوت متحولاً إلى همهمة بعيدة تظل مسيطرة على المشهد حتى نهايته..
من اليسار يظهر رجل يعبر الزقاق بخطوات عجلى.
يلتقي به رجل آخر يأت من الجهة التي كانت تتناهى منها الضجة. وجهه مغموم، وخطاه ثقيلة)

الرجل ١ : (مستوقفاً الآخر) وإذن فالخبر صحيح!

الرجل ٢ : يا ويل أمه. ميتة لا يشتهيها المرء لعدوه.

الرجل ١ : أعوذ بالله من الشيطان الرجيم.. وأين حدث ذلك؟

---

[1] باستثناء واحد فقط، سنميز كل الذين يدخلون إلى المسرح بالأرقام.

الرجل ٢ : قرب دكان أحمد عزت. هنالك لا يخلو الزقاق أبداً من الأولاد.

الرجل ١ : كنت موجوداً؟

(يدخل رجلان آخران وهما يتحدثان.

جميع الذين يدخلون إنما يأتون من الجهة

التي يتناهى منها الضجيج).

الرجل ٢ : جئت تماماً بعد وقوعه.

سمعت صراخاً يذبح القلب، فركضت أسأل عن الخبر.

يا ويل أمه!

الرجل ٣ : (يتضح صوته) منظر يفتت الكبد.

رأيته بعيني يصير عجيناً من لحم ودم.

داس على صدره، بل في أسفل الصدر.

رأيت بعيني كيف انبعج بطنه واختلطت أحشاؤه بتراب الزقاق.

الرجل ٤ : يا لطيف..

الرجل ٢ : أستغفر الله العظيم.

(كل الذين يدخلون ينضم بعضهم إلى بعض،

ويتجمعون في الزقاق).

الرجل ٣ : لم يبق لجسمه شكل. كتلة ممعوسة من اللحم والدم.

اللهم أبعد عنا البلى. يدور رأسي كلما تصورت منظره،

لملموه من الزقاق كما تلم البيضة المكسورة.

الرجل ٢ : يا ويل أمه!

الرجل ٣ : أرأيتم إلى البيضة حين تسقط على الأرض؟

والله هكذا كان جسمه. كمية من الدم والأمعاء متناثرة على الزقاق.

(يدخل رجل خامس).

الرجل ٤ : ماذا تنتظر؟ طفل لين العود يدوسه فيل ضخم كفيل الملك.

يا لطيف..

الرجل ٥ : (منضماً إليهم) هذا الفيل!

(من الهمهمة البعيدة ينبثق عويل امراة مفجوعة، ثم يتلاشى).

الرجل ١ : أعوذ بالله من الشيطان الرجيم.

الرجل ٣ : (متابعاً روايته) أول الأمر لم نعرفه.

بدأ الناس يجتمعون، وقلوبهم تكاد أن تتوقف من شدة الخوف.

كل واحد يفكر بابنه. جميع أولاد الحارة كانوا في الزقاق يلعبون.

الرجل ٤ : واختارت المصيبة بيت محمد الفهد دون سائر البيوت.

الرجل ٢ : اللهم ألهم قلبه الصبر وقوة الاحتمال.

الرجل ١ : وسط الزقاق، وأمام أعين الرجال، كيف يعقل ذلك!

الرجل ٤ : أتسأل!

الرجل ٥ : هذا الفيل!

الرجل ٣ : كان الأولاد يلعبون في الزقاق حين دخل عليهم الفيل.

شخر شخيره المعتاد، وأسرع الخطى لا مبالياً بشيء.

خاف الأولاد، وجروا هاربين. إلا أن ابن محمد الفهد تعثر وارتمى. ولشدة رعبه لم يستطع النهوض من عثرته، فأدركه الفيل، وداس فوقه.

(تدخل امرأتان ومعهما طفلة صغيرة تمسكها أمها من يدها. الدموع بادية في عيون المرأتين).

الرجل ١ : أستغفر الله..أستغفر الله..

المرأة ١ : يا حسرتي.. بكاؤها يمزق الفؤاد.

الرجل ٢ : الطفل صار حطاماً، والفيل تابع سيره غير مكترث بشيء.

المرأة ٢ : (صوت باك) الله يساعدها. تبدوا كالمجنونة.

الرجل ٥ : أما الناس فقد سمرهم الخوف. لم يتجرأ أحد على الاقتراب حتى اختفى بعيداً عن الزقاق.

(تنضم المراتان والطفلة إلى الرجال.
شيئاً فشيئاً يتشكل اجتماع شعبي).

الرجل ٣ : (متنهداً) تعرفون طبعاً.

الرجل ٢و ٤ : (معاً) نعرف يا سيدي نعرف.

الرجل ٣ : فيل الملك.

الرجل ٥ والمرأة ٢ : (بصوت واحد تقريباً) آه.. هذا الفيل!

(فترة تتراءى فيها الرهبة والجزع).

الطفلة : أمي.. ولماذا داسه الفيل؟..

المرأة ١ : من يعرف يا ابنتي.! نصيبه.

المرأة ٢ : أجارنا الله. أجارنا الله. تأتي الأم لتنادي ابنها، فتلم جثته من الطريق.

الرجل ٢ : مصيبة تنهدّ لها الجبال.

الطفلة : ألن يعاقبوه؟!

المرأة ١ : يعاقبون من؟

الطفلة : الفيل..

(الجميع يهزون رؤوسهم)

الرجلان ٤ و ٥ : (بيأس) يعاقبونه!

الرجل ٢ : ومن يستطيع أن يعاقب فيل الملك!

: (تدخل امرأة عجوز وهي تولول بصوت حاد، وتضرب بقبضتها على صدرها)

المرأة ٣ : آه.. يا ويلي.. يا ويلنا جميعاً.. لا أمان على طفل، ولو وضعته أمه في بؤبؤ العين.

المرأة ٢ : ومن أين الأمان بعد الآن!

المرأة ١ : الأطفال يداسون في الطرقات.

المرأة ٣ : ولا أحد يجرؤ على الكلام.

الرجلان ٣و ٥ : الكلام!

المرأة ٢ : لا أمان على رزق أو حياة.

المرأة ٣ : ولا أحد يجرؤ على الكلام.

الرجلان ٣ و ٥ : الكلام!

الرجل ٤ : بدأت النسوة تخرّف.

الرجل ٢ : (يهز رأسه) كأن الكلام سهل.

الرجل ٤ : لا تعرف ما تقول.

الرجل ٣ : هذا فيل الملك يا امرأة.

(يدخل رجل سادس، وينضم إلى الآخرين)

المرأتان ١و ٢ : **(معاً بصوت فارغ)** نعم: فيل الملك.

الرجل ٦ : لا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم. سيدفنونه بلا غسل.

المرأة ٣ : **(مولولة)** يا ضناي..

الرجل ٣ : وهل بقي منه ما يغسل؟

الرجل ٤ : يا سيدي. طفل كهذا لا يخشى على طهارته.

الرجل ٥ : المهم طهارة الروح لا الجسد.

المرأة ٢ : كقطفة الياسمين. لم يتجاوز السابعة من عمره.

المرأة ١ : ولم يبصر من الدنيا شيئاً.

المرأة ٣ : **(تعلو ولولتها)** آه يا لوعة الأمهات.

الطفلة : أمي.. سيحملونه في النعش مثل عمتي.

المرأة ١ : حماك الله من كل شر. ما ذكرك بها الآن!

(يدخل عدد آخر من الرجال والنسا، ويتسع الاجتماع).

الطفلة : ولكن النعش كبير.

الرجل ٥ : يا حسرتي.. النعش للكبار والصغار على السواء.

المرأة ٣ : **(تعلو ولولتها)** لا أمان. لا أمان على شيء.

الرجل ٣ : كفى ولولة يا امرأة.

الرجل ٧ : على مد عمري رأيت كثيراً من الفيلة. لكل ملك فيله.

ولكن حتى الآن لم أر كهذا الفيل شراً وغطرسة.

الرجل ٨ : لا يمر يوم دون أن نرى لوناً من أذاه.

الرجل ٣ : احذروا..

الرجلان ٤و٥ : إنه فيل الملك.

الرجل ٩ : والملك يحب فيله كثيراً.

المرأة ٣ : (من خلال نحيبها) ونحن.. ألا نحب أولادنا!

المرأة ٤ : ليخطفني الموت قبل أن يصيب واحداً منهم مكروه.

الطفلة : ولماذا يحب الملك فيلاً مؤذياً يا أمي؟

المرأة ١ : من يعرف يا ابنتي!

الرجل ٨ : يا الله: من أين جاءتنا هذه المصيبة!

الرجل ٩ : المصائب مقيمة أبداً..

الرجل ٧ : تعشش في ديارنا كالغربان.

(يدخل زكريا-شاب نحيل، عصبي الوجه، عيناه محتقنتان بالغضب- ومعه رجال آخرون).

زكريا : (الصوت عنيف وساخط) ما هذا؟ حالة لا تطاق، ولا تحتمل. (يلتفت إليه الجميع بخشية وحذر) ألا يكفينا ما نحن فيه. فقرٌ وعذاب.

الرجل ١١ : مظالم وأعمال سخرة.

الرجل ٢ : الله يبصر.

زكريا : أويلة.

الرجل ١٢ : مجاعات..

زكريا : ضرائب تفوق كسبنا الهزيل.

الرجل ٥ : ربكم بصير.

الرجل ٧ : يتعب اللسان لو بدأنا بالحديث عن همومنا.

زكريا : وفوق الحمل يجيئنا هذا الفيل..

المرأة : (مولولة) لا أمان.. لا أمان على شيء.

زكريا : لم نر يوماً أبيض منذ بدأ يسرح فى المدينة.

الرجل ٨ : لا حارس ولا لجام.

زكريا : يلذه الشر كالغذاء.

الرجل ٧ : كل يوم ضحية.

الرجل ١ : وكل يوم مصاب.

زكريا : البارحة خرب بسطة عيسى الجردى.
أتلف كل بضاعته وتركه يبكى خرابه وإفلاسه.

الرجل ٥ : مسكين سيجوع أهله.

زكريا : وأبو محمد حسان. أما كاد أن يودى به؟

الرجل ١١ : لولا حلم الله لقضى عليه. ظهره متورم.

الرجل ٨ : لن يغادر الفراش قبل شهور.

المرأة ٣ : لا أمان.. لا أمان على شىء.

الرجل ١٢ : علفت خروفى ثمانية أشهر. دفع لى القصاب عبد الهادى
ثمانى مجيديات فلم أبعه، وليتنى بعته. هرسه كالبرغوث.
عندما صار مكتنزاً باللحم والشحم هرسه كالبرغوث.

الرجل ٤ : يا لطيف..

زكريا : وخربت مزروعاتنا.

الرجل ٧ : لم يدخل أرضاً إلا أفسد زرعها، وأتلف محصولها.

الرجل ١١ : والنخيل. كم نخلة كسر حتى الآن!

الرجل ٨ : والله كسر النخلة الوحيدة التى أملكها.

الرجل ٥ : أنخلتك فقط؟ ما بقي في البلدة كلها إلا النخيل المعمر القوي.

(ينفر من الهمهمة البعيدة عويل امرأة مفجوعة)

المرأة ٤ : توجعى يا امرأة.. توجعى..

المرأة ٣ : يا لوعة الأمهات!

زكريا : وهدم بيت محمد إبراهيم.

الرجل ١٢ : الله كبير. لهم بقية من عمر. لو أنهم كانوا فى البيت

لعظمت المصيبة.

زكريا : واليوم..

الرجل ٤ : يا لطيف.

أصوات : (متداغمة، ومختلطة)- أستغفر الله.

- مصيبة.

- الله يساعد.

- كارثة لا يحتملها رجل.

- أف..

(ثم تبدأ الأصوات في التمايز..)

المرأة ٣ : لا أمان.. لا أمان على شيء.

الرجل ٧ : في حياتي كلها ما رأيت مثله شراً وأذى. أعوذ بالله. كأن الشيطان يلبس صورته، سحنة مقلوبة تفوح منها الكوارث.

أصوات : - يارب..

- أتنسون أنه فيل الملك!

- ما هذه الأيام السوداء!

زكريا : ويوماً بعد يوم ستزداد الضحايا وتكبر المصائب.

الرجل ١١ : اليوم طفل بريء، وغداً من يعرف!

زكريا : يلذ له الشر ويسره، كلما عاث في الأرض فساداً ازداد شراهة. أتعرفون تلك المخلوقات المصاصة للدماء.

كلما تكاثرت ضحاياها ازدادت عطشاً للدم. مزيداً من الدم...

أصوات : (جزعة ومشوشة)- تلطف بعبادك وارحم.

- حلمك يا قدير يا رب.

- يا جماعة.. أراكم تتسون أنه فيل الملك.

زكريا : يمص دمنا المزرق. والحالة من يوم إلى يوم تسوء.

الرجل ٧ : وهل بقي في عروقنا دم؟

الرجل ٢ : الله يبصر.

الرجل ٥ : الصبر مفتاح الفرج.

زكريا : وإلام نصبر؟

أصوات : (مبعثرة، ومتتابعة) حتى يفرجها الله.

زكريا : نولد ونموت وأعمارنا ليس إلا انتظاراً للفرج. صبرنا على الفقر.

الرجل ١١ : صبرنا على الضرائب والأوبئة.

الرجل ٧ : صبرنا على المظالم وأعمار السخرة.

زكريا : والآن يأتي هذا الفيل، فيدوس كل ما بقي لنا.

الرجل ١١ : أولادنا.

الرجل ٨ : أرزاقنا.

المرأة ٣ : لا أمان.. لا أمان على شيء.

زكريا : ولو دام الحال، فسيأتي دور كل منا كي يبكي ابنه، أو يبكيه أهله؟

أصوات : - يا ربي عفوك.

- لا يصيبكم إلا ما كتب عليكم.

- العين بصيرة واليد قصيرة.

- يدبرها الله.

زكريا : لا.. ما عادت الحالة تطاق.

الرجل ٣ : تطاق.. أو لا تطاق. ماذا بيدنا؟

زكريا : بيدنا!

أصوات : حقاً.. ماذا بيدنا؟

زكريا : أنا أقول لكم ماذا بيدنا.. نذهب جميعاً، ونشكو أمرنا للملك. نشرح له ما يحل بنا، ونرجوه أن يرد أذى فيله عنا.

أصوات : (بين الغمغمة والخوف.. بعضها يبدأ قبل أن ينهي زكريا عبارته).

- نشكو أمرنا للملك!

- نشكو أمرنا للملك!
- ندخل إلى القصر!
- ولم لا؟
- ومن نحن حتى نتحدث مع الملوك!
- نحن ناس مظلومون.
- ربما يصغى إلينا، ويرأف بحالنا.
- لن يسمحوا لنا.
- الشكوى لا تضر إن لم تنفع.
- قد يغضب، فلا يعلم بمصيرنا إلا الله.

(ثم تبدأ الأصوات في التمايز)

المرأة ٣ : هو ذا رجل يجرؤ على الكلام.

الرجل ٧ : نذهب ونصرخ قدامه.. النجدة يا ملك الزمان.

المرأة ٣ : لا أمان على شيء.. لا أمان.

المرأة ١ : والله لو سمع صراخ أمه، لرق قلبه ولو كان من حجر.

الرجل ٩ : لكن الملك يحب فيله كثيراً.

الرجل ٣ : يدلّله كأنه ابنه أو وزيره.

الرجل ٤ : رأوه يطعمه بيده.

الرجل ١٢ : ويشرف على حمامه بنفسه.

الرجل ٣ : سمعت أن الحراس يعزفون الموسيقى حين يخرج من القصر، وكذلك حين يعود.

الرجل ٩ : رغبته إرادة وما يفعله قانون.

الرجل ٥ : كاد الملك أن يطلق زوجه الملكة، لأنها لم تترفق بالفيل.

زكريا : (صارخاً) مبالغات.. مبالغات لا معنى لها.

الرجل ٣ : تقول مبالغات! وكأنك لا تعيش في هذه المدينة.

زكريا : (يسيطر صوته على الضجيج) بل أعيش فيها. من منكم رأى الملك يطعم فيله بيده، أو يشرف على حمامه بنفسه؟

بالتأكيد لا أحد. ربما كان يحبه لا أقول لا. كل الملوك يحبون فيلتهم. غير أنكم تبالغون فى تصوير الأمور.

الرجل ٣ : صحيح أننا لم نره، ولم نعبر فى حياتنا أسوار القصر. لكن لا تنس أن هناك خدماً يدخلون ويخرجون. وأن الأخبار يمكن أن تتسرب من داخل القصر.

الرجل ٤ : بل إنها غالباً ما تتسرب.

زكريا : الخدم يحبون المغالاة فى أخبار ساداتهم. ذلك جزء من حرفتهم.

الرجل ٧ : بالفعل. لعلهم يهولون علينا الأمور لا أكثر.

الرجل ٩ : وإذا كان ما يرونه صحيحاً؟

أصوات : سيطردوننا بقسوة.

سيغضب الملك

وإذا غضب الملوك، فالله وحده يعلم ما يحدث.

زكريا : (**مهدئاً الضوضاء**) ولكن يا جماعة، أصبحت حياتنا لا تحتمل ولا تطاق. ما الذى يمكن أن يخيفنا أكثر من هذا البلاء المقيم؟ التهديد كالسيف فوق رؤوسنا. والضحايا تتزايد من يوم إلى آخر.

الرجل ١١ : مساكن الناس تنهدم، وتتركهم بلا مأوى.

المرأة ٢ : الأطفال يداسون فى الطرقات بلا ذنب.

الرجل : الأرزاق تسبى وتضيع.

الرجل ٥ : النخيل.

الرجل ٦ : الماشية.

المرأة ٣ : (**مولولة**) لا أمان على شىء.

الرجل ٣ : (**ملتفتاً إليها بعصبية**) كفى ولولة أيتها المرأة.

زكريا : من يريد أن يكون ابنه الضحية الآتية، يلمه من الطريق بلا هيئة؟

أصوات : – بعداً للشر.

– حياتي ولا ظفر واحد منهم.

– ماعيشنا بعد أطفالنا؟

زكريا : (إلى الرجل الثالث) أنت مثلاً. ألا تبالي لو فقدت واحداً من أولادك؟

الرجل ٣ : (مرتبكاً) لا أبالي! من قال ذلك. لهم عيني وروحي. (متردداً) لكن..

الرجل ٧ : أي رجل لا يبالي بفقدان أولاده؟

الرجل ١١ : اللهم سوى الكافرين.

زكريا : وأرزاقكم! أيستوي عندكم خرابها؟

أصوات : – يستوي!

– من أين نعيش؟

– البقية الباقية.

– ثم من يعرف ماذا يخبئ الغد؟

زكريا : وإذن. أهناك خوف أشد من أن يخاف المرء كل لحظة على حياته أو طفله أو ما يملك؟

أصوات : – لا والله

– كلام صحيح.

– كله بلاء، فلماذا لا نحاول؟

– فعلاً.

– ماذا ننتظر؟

(ثم تتمايز الأصوات تدريجياً)

الرجل٧ : الحق.. رأي وجيه.

الرجل ١١ : منذ وقت طويل كان ينبغي أن نفكر في ذلك.

زكريا : ومن يعلم؟ ربما كان الملك لا يعرف ما يفعله بنا الفيل.

أصوات : هذا جائز.

زكريا : لا يقولون له خشية إزعاجه.

أصوات : والله جائز.

المرأة ٣ : فليحى الرجال من أمثالك.

زكريا : لذلك ما من حل آخر. نذهب بأنفسنا ونشكو للملك حالنا

أصوات : – نعم نذهب.

– هو ذا رأى سديد.

– كلما أسرعنا كان ذلك أفضل.

– نقابل الملك.

– نطلب منه إنصافنا.

الرجل ٣ : اللهم استرنا بسترك.

الرجل ٩ : هى مخاطرة على كل حال.

زكريا : ألا يزال بعض الرجال يترددون؟

الرجل ١١ : ولم التردد؟!

المرأة ٣ : هل ماتت النخوة؟

الرجل ٣ : لمى لسانك أيتها العجوز.

الرجل ٧ : لم يبق حل آخر.

زكريا : إذن فليجتمع كل الناس فى الباحة: نرتب كلامنا، ثم نمضى إلى القصر.

الطفلة : هل أنادى أبى كى يذهب معهم؟

المرأة ١ : (مؤنبة بصوت خفيض) هس.. لا يستطيع أبوك أن يترك عمله.

أصوات : – يا الله يا ناس.

– فلنجتمع فى الباحة.

– الجميع. الجميع.

– سنذهب إلى الملك ونشكو حالنا.

– الرجال والنساء.

- كل من يؤذيه الفيل.
- يا الله..

(وفيما يخرجون تخفت الأضواء تدريجياً)

- الجميع بلا استثناء.
- الكثرة أفضل.
- بسرعة.

(يعم الظلام، ويتلاشى صخبهم)

٢. تدريبات:

(يضاء المسرح. باحة عامة. الناس مجتمعون، يقف زكريا أمامهم. ضوضاء وغمغمات متداخلة غير واضحة).

زكريا : **(مهدئاً الضجيج، ومحاولاً السيطرة على الجمع)** كما قلت لكم مراراً. المهم هو النظام. أن نكون كلمة واحدة وصوتاً واحداً. كلما اتحدت أصواتنا ازداد تأثيرها، واشتد وقعها. ندخل هكذا.. **(يمثل ما يقول)** ننحنى أمام الملك بكل احترام وأدب. ثم أصرخ بملء فمي.. الفيل يا ملك الزمان.

الجماعة : (أصواتهم مفككة لم تتحد بعد. بعضهم يبدأ متأخراً، بعضهم يخطئ في العبارة، وبعضهم يقول عبارات أخرى. يتضح التفكك ويزداد فقرة بعد الأخرى).

قتل ابن محمد الفهد. داسه في الطريق، فصار لحماً معجوناً بالطين.

زكريا : الفيل يا ملك الزمان.

الجماعة : قبل أيام كاد أن يقتل أبو محمد حسان. وما يزال مطروحاً في فراشه حتى الآن.

زكريا : الفيل يا ملك الزمان.

الجماعة : خرب الأرزاق..

(يتضح أكثر تفكك الأصوات، ويزداد نشازها).

زكريا : يا جماعة، المسألة تحتاج إلى تنظيم وضبط. إذا لم نصبح كلمة واحدة وصوتاً واحداً، تضيع قيمة شكوانا. لا يحتاج الأمر إلى جهد عظيم. حاولوا أن تصرخوا العبارة في وقت واحد. معاً تبدأون. ومعاً تنتهون. لنجرب مرة أخرى.

أصوات : -لا تسرعوا..
- -حقاً من الأفضل أن نكون صوتاً واحداً.
- بلا فوضى.
- هناك من يشذ عن الكلام.
- صوتاً واحداً.

زكريا : لنجرب مرة أخرى. اهدأوا.. لنجرب مرة أخرى. (بعد أن يخف الضجيج) الفيل يا ملك الزمان.

الجماعة : (أصوات متضاربة)- قتل ابن محمد الفهد... كسّر النخيل....

زكريا : (مشيراً بالسكوت) لا.. لا.. من البداية.

أصوات : - نعيد من جديد!
- في الإعادة إفادة.
- إننا نضيع الوقت.

زكريا : من البداية.. ذلك أفيد. المهم اتحاد الكلمة. يالله... الفيل يا ملك الزمان.

الجماعة : (بدأت الأصوات تتسق) قتل ابن محمد الفهد، داسه في الطريق، فصار لحماً معجوناً بالطين.

زكريا : الفيل يا ملك الزمان.

الجماعة : قبل أيام كاد أن يقتل 'أبو محمد حسان'. وما يزال مطروحاً

في فراشه حتى الآن.

زكريا : الفيل يا ملك الزمان.

الجماعة : كسر النخيل. لم يبقى في البلدة إلا المعمر من النخيل.

زكريا : الفيل يا ملك الزمان.

الجماعة : هدم بيت محمد إبراهيم. ولو كانوا تحت سقفه آنذاك، لعظم المأتم، واشتدت الأحزان.

زكريا : الفيل يا ملك الزمان.

الجماعة : يقتل الخرفان. يدوس الدجاج. يظهر الموت إذا بان.

زكريا : الفيل يا ملك الزمان.

الجماعة : جعل الرعية بلا أمان.

زكريا ١ : اندبي أيتها المرأة.. اندبي..

المرأة ٣ : (تتميز عن الجمع) لا أمان.

الجماعة : الأطفال والأرزاق.

المرأة ٣ : لا أمان.

الجماعة : البيوت والحياة.

المرأة ٣ : لا ضمان ولا أمان.. لا ضمان ولا أمان.

زكريا : ثم تتحد كل أصواتنا لنلقى بين الملك رجاءنا يا الله.. ونحن.

الجماعة : ونحن الفقراء سكان المدينة جئنا نشكو حالنا، ومن الملك نتوسل إنصافنا. ضاقت بنا الحياة. ضاقت بنا الحياة. ضاقت بنا الحياة. (يزداد التفكك والنشاز)

زكريا : (ملوحاً بيده باحتجاج) ما زلنا بعيدين عن الإتقان المنشود. إذا لم تصبح أصواتنا صرخة واحدة. إذا لم تكن كلماتنا مرتبة وواضحة، لن يفهم الملك ما نريد. لن يتأثر لحالنا أو يشفق على أوضاعنا. هذه ليست شكوى رجل واحد. بل شكوى الجميع ينبغي أن نقولها بلسان واحد وصوت واحد.

أصوات : - من الذي يخطئ!

- كلامه صحيح

- سينزعج الملك من أصواتنا المتنافرة.

- الويل لنا أن انزعج.

- صوت في الشمال وصوت في الجنوب.

- القصر له احترام.

- تأنوا يا جماعة.

- على مهلكم

زكريا : سكوت.. سنجرب من جديد.

أصوات : - مرة أخرى!

- يكفي.

- ستبح أصواتنا.

- إننا نتأخر.

زكريا : هذه آخر مرة. انتبهوا جيداً، وتجنبوا اختلاط أصواتكم أو تنافرها. لننته يا جماعة. سكوت.. استعدوا. الفيل يا ملك الزمان.

(يبدأ الضوء بالانطفاء تدريجياً)

الجماعة : **(الأصوات أكثر اتساقاً واتحاداً)** قتل ابن محمد الفهد. داسه في الطريق، فصار لحماً معجوناً بالطين.

(وفيما تخفت الأضواء، تتلاشى الأصوات أيضاً. تصبح صدىً ثم تخمد).

زكريا : الفيل يا ملك الزمان.

الجماعة : وقبل أيام كاد أن يقتل أبو محمد حسان. ولا يزال مطروحاً في فراشه حتى الآن.

زكريا : الفيل يا ملك الزمان.

(غمغمة بعيدة تتخامد. ويعم الظلام فترة).

٣.أمام قصر الملك:

(كل الناس يجتمعون أمام أبواب القصر الذي يشغل الجزء الأكبر من المسرح، أنهم ينتظرون ويلغطون)

أصوات

- تأخر الحارس.
- لن يسمحوا لنا بدخول القصر.
- ولماذا لن يسمحوا لنا؟
- (صوت زكريا) من حق الرعية أن ترى ملكها.
- حقها؟ من الذي يبالي بالحقوق!
- وإن لم يسمحوا لنا بالدخول؟
- ماذا سنفعل حينئذ؟
- (صوت زكريا) اطمئنوا. لا بد أن يأذن لنا الملك بالدخول عليه.
- ما الضرر في سماع حديثنا!
- يقولون عنه رقيق القلب.
- أيته في عيد التتويج يبتسم.
- كلنا نذكر ابتسامته.
- غير أن الحارس تأخر.
- اللهم جملها بالستر.
- قد يكون الملك مشغولاً.
- نحن رعيته.
- لن نرفع ظلامتنا إذن؟
- لعلها تنتهي على خير.
- (صوت زكريا) لا تهسوا. المهم أن نكون صوتاً واحداً.
- كلمة واحدة.

- أرى الحارس!
- ها هو الحارس أخيراً.
- أي جواب يحمل؟

(يظهر الحارس على باب القصر).

الحارس : (باحتقار) أذن لكم الملك بالدخول.

أصوات : - آه.. أذن لنا بالدخول.
- أمد الله في عمر الملك.
- آمين.

الحارس **(مقاطعاً الضجة، يزداد الاحتقار في وجهه)** ولكن قبل أن تدخلوا، نظفوا أحذيتكم جيداً، وانفضوا ثيابكم، كيلا يهر منها قمل أو براغيث، **(يبدأ الناس لاشعورياً بمسح أحذيتهم، وتنفيض ثيابهم)** وأهم من كل هذا، أن تدخلوا بنظام وأدب، إياكم أن تلمسوا شيئاً. وتذكروا أنكم لستم على سراديكم بل في قصر الملك.

زكريا لا تخف.. لا تخف.. سنكون عند حسن ظنك في النظام والأدب.

الحارس اتبعوني إذن. ولا تحدثوا ضجيجاً.

٤- أمام الملك:

(يتقدم الحارس ووراءه الناس. يتلامح على وجوههم الخشوع والخوف والارتباك، وكلما تقدموا داخل القصر ستزداد هذه الأمارات وضوحاً وقوة. تنتشر بينهم همسات مبحوحة ومندهشة).

أصوات - أترى النوافير؟
- كالخيال.
- انظر إلى الرخام.

- يتلألأ بكل الألوان.
- (صوت زكريا) امشوا بهدوء، ولا تجروا أحذيتكم جراً.
- الحراس قساة.
- ينتظرون إشارة، وتسقط الأعناق.
- إننا ندخل القصر.

(يرتقون الدرجات المفضية إلى الباب الرئيسي. حارسان يقفان باستعداد على جانبي الباب).

- سيظهر العرش بكل مهابته.
- ترتخي ركبتاي..
- هذا البهو.
- قلبي يدق.
- حذروا أن تلوثوا السجاد.
- الحيطان تلمع كالنهار.
- أين الملك؟

(يفتح الحارس باباً في صدر البهو يقف عليه أربعة حراس)

- ولكل باب حراسه.
- تشتد الحراسة من باب إلى باب.
- وجوههم من الصوان أو الفولاذ.
- بدأت أتعرق.
- (صوت الطفلة) أين يختبئ الملك؟
- هس...
- نمشي في نفق من الذهب.
- (صوت زكريا) اضبطوا أعصابكم.
- يزيغ البصر.
- أين يمضون بنا؟
- ما هذه التجربة المخيفة!

- أصبح الحراس في كل الزوايا.
- القتل عندهم أهون من التثاؤب.
- القصر كالمتاهة.

(يقف الحارس أمام باب آخر، يحرسه عدد كبير من الجنود القساة)

الحارس **(ملتفتاً إلى الجماعة، وقد تزايدت رنة الاحتقار في صوته)** الآن تدخلون قاعة العرش. الويل لكم إن بدر منكم شغب أو قلة أدب، للمثول أمام الملك أصول فلا تنسوا ذلك.

زكريا سنثبت أننا نحسن الوقوف بين يدي الملك، أتسمعون يجب أن نكون في غاية الأدب.

ندخل في صفوف منتظمة، وننحني باحترام وخشوع، ثم بعدئذ نرفع للملك شكايتنا.

أصوات
- سنرى الملك...
- رأسي يدور.
- قلبي يدق.
- قلبي يدق.

(يفتح حارسان مصراعي الباب الكبير)

الحارس **(ميمماً وجهه إلى الداخل، ما يزال على الباب)** عامة المدينة على الباب، يا ملك الزمان.

الملك **(من الداخل)** ليدخلوا.

احنوا رؤوسكم وادخلوا.

الحارس **(يتقدم زكريا، يتبعه الناس الذين بدأ الذعر يشتتان نظراتهم وخطواتهم أيضاً)**

أصوات **(مبحوحة ورعشة)** الملك وبيده الصولجان.
- ضوء كالشمس.
- لا ترفع رأسك.

- الحراس كالأشباح.
- في كل ركن وزاوية.
- العرش عال.
- والملك يتألق كالشهب.
- الملك...

(تتجمد الملامح. يتحول الخوف صمتاً بارداً. الجميع خافضو الرؤوس، زكريا في طليعتهم.. يجرون خطوات ثقيلة، ينحنون إلى أقصى حدود الانحناء، ثم لا يجرؤون على النهوض بعدئذ).

الملك ماذا تريد الرعية من ملكها؟

(صمت ثقيل. لا اختلاجة ولا حركة. مجموعة من الأجساد المقوسة اليابسة).

الملك أأذن لكم بالكلام. تم جئتم تشكون؟

زكريا (متجرئاً صوته راجف) الفيل يا ملك الزمان.

الملك ما خبر الفيل؟

صوت (راعش من بين الجماعة) قت.. (ثم يختنق الصوت، ويتلفت صاحبه حوله بذعر).

زكريا (يقوى صوته) الفيل يا ملك الزمان.

الملك (متأففاً) وماله الفيل؟

صـــوت (خفيضاً) قتل ابن.. (تضع الأم يدها بهلع على فم الطفلة الصغيرة، وتجبرها على السكوت).

الملك ماذا أسمع؟..

زكريا (محرجاً وغاضباً. يعلو صوته أكثر) الفيل يا ملك الزمان.

الملك كاد صبري أن ينفذ. تكلم. ما خبر الفيل؟

زكريا (يائساً، يتلفت نحو الناس المقوسي الظهور في انحناءة خوف) الفيل يا ملك الزمان.

الملك توقف عن هذا النواح.. الفيل يا ملك الزمان. إما أن تتكلم، أو آمر بجلدك.

(يتفرس زكريا باحتقار ويأس. يتردد لحظات ثم يتغير وجهه، ويتقدم من الملك).

زكريا **(بمثل ما يقول بخفة وبراعة)** نحن نحب الفيل يا ملك الزمان. مثلكم نحبه ونرعاه. تبهجنا نزهاته في المدينة. وتسرنا رؤياه. تعودناه حتى أصبحنا لا نتصور الحياة دونه. ولكن.. لاحظنا أن الفيل دائماً وحيد، لا ينال حظه من الهناءة والسرور. الوحدة موحشة يا ملك الزمان. لذلك فكرنا أن نأتي نحن الرعية، فنطالب بتزويج الفيل كي تخف وحدته، وينجب لنا عشرات الأفيال. مئات الأفيال. آلاف الأفيال. كي تمتلئ المدينة بالفيلة.

أصوات **(كالحشرجة)** تزويج الفيل.

الملك **(مقهقهاً)** أهذا ما جئتم تطلبونه؟

زكريا لعل مولاي لا يرد لنا الرجاء.

الملك **(ملتفتاً إلى وزرائه وحاشيته)** أتسمعون! مطلب في غاية الطرافة. كنت أقول دائماً.. إني محظوظ برعيتي. حنان ورقة في الشعور. رعيتي مليئة بالحنان. كلها حنان. طبعاً سننفذ للشعب مطلبه. **(يدق الصولجان)** فرمانات ملكية. الفرمان الأول يأمر بالخروج إلى بلاد الهند لبحث عن فيلة يتزوجها الفيل. الفرمان الثاني يأمر بمكافأة هذا الرجل الجريء، وتعيينه مرافقاً دائماً للفيل. الفرمان الثالث يأمر بإقامة فرح عام ليلة العرس، تدق فيه الطبول، وتوزع على الشعب المآكل والمشروبات، ويعم السرور والانشراح خمسة أيام بلياليها.

زكريا أدام الله فضل الملك علينا.

أصوات **(كالحشرجة)** أدام الله فضل الملك علينا.

الملك (ضاحكاً) مطلبكم أجيب. تستطيعون الانصراف

(يتحركون بخطوات ذليلة منسحبين، وتخفت الأضواء فترة.

بعد ذلك ينتفض الجميع. يقفون صفاً أمام الجمهور،

وقد نفضوا عن حركاتهم وهيئاتهم مظاهر التمثيل.. بعد لحظات).

الجميع هذه حكاية.

ممثل ٥ ونحن ممثلون.

ممثل ٣ مثلناها لكم كي تتعلم معكم عبرتها.

ممثل ٧ هل عرفتم الآن لماذا توجد الفيلة؟

ممثل ٣ هل عرفتم الآن لماذا تتكاثر الفيلة؟

ممثل ٥ لكن حكايتنا ليست إلا البداية.

ممثل ٤ عندما تتكاثر الفيلة تبدأ حكاية أخرى.

الجميع حكاية دموية عنيفة.

وفي سهرة أخرى سنمثل جميعاً تلك الحكاية

(ثم ينسحب الجميع.. وتتلاشى الإضاءة.)

(ستار) ١٩٦٩

❖ ❖ ❖

"الاســـــــــتغاثة"[1]

لـــ: زكريا تامر

زكريا تامر:

كاتب القصة القصيرة الأكثر تميزاً في الأدب العربي الحديث، وصانعها الأمهر؛ ولد في دمشق عام (١٩٣١) وأتم تعليمه الابتدائي فيها، وفي عام ١٩٤٤ ترك المدرسة ليعمل في مهنة الحدادة التي استمر فيها حتى عام ١٩٦٠ عمل ما بين ١٩٦٠-١٩٦٣ في وزارة الثقافة والإرشاد القومي، وبين عام ١٩٦٣-١٩٦٥ في مجلة الموقف الأدبي، وأمضى عام ١٩٦٥ في جدة ليعمل لصالح التلفزيون السعودي. انتقل في عام ١٩٦٦ إلى وزارة الإعلام وعمل ما بين عامي ١٩٦٧ و١٩٧٠ في التلفزيون العربي السوري، وبين عامي ١٩٧٠ و١٩٧٥ في وزارة الإعلام ثانية ترأس خلالها رئاسة تحرير مجلة الموقف الأدبي، ونيابة رئاسة اتحاد الكتاب العرب بدمشق. وفي عام ١٩٧٥ تولى رئاسة تحرير مجلة اسامة التي تصدرها وزارة الثقافة، وبقي في منصبه هذا حتى عام ١٩٧٧ عندما تولى رئاسة تحرير مجلة المعرفة وظل فيها حتى عام ١٩٨٠.

غادر تامر دمشق إلى لندن عام ١٩٨١ وبقي فيها يكتب لعدد من دورياتها من مثل الدستور والتضامن والناقد، ودوريات الوطن العربي كـــالدوحة و القدس العربي وسواهما. يعيش الآن في أكسفورد، وقد منح مؤخراً وسام الاستحقاق السوري من الدرجة الممتازة من جانب الرئيس بشار الأسد.

---

[1] انظر: زكريا تامر، دمشق الحرائق، الطبعة الثالثة، (رياض الريس للكتب والنشر، بـــيروت، ١٩٩٤)، ص ص (١٤١-١٥٠).

يعد زكريا تامر أحد أبرز كتاب القصة القصيرة في الوطن العربي، وقد حقق دأبه وتطويره لفنه شهرة واسعة داخل الوطن العربي وخارجه إذ ترجمت قصصه إلى الإنكليزية والفرنسية والروسية والألمانية والإسبانية وغيرها من اللغات الحية.

وله على أي حال مجموعة مستقلة في كل من هذه اللغات الأربع والعديد من القصص في غيرها. نشر حتى الآن خمس مجموعات قصصية هي **صهيل الجواد الأبيض ١٩٦٠؛ وربيع في الرماد ١٩٦٣؛ والرعد ١٩٧٠،؛ ودمشق الحرائق ١٩٧٣، والنمور في اليوم العاشر ١٩٨٧، و دعاء نوح ١٩٩٤، و سنضحك ١٩٩٨، و الحصرم ٢٠٠٠، و تكسير ركب ٢٠٠٢، والقنفذ ٢٠٠٥**، وعدداً كبيراً من مجموعات قصص الأطفال أبرزها **لماذا سكت النهر ١٩٧٣، وقالت الوردة للسنونو ١٩٧٧، والبيت ١٩٧٥**. أما أبرز دارسيه من العرب فهم حسام الخطيب، ورضوان ظاظا، وعبد الرزاق عيد، ورياض عصمت، ومحمد كامل الخطيب، وعبد النبي اصطيف، وكمال أبو ديب؛ ومن الأجانب كلود كرول، ومترجموه الكثر إلى مختلف اللغات، والذين قدموا لنتاجه المترجم.

❖ ❖ ❖

القصة:

أقبلت الاستغاثة ليلاً إلى دمشق النائمة طفلة مقطوعة الرأس واليدين، وتراباً يحترق، وطيوراً تودع أجنحتها السماء والأشجار غير أن أهل دمشق كانوا نياماً، فلم يسمع الاستغاثة سوى تمثال من نحاس لرجل يشهر سيفاً، ويقف فوق قاعدة من حجر مطلاً شامخ الرأس على حديقة مبنى.

واجتاحت الاستغاثة تمثال النحاس مرّة ضارعة، ففقد صلابته شيئاً فشيئاً، ثم تحوّل رجلاً يمشي ويتكلم ويغضب ويصرخ.

ولقد مشى ذلك الرجل في الشوارع الخاوية المتروكة لظلمة الليل، ولكنه كفّ

عن السير لما اعترض طريقه حارس ليلي، وقال له بصرامة: "قف. ماذا تحمل؟".

قال الرجل: "أحمل سيفاً".

-: "ولمن السيف؟".

-: "السف سيفي".

-: "وهل السيف تفاحة أو برتقالة؟ ألا تعلم أن السيف سلاح؟".

-: "أعلم طبعاً".

-: "ألا تعلم أيضاً أن القانون يحظر حمل السلاح؟".

-: "يحق لي حمل السلاح، فالسلاح جزء من مهنتي".

-: "وما مهنتك؟ تاجر أسلحة؟!".

-: "أنا وزير.. وزير الحربية".

-: "أنت؟! وزير؟!".

قال الرجل بهدوء: "نعم أنا وزير. لماذا الاستغراب؟"

فضحك الحارس، وقال: "لابدّ أنك سكران".

-: "أنت مخطئ. أنا لست بسكران".

-: "إذن أنت كذاب".

-: "كن مؤدباً وإلاّ ندمت. أنا لم أكذب في أي يوم من الأيام".

-: "سأتغاضى عن وقاحتك وأثبت لك كذبك. اسمع. الوزير لا يمشي في آخر الليل كالشحاذ بل يركب سيارة طويلة عريضة، والوزير لا يحمل سلاحاً بل يرافقه دائماً شرطي مسلح بمسدس، والسيف الآن يكتفى بتعليقه على جدران الغرف كتحفة أثرية، ولا أحد يستخدمه كسلاح سوى ضعاف العقول".

قال الرجل باستياء: "لا يحق لك احتقار السيف، فهل نسيت أن أجدادنا أرعبوا الدنيا بسيوفهم؟".

قال الحارس بصوت ساخر ممطوط: 'إيه. رحمة الله على أجدادي وأجدادك'.

ثم أضاف بلهجة جافة: 'أعطني هويتك'.

-: 'لا أحمل هوية'.

-: 'لا تحمل هوية؟! ما اسمك أم أنك لا تحمل أيضاً اسماً'.

-: 'اسمي يوسف العظمة'.

-: 'وأنت وزير؟'.

-: 'نعم أنا وزير'.

-: 'اسمع يا رجل يا خرف. الواقف أمامك ليس أمياً في كل يوم أقرأ الجرائد وأسمع نشرات الأخبار من الراديو والتلفزيون، ولم يذكر اسمك مرة واحدة بين أسماء الوزراء'.

قال يوسف العظمة بدهشة: 'ماذا تقول؟! كيف لم تسمع باسمي؟ تاريخ حياتي يدرّس في المدارس'.

قال الحارس: 'ما شاء الله! ما شاء الله! وماذا فعلت حتى صارت حياتك تدرس في المدارس كالجغرافيا والحساب؟ اخترعت صاروخاً؟'.

قال يوسف العظمة: 'أنا الذي حارب الجيش الفرنسي في ميسلون لمنعه من الوصول إلى دمشق واحتلالها. وهناك في ميسلون قُتلت'.

فقال الحارس بمرح: 'هكذا إذن؟! قتلت في ميسلون وأنت تتحدث معي بعد أن هربت من القبر؟! قل لي: أين كفنك ومن أين سرقت هذه الثياب التي ترتديها؟'.

لم يجب يوسف العظمة بكلمة، فنظر الحارس إلى السماء، وقال متصنّعاً الخشوع: 'سبحانك يا من تحيي العظام وهي رميم'.

في تلك اللحظة جاءت سيارة حمراء اللون، ووقفت بالقرب منهما، وأطلّ من

نافذتها شرطي، وقال للحارس متسائلاً: 'ما الخبر؟'.

قال الحارس: 'الأخ يتجول وهو يحمل سيفاً ويدعي أنه وزير'.

قال الشرطي: 'سنأخذه معنا ونريحك منه'.

ثم أضاف موجهاً الكلام إلى يوسف العظمة: 'هل يتفضل السيد الوزير بالركوب في سيارتنا؟'.

فصعد يوسف العظمة إلى السيارة التي انطلقت تواً تسير في الشوارع مسرعة حتى بلغت مبنى عتيقاً، وعندئذٍ توقفت، واقتاد شرطي يوسف العظمة إلى غرفة رئيس المخفر.

كان رئيس المخفر رجلاً بديناً متعب الوجه، وقد ابتسم إثر سماعه ما قاله الشرطي بصوت خفيض، ثم نظر إلى يوسف العظمة متفحّصاً، وقال له متسائلاً: 'من أنت؟'.

-: 'أنا يوسف العظمة'.

-: 'وماذا تشتغل؟'.

-: 'أنا وزير الحربية'.

-: 'أأنت يوسف العظمة نفسه الذي قتل في ميسلون؟'.

-: 'نعم. استشهدت في ميسلون وأنا أحارب الأعداء الذي كانوا يريدون احتلال البلاد'.

-: 'ولماذا فشلت في منعهم من احتلالها؟'.

فهمّ يوسف العظمة بالجواب، ولكن جرس التلفون رنّ، فتناول رئيس المخفر السماعة، وابتدأ يتكلم.

وانفجرت قنبلة فوق أرض ميسلون، وأصابت إحدى شظاياها ساعد يوسف العظمة، فهرع إليه طبيب وشرع يضمد جرحه وهو يقول له بلهجة متوسلة: 'وقوفك هنا يعرض حياتك للخطر'.

- : 'مهمتي اليوم أن أحارب العدو وأهلك لا أن أهرب وأنجو'.

- : 'ولكن قوات العدو تفوقنا سلاحاً وعدداً؟'.

- : 'ماذا تقترح؟'.

- : 'الانسحاب سيحافظ على أرواح رجالنا'.

- : 'إذن أنت تقترح الهرب؟!'.

- : 'إني أقترح الانسحاب لا الهرب'.

- : 'الانسحاب والهرب أمر واحد لأن الوطن في حال الانسحاب أو الهرب سيترك للعدو ليستولي عليه'.

_: 'سنهزم لا محالة'.

- : 'نعم سنهزم ونحن نحارب'.

- : 'ستقتل. أنت وزير الحربية وحياتك ليست ملكاً لك إنها ملك للوطن'.

- : 'أنا الآن مجرد جندي، والناس يجوعون ويدفعون ثمن خبزهم للجنود كي يموتوا وهم يدافعون عن الوطن. سأكون خائناً ولصاً إذا لم أمت اليوم'.

- : 'رجالنا ليسوا جنوداً مدربين على القتال'.

- : 'الوطن المهدد اليوم بالاحتلال وطنهم، ويجب أن يموتوا في سبيله'.

وانفجرت قنبلة وسقط يوسف العظمة على الأرض ممزق الجسد.

وصاح رئيس المخفر: 'تكلم.. أين تسكن؟'.

قال يوسف العظمة وهو يبتسم مستغرباً: 'لا بيت لي'.

قال رئيس المخفر: 'إذن ستنام الليلة في مكان يليق بك'.

ثم تحدث إلى الشرطي همساً، وبعدئذ دنا الشرطي من يوسف العظمة، وقال له وهو يريت بيده على كتفه: 'هل يسمح السيد الوزير بتسليمنا سيفه؟'.

- : 'السيف لا يتخلى عنه إلا في حال الاستسلام أو الموت'.

- : 'اطمئن. سنعيده إليك صباح غد'.

فقطب يوسف العظمة جبينه مفكراً، ثم سار بخطى وئيدة نحو طاولة رئيس المخفر، ووضع سيفه على سطحها وهو يقول بصوت كئيب: 'إني أتخلى لكم عن سيفي لأنكم من أبناء بلدي'.

فقال له الشرطي: 'والآن تفضل بمرافقتي'.

وعاد يوسف العظمة ثانية إلى السيارة الحمراء التي انطلقت مرة أخرى تسير في الشوارع بأقصى سرعة، ثم توقفت بعد دقائق أمام بناية تحيطها أشجار وأسوار.

ونزل الشرطي من السيارة، وغاب في جوف البناية ليرجع بعد قليل وبرفقته رجل يرتدي ثياباً بيضاً.

قال الرجل ذو الثياب البيض ليوسف العظمة: 'هل يسمح لي السيد الوزير بإرشاده إلى غرفته التي سينام فيها الليلة؟'.

فهزّ يوسف العظمة رأسه موافقاً، ووجد نفسه بعد هنيهات واقفاً في غرفة صغيرة، فقال للرجل ذي الثياب البيض الذي كان يهمّ بالخروج من الغرفة: 'أين أنا؟'.

قال الرجل: 'أنت طبعاً في أفخم فندق في البلد'.

ثم غادر الغرفة مغلقاً الباب خلفه بحركة سريعة عنيفة.

دهش يوسف العظمة، وتجوّل في الغرفة قليلاً ثم اتجه إلى الباب وحاول فتحه، فألفاه مقفلاً. عندئذ أقبلت الاستغاثة من أرض يحتلها الأعداء، وتغلغلت في هواء الغرفة، فارتجف يوسف العظمة، واندفع نحو نافذة صغيرة، وأمسكت أصابعه بقضبانها، وتطلّع إلى الخارج، فإذا السماء مغطاة بالسحب السود.

وسمع صوتاً يقول له: 'ستقتل.. ستسجن.. اهرب'.

فقال يوسف العظمة بنزق: 'السجن للرجال، والموت لا مهرب منه'.

وتهالك على الأرض ممزق الجسد، وتحلق حوله الأعداء المنتصرون، فها هو يوسف العظمة سقط أسيراً.

وأغمض يوسف العظمة عينيه، وأحسّ بأن شرايينه تمتلك آلاف الأجنحة التواقة إلى فضاء رحب، فأطلق استغاثة التقت بالاستغاثة الآتية من أرض يحتلها الأعداء، وامتزجتا في صراخ مديد تبدد في ظلمة الليل المهيمن على دمشق النائمة.

Damascus University

فن المقالة

المقالة قطعة نثرية تعنى بقضايا عديدة خاصة أو عامة، وتعالج موضوعها بانطباع ذاتي أو رأي خاص، وليس العلمية والموضوعية شرطها، فالعامل الذاتي يبرز فيها بروزا ساطعاً، وليس من الضروري أن يتناقض هذا مع المنهج العلمي، ومنطق البحث، فمن المفضل أن تبنى مقدماتها على الحقائق، لتخلص في الخاتمة إلى النتائج.

وهي متوسطة الحجم، منثورة بأسلوب يمتاز بالسهولة واليسر، والعفوية وشيء من السرعة.

نشأت المقالة الحديثة في الغرب، في القرن السادس عشر وكانت تتسم بالقصر وبالذاتية، وانصرفت إلى معالجة موضوعات تربوية وخلقية واجتماعية وسياسية، ولقيت رواجاً في أوساط القرّاء. وفي القرن الثامن عشر تطورت فصارت نوعا أدبياً قائماً بذاته يتناول فيه الكاتب مظاهر الحياة في مجتمعه بالنقد والتحليل، وكان لظهور الصحافة وتطورها أثر في تقدم فن المقالة وانتشاره وازدهاره. وهذا ما دفع إلى بروز عناصر جديدة في هذا الفن ولا سيما الفكاهة والسخرية، والنقد والتهكم، والوعظ والإصلاح. وفي القرن التاسع عشر اتسع نطاق المقالة ليشمل نواحي الحياة كلها.

والمقال جنس أدبي جديد في أدبنا العربي، ويمكن الإشارة إلى أنواع أدبية في الأدب العربي القديم فيها خصائص هذا الفن، وبعض عناصره على نحو ما نجد في كتابات عبد الحميد الكاتب وابن المقفع والجاحظ وابن العميد والصاحب بن عباد وأبي حيان التوحيدي. لكن مقالة اليوم تتفرد بخصائص

متميزة. بسبب تأثر كتّاب المقالة الحديثة بنظريات المعرفة المعاصرة، الكثيرة والمتجددة، وبسبب عصر السرعة وثورة الاتصالات وتبادل المعلومات، جرّاء ارتقاء الوعي، وظهور الأحزاب السياسية والتيارات الفكرية... وتقدم الصحافة وفنون الطباعة.

ويتصل فن المقالة العربية المعاصرة بتاريخ الصحافة العربية، وبأثر الغرب، لذلك تعد حملة نابليون على مصر منطلقاً في هذا المجال.

كان لظهور الصحف والمجلات المتخصصة، وعقد المؤتمرات والندوات، ونشاط الحياة الثقافية والسياسية أثر في تنوع أشكال المقالة وأساليبها، وازداد الأمر ثراء وتنوعاً بعد ظهور الأنترنيت.

والمقالان التاليان لباحثين وأستاذين جامعيين، كتبا عدداً من المقالات والأبحاث تعنى بقضايا الساعة، وبإشكالات الواقع العربي الإسلامي في تواصله مع الآخر.

Damascus University

نحن والغرب:

من 'صدام الحضارات' إلى 'الشراكة المعرفية'

أ. د. عبد النبي اصطيف[1]

(ملاحظة): المقال بترجمته إلى اللغة الإنكليزية ملحق في آخر الكتاب.

---

[1] من مواليد دمشق ١٩٥٢م؛

ناقد مقارن، وباحث، وأستاذ جامعي، ومترجم؛

دكتوراه فلسفة في النقد المقارن، جامعة أكسفورد، ١٩٨٣م؛

أستاذ الأدب المقارن والنقد الحديث، ورئيس قسم اللغة العربية وآدابها، جامعة دمشق؛

درس في جامعات عربية (جامعة صنعاء، وجامعة الملك سعود)؛

وأوربية (خاومي الأولى في إسبانية)؛ وبريطانية (أكسفورد)؛

وأمريكية (نيوكوليج في جامعة جنوبي فلوريدا)؛

وأسترالية (ديكين في ميلبورن)؛

فضلاً عن جامعة البعث، والمعهد العالي للفنون المسرحية؛

فاز بعدة جوائز ومنح علمية في سورية وأوربة والولايات المتحدة وأستراليا؛

جامعة دمشق للشؤون العلمية؛

رئيس تحرير سابق لـ مجلة جامعة دمشق للآداب والعلوم الإنسانية؛

عضو اتحاد الكتاب العرب بدمشق، ومقرر سابق لـ جمعية النقد الأدبي؛

نشر أكثر من ٦٠٠ بحث ومقالة في أكثر من ٦٠ دورية بالعربية والإنكليزية في سورية والوطن العربي وأوربة والولايات المتحدة الأمريكية، فضلاً عن إسهاماته في "الموسوعة العربية" و "موسوعة الأدب العربي" بالإنكليزية؛

شارك في تأليف ثمانية عشر كتاباً بالعربية والإنكليزية، يدرس بعضها في الجامعات السورية ومعاهد إعداد المدرسين؛

من ابرز مؤلفاته:

سورية: مملكة الكتابة العريقة، نقد ثقافي أم نقد أدبي؟، في النقد الأدبي العربي الحديث، نحو استشراق جديد، من المركز إلى المحيط: النقد المقارن للأدب على مشارف الألف الثالثة، نحن والغرب: من صدام الحضارات إلى الشراكة المعرفية.

تقديم

ثمة ما يُشبه الإجماعَ بين مختلف دارسي علاقة الشرق بالغرب على أنها علاقة إشكالية. ففضلاً عن كونها مُثْقلةً بتركه تاريخيّة طويلة من الصراعات والمواجهات تمتدّ أكثر من ألفيّ عام، فإنّها تنطوي على أبعادٍ إيديولوجية تتصل بالفكر والدين والتصورات الكبرى في الحياة الإنسانية، وترتبط على نحو دقيق بمصالح دنيوية آنية ومستقبلية، وتَخْضع لرؤى مستقبليةٍ متباينة تخفي الكثير من مواقف كلٍّ طرفٍ من هذه العلاقة إزاء الطرف الآخر.

ومع التحوُّل الخطير الذي شهده عالمُنا المعاصر من عالم القطبيّن المتكافئيّن الذي ضَمِنَ حداً أدنى من التوازن في العلاقات الدولية على جميع المستويات، إلى عالم القطب الواحد الذي بات يُغري بمواجهة 'الآخر' ما دامت ستنتهي المواجهة بهزيمته واحتوائه وتدجينه والتحكم بمقدرته ومصائر.

يَطرح بعضُ المفكّرين الغربيّين ولا سيما في الولايات المتحدة الأمريكية مفهومَ 'صدام الحضارات' مبدأ يحكم التطوُّرات المستقبلية التي يرغبون في تحققها وتحويلها إلى واقع يعزّز الهيمنة الأميركية على العالم وأمركته. وعلى الرغم مما يُعتور هذا المفهومَ من مغالطات نظريّة، وما ينطوي عليه من تجاهل فج لحقائق التاريخ الإنسانيّ، فإنهُ يَظْفر برواجٍ مُغْرِض في دوائر صنع القرار في الغرب، وبخاصةٍ في واشنطن: فواشنطن ترغب في أن يسود العالَمَ مناخٌ من المواجهات والصراعات تؤدي فيه دور الحكم والقرار، وتفيد من حسم الصراعات والمواجهات بحلّها بطريقتها الخاصة. وهو حَلٌّ يَكْفل مصالحها الدنيويّة، ويحقّق مراميها القريبة والبعيدة، ويَفْرض في نهاية المطاف قيمَها التي تسوِّغ سيادتَها وهيمنتَها على سائر العالم.

بين الشرق والغرب: إشكالية مركّبة

ليست علاقة الشرق بالغرب مجرّد علاقة جغرافية بين كيانيْن يَحدّان بعضُهما بعضاً، ويحدّدان هوية بعضهما بعضاً. وليست المسألة أنّ رقعةً معيّنةً من الأرض تقع إلى الشرق من رقعة أخرى، وأن هذه الأخرى تقع إلى الغرب من الأولى؛ فكل رقعة لها شرقُها مثلما لها غربُها، والأمر يتوقف في نهاية المطاف على المركز الذي نبدأ منه في الحديث عن شرق وغرب.

وإذا كان البعضُ يميل اليوم إلى استعمال 'الشرق' ليشير به إلى العالم الذي يقع إلى الشرق من أوربا الغربيّة بصرف النظر عما ينطوي عليه هذا التعميمُ من طمس للغنى والتنوّع الذي نجده في هذا الشرق، ويميل إلى استعمال 'الغرب' ليشير أساساً إلى 'العالم المتقدّم' أو 'العالم الأول' أو 'أوربا الغربيّة وشمالي أميركا' مضافاً إليهما 'اليابان'... فإن هذه القسمة في الواقع قسمةٌ أنطولوجيّة، جغرافيّة . سياسيّة، فكريّة . إيديولوجية، بل ومعرفيّةٌ تقوم على شرخٍ في التفكير لا يستطيع أن يرى الكونَ إلاّ من خلال أضداد مزدوجة يحدّد كلٌّ ضدٍ فيها الآخرَ ويمنحه هويّتَه. فثمّة كثرة كاثرةٌ من الغرب بعدد كيانات الغرب السياسيّة والقوميّة والإثنية والثقافية، وثمة أعداد عديدة من الشرق بعدد كياناته كذلك. ومعنى هذا أنّ التعميم على هذا النحو الذي يقسّم العالَمَ هذه القسمةَ تعميمٌ عابثٌ لا طائل منه، وينطوي على الكثير من المفارقات والمغالطات.

ولكنّ الحقيقة المؤسفة كذلك هي أنّ هذه القسمة رائجةٌ شائعةٌ مقبولةٌ إلى درجة اعتبارها مسلمةً لا يأتيها الباطلُ من بين يديها ولا من خلفها. وربما كان وراء هذا الشيوع أسباب ومُسوّغاتٌ أهمُّها أنّها علاقةٌ تضرب جذورها في التاريخ القديم، إذ يردُّها بعضهم إلى أيّام الإسكندر المقدونيّ وما تلاها من

مواجهات متعاقبة بين الفرس والروم، وبين العرب والروم، وبين التركمان والبيزنطيين، وبين العرب والحملات الصليبيَّة، وبين العرب والأوربيين في الأندلس وصقلية، وبين العثمانيين والأوربيين في جنوبي أوربا، ثم ما شهده القرنان الأخيران من مواجهة كادت أن تكون شاملة لكلّ مناحي الحياة بين الغرب المستعمِر والوطن العربيّ الذي لا يكاد يُحقِّق فكّ الارتباط في مواجهةٍ حتى ينشغل بمواجهة جديدة.

ولكنّ هذه العلاقة ليست علاقة عريقة وحسب، بل إنَّها كذلك تنطوي على أبعاد أيديولوجية هي مزيجٌ من الدين والفكر، ولا سيما بعد استحواذ الغرب للديانة المسيحيَّة ومِنْ قَبْلِها اليهوديّة واعتباره إيَّاهما ديانتَيْن غربيَّتَيْن في مقابل الإسلام الذي عدّه الغربُ ديانةً شرقيَّة تريد أن تمتدّ وتنتشر على حساب الغرب الذي يحاول بدوره أن يحتويَها ويحصرَها في رقعة محدودة. ولكنّ المفارقة اليوم هي أنَّ الإسلام بات ينتشر في الغرب، والخوف كل الخوف أن تتحول 'دار الحرب' الأوربية إلى 'دار إسلام' كما كان الحال عليه في أجزاء من أوربا في العصور الوسطى.

وفضلاً عمّا تقدَّم، فإن هذه القسمة الثنائيَّة للعالم مرتبطةٌ أوثقَ الارتباط بمصالح دنيوية آنيَّة ومستقبليَّة يرى فيها الغربُ مصالح حيويَّةً يشكّل أيَّ تهديد لها تهديداً للمصالح الأمنية القوميَّة، التي تُستنفَرُ من أجل الحفاظ عليها جميعُ الطاقات ويُسوغُ من أجل ضمانها استخدامُ أحدث القدرات العسكريَّة وأكثرها تطوُّراً (كما حدث في حرب الخليج الثانية) ذلك أنّ المهم هو الحفاظ على هذه القسمة بين عالم غربيٍّ يمتلك المعرفةَ والقوة ويتمتع بدرجات مرتفعة من الرفاهية والكفاية، وعالم آخر شرقيٍّ يمتلك الطاقةَ والموادَّ الأولية واليدَ العاملة الرخيصة والسوق الواسعة - على أن يتسنَّمَ الأولُ في هذه العلاقة موقعَ السيد المتحكّم المقرِّر الآمرِ الناهي، ويرضى الثاني منها بموقع التابع

والمنضوي والثانويّ والمنصاع.

ومعنى هذا أنّ على هذه القسمة أن تبقى، ولا سيّما بعد التحوُّل الذي شهده عالمُنا المعاصرُ: من عالم القوتين العظميين، إلى عالم القوة العظمى الوحيدة التي تقود قوى إقليميَّة وتوجهُها وتعبئُها مستعينةً بالأمم المتحدة لفرضِ ما تريده من وقائع تَخْدم مصالحَ أمنها القوميّ.

مناخ الصدام والمواجهة

ولكنْ كيف يمكن للغرب أن يروِّج لهذه القسمة في زمنٍ زال فيه الخطرُ الشيوعيُّ المتمثِّل بالاتحاد السوفيتيّ ودولِ حلفِ وارسو؟ ومَنْ يجرؤ اليومَ على تحدي إرادة الغرب السياسيَّة والاقتصاديَّة أو العسكريَّة دون أن يَدْفع ثمناً باهظاً بهذا التحدّي ثم ينصاع في نهاية المطاف لهذه الإرادة؟

لا بدَّ، إذن، من خلق خصمٍ جديدٍ مع الآخر لتوريطه في نزاعٍ يعزِّز مناخَ المواجهة، ما دامت حصيلتها مُطْمَئِنة: وهي انتصار الأقوى سياسياً واقتصادياً وعسكريّاً ومعرفيّاً، أي الغرب.

يكتب صموئيل هنتغتون عن الغرب واضعاً إيَّاه قُبالة سائر العالم قائلاً: الغربُ اليومَ في ذروة قوة غير عاديَّة بالنسبة إلى الحضارات الأخرى فخصمُهُ القوةُ العظمى قد اختفى من الخارطة، والصراعُ العسكريُّ بين الدول الغربيَّة غيرُ وارد، والقوةُ العسكرية الغربيَّة لا تُجارى. وباستثناء اليابان فإنّ الغرب لا يواجِه أيّ تحدٍّ اقتصاديّ. وهو يهيمن على المؤسسات السياسيَّة والأمنيَّة الدوليَّة، ويهيمنُ مع اليابان على المؤسسات الاقتصادية الدوليَّة. إن المسائل السياسية العالمية تُحلُّ فعلياً من قبل مجلس إدارة من الولايات المتحدة وبريطانيا وفرنسا، وإن المسائل الاقتصادية العالميَّة تُحلُّ من قبل مجلس إدارة من الولايات المتحدة ألمانيا واليابان. وجميع البلدان تحتفظ بعلاقات متينة متانةً غير عاديةٍ فيما بينها، مستبعدةً الأقطارَ الأقلَّ شأناً والأقطارَ غيرَ

الغربية. إنّ القرارات المصنوعة في مجلس الأمن في الأمم المتحدة، أو في صندوق النقد الدوليّ، تعكس مصالح الغرب، وتقدّم إلى العالم على أنها تعكس رغبات المجتمع الدولي، وعبارة 'المجتمع الدولي' غدت اسماً جمعياً ملطّفاً (في مكان 'العالم الحر') لمنح الشرعية العالميّة لأعمالٍ تعكس مصالح الولايات المتحدة والقوى الغربيّة الأخرى. ومن خلال صندوق النقد الدوليّ، والمؤسسات الاقتصاديّة الدوليّة الأخرى، يروّج الغربُ لمصالحه الاقتصاديّة ويفرض على الأمم الأخرى السياسات الاقتصاديّة التي يعتقد أنّها ملائمة لذلك'. وباختصار شديد، وبوضوح أشدّ، يمكن أن يتبين بسهولة 'أنّ الغرب في الواقع يستخدم المؤسسات الدوليّة، والقوة العسكريّة، والموارد الاقتصاديّة، ليدير العالم على نحوٍ يُحفظ الهيمنة الغربيّة، ويحمي المصالح الغربيّة، ويروّج القيم السياسيّة والاقتصاديّة الغربيّة'[1].

وهذا الوضع القائم وضعٌ مثاليّ بالنسبة إلى الغرب لأنّه يكفل له الحفاظ على الهيمنة على مقدرات العالم، بل الكون، من خلال 'النظام العالميّ الجديد' الذي هو، بحق، نوعٌ متطوّرٌ جداً من الإمبريالية الجديدة ذات الجدوى الاقتصاديّة الواضحة. ومن أجل المحافظة عليه لا بدّ من ترسيخ فكرة تميّز الغرب عن سائر العالم، وبالتالي تسويغ هيمنته وموقعه وأفعاله فيه، ولا بد كذلك من افتعال صراع مع مصدر خطر يمكن أن يشك في تميّز هذا الغرب أو في تفوقّه. ما دام الخطرُ العسكريّ قد زال بزوال الاتحاد السوفياتيّ ودولِ الكتلة الشرقيّة التي انضوى معظمُها الآن تحت لواء حلف الأطلسي، وما دام الخطرُ الاقتصاديُّ المتمثّل بالنمور الآسيويّة قد تمّ احتواؤه، فلا بدّ من التفكير بخطر آخر، وليكن هذا الخطرُ الحضاريُّ المتمثّل بالحضارات الأخرى التي

١-Samuelp. Huntington 'the clash of civilisations' in Foreign Affairs, vol, ٧٢, No١٩٩٣p٣..٩٣-١٠٠٢ Summer.

تحمل قيماً أخرى مباينةً لقيم ما يسمّى بالحضارة الغربيّة. وليكن العصر القادمُ عصرَ 'صدام الحضارات' وفيه يحلّ - محلَّ الصراع الثنائيّ القطب الذي ساد في الفترة التي تلت انتهاء الحرب العالميّة الثانيّة - صراعُ من لونٍ جديدٍ هو صراعٌ متعدّدُ الأقطاب، 'صراعٌ بين جماعات تنتمي إلى حضارات مختلفة'[1]. وهكذا تأتي فرضيةُ صموئيل هنتغتون التي أعلنها بدايةً في مقالته المشهورة 'صدام الحضارات' التي نشرها في صيف عام ١٩٩٣ في مجلة Affairs Foreign، ثم ما لبث أن وسّعها وأخرجها في كتاب حمل عنوان: صدام الحضارات وإعادة صنع النظام العالميّ الجديد عام ١٩٩٦[2]. وخلاصة هذه النظريّة هي: أنّ المصدر الأساسي للصراع في هذا العالم الجديد لن يكون بشكلٍ رئيسيٍّ إيديولوجياً أو اقتصادياً. وستكون التقسيماتُ الكبرى ضمن النوع البشريّ ومصدر الصراع المهيمن ثقافيةً. وستظل الدول - القوميّة اللاعب الأكثر قوةً في الشؤون العالميّة. ولكن الصراعات الرئيسية للسياسة العالميّة ستحدث بين أمم وجماعات ذات حضارات مختلفة. وسيهيمن صدامُ الحضارات على السياسة العالميّة. وستكون خطوطُ الصدع بين الحضارات خطوطُ المعركة في المستقبل. ومعنى هذا أنّ الصراع بين الحضارات سيكون الطورَ الأخير في تطوُّر الصراع في العالم الحديث[3].

---

[1] المصدر السابق، ص ٢٢.

[2] - samuel p.Huntington: 'the clash of civilisations and the Remaking of world orlded. Simon and sehuster.new York. ١٩٩٦. وقد ترجم إلى العربية بعد عامين: انظر: صاموئيل هنتغتون صدام الحضارات... إعادة صنع النظام العالميّ، ترجمة: طلعت الشايب، تقديم د. صلاح قنصوه، دار سطور، القاهرة، ١٩٩٨.

[3] انظر مقالة هنتغتون: 'صدام الحضارات' (بالانكليزيّة)، ص ٢٢.

إذن لا بدَّ من استمرار الصراع بين الأمم والشعوب، ولا بد من أن يكون هناك باستمرارٍ منتصرٌ ومنهزمٌ، سيِّدٌ ومَسُودٌ، حاكمٌ ومحكومٌ، مستغِلٌ يستأثر بكل شيءٍ يعيش على الفتات. لا بُدَّ أن يكون هناك "غربٌ متميِّزٌ يُقابل سائر العالم" ذا الحضارات المتنوِّعة ولكن المختلفة عن الغرب والمباينة له. وبهذا المعنى يبدو كتاب هنتغتون وكأنَّه دعوةٌ إلى "تعبئة العدد الأكبر من جماهير الدول الأوربيَّة والأمريكيَّة [التي تمثِّل الغربَ في نظره وتنضوي تحت لواء حضارته المتميِّزة] وإثارة حماستهم في الانخراط في حروبٍ كولونياليَّةٍ جديدة، بنفس الشعارات والمبرِّرات التي استُخدمتْ في الحروب الصليبيَّة في العصور الوسطى، ولتكون بديلاً جديداً عن العدو القديم - إمبراطوريَّة الشرّ الشيوعيَّة - الذي انتهى مفعولهُ كملاطٍ أو غراءٍ يضمّ جماهير البسطاء المقهورين في بلدان الغرب، إلى موقفٍ موحَّدٍ يخدم أصحاب الاحتكارات"[1]. بل إنَّه في حقيقة الأمر دعوة إلى التشبُّث "بالخصومة بين البشر حتى يَفرغ أصحاب المصالح لشؤونهم، وإدارة العالم الممزق. ونظرتُه في "الصدام الحضاري" ليست أكثر من ثوبٍ قشيبٍ لفكرةٍ أو ممارسةٍ عتيقة جداً هي: فَرِّقْ تَسُدْ".

وواقع الحال أن كتاب صراع الحضارات بما ينطوي عليه من تكريسٍ لمناخ الصراع والمجابهة بين الأمم والشعوب، ولا سيَّما تلك التي يرى فيها خطراً ما على "الأنموذج الغربيّ" المزعوم، يثير تساؤلات وإشكالاتٍ لا نهاية لها، تشير جميعها إلى جوانب مختلفةٍ من الخلل الذي بات يعتور التفكير الغربيَّ في تدبّره لعالمنا المعاصر.

---

[1] - انظر د. صلاح قنصوه "مقدمة الكتاب: من أجل تأمل فاحص وحوار خصيب" في: صامويل هنتغتون: صدام الحضارات. إعادة صنع النظام العالمي. ص ٢٤-٢٥، ٢٨.

ولكنّ السؤال الأكبر الذي ينبغي لصاحب مفهوم 'صدام الحضارات' أن يواجهه هو: هل ثمة حضارة قوميّة أو أقليميّة أو قاريّة أو جهويّة صرف، نقيّة، صافية لا تداخلها شائبة من الحضارات الأخرى، ولننظرْ في ما 'يميّزها' ولا سيما في صفتها الغربيّة.

ولنأخذْ ما يدافع عنه صموئيل هنتغتون نفسُه وهو 'الحضارة الغربيّة'، التي يرى أنّ عليها أن تدافع عن نفسها. في مواجهة الحضارات الأخرى، وأنّ عليها أن تسودَ وتهيمنَ في عالم الألف الثالثة على سائر الحضارات الأخرى، ولننظرْ في ما 'يميّزها' ولا سيما في صفتها الغربيّة.

يشير هنتغتون إلى جملة من السمات الفارقة للغرب تميّزه عما عداه من الكيانات القارية، فيذكر ثماني منها هي ١-التراث الكلاسيكيّ من الإغريق والرومان؛ ٢- المسيحيّة الغربيّة الكاثوليكيّة والبروتستانتيّة؛ ٣-اللغات الأوربية؛ ٤- الفصل بين السلطتين الروحيّة والزمنيّة، أو بين الدين والدولة؛ ٥- حُكْم القانون؛ ٦- التعدديّة الاجتماعيّة والمجتمع المدنيّ؛ ٧- الهيئات التمثيليّة؛ ٨- النزعة الفرديّة. ويقول إنّه على الرغم من وجودها منفردةً في هذه الحضارة أو تلك، فإنّ 'اتحادها معاً في توليفة أو مركّب هو الذي أتاح للغرب تفردُه بها'[1].

والناظر في هذه السمات وفي الملاحظات العديدة التي أبداها مناقشوه عليها لا يَسَعه إلا أن يؤيّد ما ذهب عليه مُقَدّم ترجمة كتاب هنتغتون إلى العربيّة الدكتور صلاح قنصوه، من أنّ هذه السمات أو الملامح التي زَعَم هنتغتون أنّها ميّزتِ الغربَ حتى قبل عمليّة التحديث التي شهدها في فترة

---

[1] -المصدر السابق، ص١١- ١٢، ١٢.

النهوض الرأسمالي: "تنتسب جميعاً إلى مرحلة تاريخية هي عصر النهضة وما تلاه وهو الذي كان محصلةً لتفاعلات وتبادلات وصراعات دامية بين الإمبراطورية الإسلاميّة في الشرق عبر البحر المتوسط والدويلات العربيّة في الغرب على حدود فرنسا من جهة والإمبراطورية الرومانيّة المقدّسة، وما انفرط عنها من إمارات وممالك متنافرة من جهة أخرى، ولم يبدأ الشعور بما يسمّى "الغرب" إلا بعد فترة طويلة من ازدهار النظام الرأسماليّ، وما أدى إليه من استعمار الشرق.

وفضلاً إليه عمّا تقدّم فإن ما يسمّى بـ "الحضارة الغربيّة" مدينةٌ في ماضيها البعيد وعصورها المختلفة (القديم، والوسيط، وما قبل الحديث، والحديث) للحضارات الأخرى، ولا سيما الحضارات الشرقيّة بالكثير الكثير، وهو ما يَجْعل من "عبقريّتها" المزعومة الناجمة عن "قدراتها الذاتيّة" التي تفوّقتْ بها على الحضارات الأخرى خرافةً يَصْعب قبولُها في عصر العلم والحقائق والوقائع. وما يسمّى عادةً بالمكوّنات الأساسيّة للحضارة الغربيّة وهي:

-المكوّن الكلاسيّ، أو الموروث اليونانيّ والروماني؛

-والمكوّن الدينيّ، اليهودي، المسيحيّ؛

-والمكوّن التاريخيّ، والمتمثّل بتجربة الأمم والشعوب الأوربيّة الحياتيّة في أيام السلم والحرب؛

.. أقول إنّ هذه المكوّنات ليست في الحقيقية بمنأى عن تأثيرات الحضارات الأخرى. بل أنّ حضور الشرق فيها، ولا سيّما الشرق الأدنى قديماً، والشرق العربي لاحقاً، حضورٌ صارخٌ يَصْعب معه إن يكون التجاهلُ والإنكارُ والتكتّم سبباً واقعية لإخفائه.

وها هم الباحثون الغربيون أنفسُهم يُقرّون بدَيْن حضاراتهم لهذا الشرق.

وحسبُ المرء أن يشير في هذا المقام إلى كتابيّ فالتر بيركرت: الثورة المُشرقيّة: الأثرُ الشرق - ادنويّ في الثقافة اليونانيّة في العصر البدائيّ الأول[1]، ومارتن بنال: أثينا السوداء: الجذور الأفرواسيويّة للحضارة الكلاسيّة[2] اللذيّن صدرا في العقد الأخير من القرن العشرين.

فأما الأول منهما فيبيّن فيه المؤلّفُ بُطْلانَ ما يسمّى عادةً بالمعجزة اليونانيّة الناجمة عن العبقريّة الخاصة بها. لقد صُوِّرت الثقافةُ الرائعة لليونانيّين القدماء في الغالب وكأنّها معجزة أنبثقت عن عبقريّة خاصة بهم، وأنّها ليست مدينة عملياً بأيّ شيء لجيرانها. ولكن رأياً مشوّهاً لا يصمد في وجه محاجّة بيركرت الحاسمة التي تعيد الأمور الفريدَ في ظل تأثير الشرق الساميّ (نسبة إلى الساميّين)، وأنّها مدينةٌ بموقعها الذي تسنّمته لاحقاً في شرقيّ المتوسط لأولئك الكتّاب والحرفيّين والتجّار والعلماء الشرقيّين الذي قدّموا لها الكثير، وأنّ ما يسمّى بالمعجزة اليونانيّة قد نَجَمَ أساساً عن انفتاح الثقافة اليونانيّة على الثقافات المجاورة ولا سيما الثقافة الشرقيّة.

وأما الثاني منهما فيبيّن مارتن فيه جذورَ الحضارة الكلاسية، ويَرُدّها إلى الأصول الأفرو - آسيوية، ويعني بها على وجه التحدي: حضاراتِ بلاد النيل والشام والرافدين التي حُجبتْ، وبشكلٍ منظّمٍ، منذ القرن الثامن عشر بدواعٍ عرقيّةٍ عنصريّةٍ.

هذا عن العصر البدائي والقديم[3]. وأما العصور الوسطى فإنّ الدّيّنَ

1- Walter Burkert, the Orientalizing Revolution Near Eastern Influence on Greek Culture in The Early Arehaie Age Translaed by Margaret E. pinder and waltin Burkert Harvard University press Cambridge,. Ma.. ١٩٩٢

2- Martin Bernal:Black Athena The Afroasiatic Roots Of Classical Civilization Volume I The, Fabricatidon of: Ancient Greece. ١٧٨٥-١٩٨٥ vintage, Book, London, I: ١٩٩١.

3- انظر على سبيل المثال كتاب: Dar Tlas Damascus١٩٩١: in, Greek Mythology, Munzer Muhammad : Babylonan Dimensions

الأوربيّ فيها للحضارة العربيَّة الإسلاميَّة لا يكاد يماري فيه أحدٌ اليومَ. يكتب إ. ل. رانيلا في مؤلَّفه الذي تُرجم مؤخَّراً إلى العربيَّة تحت عنوان: الماضي المشترك: أصول الآداب الشعبيَّة الغربيَّة ما يلي: إنَّ الجانب الأكبر من المعارف الإغريقيَّة التي تضمَّنت العلمُ والفلسفةُ وَصَلنا عن طريق البيزنطيِّين من خلال الترجمة العربيَّة عن الإغريقيَّة. وقد نمَّى العربُ هذه المعارف، وانتقلتْ عنهم في العصور الوسطى إلى اللغة اللاتينية. لقد كانت إسبانيا وصقلية جِسْرين للمشروعات الضخمة للترجمة في القرن الثاني عشر التي انتقلتْ عبرها المعارفُ العلميَّةُ من العرب إلى غرب أوربا، التي كانت آنذاك في مرحلةٍ بدائيَّة[1].

وأما عصر النهضة الأوربيّ فالكل يُجْمع على أنه لولا الإسهام العربيّ - الإسلاميّ فيه لما كان وُجد أصلاً. وذلك لأنه نهض على أساسٍ من الحضارة العربيَّة - الإسلاميَّة التي أسهمتْ فيها جميعُ الأمم والشعوب التي انضوت تحت لوائها، واتخذت من العربيَّة لساناً لها تفكّر به وتعبّر وتتواصل فيما بينها وتدوّن فيه معارفَها وعلومَها[2].

وعندما ننتقل إلى العصر الحديث الذي شهد تسنُّمَ الغرب ذروةَ سنام التقدُّم الصناعيّ والتقنيّ، وتمتُّعَه بمستويات من الرخاء والرفاهية - على حساب النهب الاستعماري في القرنَيْن الماضيَيْن -، فقد نتوقع اكتفاءه بنفسه، وتوقُّفَه عن الاستعانة بالغير كما كان شأنه حتى مطلع عصر النهضة. ولكنّ الحقيقة والواقع يشيران إلى الدَّيْن المعرفيّ الذي يُخفيه بعضُ المفكرين

---

[1] - ال رانيلا: الماضي المشترك بين العرب والغرب: أصول الآداب الشعبيَّة الغربيَّة، ترجمة: د. نبيلة إبراهيم، مراجعة د. فاطمة موسى، عالم المعرفة (الكويت)، ٢٤٤، كانون الثاني (يناير) ١٩٩٩، ص ١١.

[2] - The Arab Influence In Mediveal Europe, Edited by D. A Agius and Richard Hitchcock. ithasa كذلك: ماريا روزا مونيكا: الدور العربي في التاريخ الأدبي للقرون الوسطى (تراث منسي) ترجمة الدكتور صالح بن معيض الغامدي، جامعة الملك سعود، الرياض، ١٩٩٩.

الغربيّين عن أنظار قرّائهم متستّرين وراء تفوّقهم 'بوصفهم غربيّين' على سائر العالم. ومرةً ثانيةً يُمكن المرءَ أن يكتفي بإشارات بَرْقية إلى مؤلّفين من مثل رينهات ماي[1] الألمانيّ الذي يؤلف في مصادر هيدغر المخبوءة. الأسيوية الشرقية في أعماله (عام ١٩٨٩) ح وهارولد كاورد[2] الأمريكيّ الذي يكتب عن: جال ديريدا والفلسفة الهنديّة ويكْشف فيه عن الدَّيْن الذي أخفاه ديريدا (ولا سيّما فيما يُتصل بآرائه في اللغة) عن قرّائه ومريديه؛ وغراهام باركس[3] الذي يحرّر كتاباً يَجْمع فيه جملة أبحاث تناقش علاقةَ نيتشه بالفكر الآسيويّ. ويمكن كذلك أن يُذكر مؤلّفات أخرى من مثل كتاب جاك غودي[4] ذي العنوان الموحي: الشرق في الغرب الذي يَكْشف فيه زيفَ دعوى فرادة الغرب وتفوقُه حتى في الأمور الذي يرى فيها سرّ تقدمه، عندما يبيّن أنّه مدين فيها للشرق؛ وكتاب فريد دالمير[5]: ما وراء الاستشراق: مقالات في الحوار عبر الثقافات؛ وكتاب ج.ج. كلارك[6]: تنوير شرقي: الحوار ما بين الفكرين الآسيويّ والغربي؛ وغيرها من الكتب التي تؤكّد أنّ ليس ثمة منْ ثقافة صرفة، وأنّ جميع الثقافات مولّدة، وأنّ 'عبقرية الغرب' المزعومة مجرد سراب.

ذلك أنّ الثقافات الإنسانيّة (سواء أكانت ثقافات قوميّة، أم قاريّة، أم جهويّة

---

[1]-Reinhard May: Heidegger, Hidden sources. East Asian Influences on his Work Translated wih a complementary es Say, by Graham parkes Routledge London١٩٩٦

[2]- Harold Coward: Derrida and Indian Philosophy, State University Of New York Albany. ١٩٩٠.

[3]- Graham Parkes(ed): nietzsche AND Asian THOUGHT The University Chicago press, Chicago and London.١٩٩١.

[4]- Jack. Goody The East in the West, Cambridge University Press, Cambrdge١٩٩٦ .

[5]- Fred Dallmayr:Beyond Orientaism: Essays On Cross- Cultural Enconter,StateUniversity Of New.Press New York Prss New York, Albany, ١٩٩٦.

[6]- j.j. Cark; Oriental Enlightenment: The Encounter Between Asian and Western Thought. Routledge London ١٩٩٧.

أم حديثة)، وسهما أغرقتْ في تفرُّدها وأصالتها، هي ثقافات مولّدة، بالمعنى العربيّ للكلمة، كما استعملها عربُ العصر العباسيّ، وهي حصيلة تلاقح وتفاعل مع 'الآخر' أكثر مما هي ناجمةٌ عن عبقريّة خالصة صافية لم يداخلها عنصرٌ خارجيٌّ أجنبيٌّ عنها. ومعنى هذا أنّ أحداً لا يستطيع أن يزعم اليومَ أنّ ثقافةً ما، مهما كانت منزلتُها في نظر أصحابها، أو في نظر الآخرين، تستطيع أن تدّعي لنفسها مكانةً متميّزةً تستأثر بها دون سائر الثقافات، أو أن تَنْظر إلى نفسها نظرة السيّد السامي وتَنْظر إلى غيرها نظرةَ العبد. ومعنى هذا أيضاً أنّ الثقافة الإنسانيّة جهدٌ إنسانيٌّ مشترك تعاقبتْ عليه الأممُ والشعوبُ، كلٌّ في مرحلة من مراحل نموّها وتطوّرها، وأنّها لذلك بُحيْرةٌ مشتركة يَغْرف منها مَنْ يشاء، ويستقي منها مَنْ يريد، بوصفها الموروث الإنسانيّ المشترك.

فإذا كان تميُّزُ 'الحضارة الغربيّة' مجردَ وهم، وإذا كانت 'الثقافةُ الغربيّةُ' مثلها مثل غيرها من الثقافات الإنسانيّة. ثقافةٌ مولّدةٌ تَدين للآخر المتعدد زماناً ومكاناً وعرقاً وجنساً ودياناً، فإنّ من الأَوْلى ألاّ يدعو مَنْ يغار عليها وعلى قيمها الخاصة بها' إلى 'صدام الحضارات' بل ربما كان عليه أن يفكّر في شيء آخر مختلف تماماً عن آلية الصدام مُحَرّكاً للمستقبل.

لقد كانت الحضارةُ الإنسانيّةُ عبر العصور، باختلاف الأمكنة والبقاع، وعلى تنوّع صنّاعها، نتاجَ شراكة إنسانيّة غير مباشرة، أسهمتْ كلُّ أمة أو شعب فيها بمقدار، إلى أن بلغتْ ما بلغتْه في عصرنا الحاضر. ولذا فإنّ من الطبيعي أن نعزّزَ هذه الشراكة بأن نجعلها 'شراكةً مباشرةً' واضحةً نخطّط لها ونُعِدُّ وننفذ كما نفعل في أنواع الشراكات الأخرى التي نروّج لها اليومَ، من مثل 'الشراكة الأوربيّة المتوسطيّة' وغيرها. وبالتالي فإنّ علينا أن ندعو إلى شراكة معرفيّة بين منتجي المعرفة والعلم في الشرق والغرب معاً، في الجنوب والشمال معاً، وفي كل أرجاء العالم؛ وأن ندعو بالمقدار نفسه إلى توظيف حصيلة هذه الشراكة وما تنتجه من معرفة وعلم في خدمة الإنسان، بصرف النظر عن

جنسه ولونه ولغته ودينه وسنه؛ وأن نحارب مبدأ احتكار المعرفة تحت أيّ مظلة يحتمي[1].

وبعبارة مختصرة، لنُصدّع بدعوة جديدة:

- "لا، لصدام الحضارات" و "نعم، للشراكة المعرفيّة".

1- Abdul Nabi Isstaif: Why East And West Need Each Other in For a Change (London) Vol,١٢. No.٦, Decemiber Januaryٲ٠٠٠ Guest Column)

تفاعل الحضارات

من الحوار إلى الصراع

أ.د. عبد اللطيف عمران[1]

تمهيد:

ليس غريباً أن يرى بعض الباحثين أن القرن الحادي والعشرين بدأ منذ عام ١٩٨٩ إثر أحداث رومانيا وتفكك الاتحاد السوفييتي وانهيار جدار برلين، وفي خضم هذه الأحداث نهض سعي حثيث في الغرب ولا سيما في استراتيجية الولايات المتحدة الأمريكية لتقييم ما مضى والتبصر في أسبابه ونتائجه، استعداداً لما سيهيئ له في المستقبل، وفي الوقت الذي بدا فيه الغرب قادراً على ضبط التحديات العسكرية والاقتصادية والسياسية فإنه أجهد نفسه في البحث عن تحديات ذات طابع جديد، وهي التحدي الحضاري أو الثقافي.

ومن الخطأ أن نظن أن الغرب وبقيادة الولايات المتحدة الأمريكية ركز خطابه في مسائل صراع الحضارات، الإرهاب، الدفاع عن حقوق الإنسان وقيم

---

[1] باحث وأستاذ جامعي، ولد عام ١٩٥٩، تابع تحصيله المدرسي والجامعي والأكاديمي في سورية، فنال شهادة الدكتوراه في الآداب عام ١٩٩٠، وبعد عام عين مدرساً في جامعة دمشق، وفي عام ٢٠٠٠ صار أستاذ الأدب العباسي في قسم اللغة العربية.

شارك في عدد من المؤتمرات والندوات المحلية والعربية والدولية، وفي مناقشة أبحاث أكاديمية وورقات عمل في دمشق والقاهرة وطهران وبكين وموسكو ولندن.

نشر عدداً من الأبحاث الأدبية والنقدية والاستراتيجية في دوريات محلية وعربية من مؤلفاته: الدلالات الاجتماعية والخصائص الفنية في شعر أبي فراس الحمداني، شعر الشريف الرضي ومنطلقاته الفكرية، الأدب العربي في بلاط عضد الدولة البويهي، إضافة إلى مقررات ومراجع جامعية وبحوث سياسية واستراتيجية.

أشرف وشارك في تحرير عدد من الدوريات والمجلات المحكمة. والمقال المرفق ورقة عمل قدمت إلى مؤتمر في جامعة طهران عام ٢٠٠٢م.

الحضارة الغربية، مكافحة الشر والدفاع عن الخير جراء أحداث ١١ أيلول ٢٠٠١، على الرغم من أن بعضهم يرى أن هذه الأحداث فاتحة عصر جديد، فقد نهضت هذه الطروحات وبصيغ متعددة منذ نهاية الحرب الباردة، إذ تصاعدت جهود البحث عن عدو، وصار إيجاد هذا العدو مسألة ملحة، ولا سيما بعد التقلب على الشيوعية، إذ استفاق الغرب على الإسلام مجدداً، وكأنه لم يعرفه من قبل، وتجاهل المثاقفة والحوار والمصالح المشتركة وركز اهتمامه في النهاية على ما يبتغيه الصهاينة، ويا للأسف!

ومنذ عقد ونيف من السنين والبشرية تتأرجحّ بين فعاليات الصدام والحوار، وقد أتبعها الخلاف في هذه المسائل ولا سيما حين اتجه الفكر الفلسفي عند بعضهم اتجاهاً هداماً لم يعرف تاريخ الفكر الإنساني شروره من قبل، وتمكن بعض المفكرين الاستراتيجيين من دس سموم أفكاره وعدوى وباء عقله في مساحة واسعة بين بني البشر وتبنت هذا وتعهدته بالرعاية قوة عظمة أو قطبية أحادية.

ومن الجدير بالذكر أن مشروع الحوار أتى متأخراً، ورداً على مقولة الصدام التي بدأت تتضح معالمها في نظريتين هدامتين لمفكرين أمريكيين عملا فيها في خدمة الإدارة الأمريكية، الأولى نظرية نهاية تاريخ لفرنسيس فوكوياما والثانية نظرية (صدام الحضارات) لصموئيل هنتفتون، ولا يمكن الانتقال البنّاء والمجدي من صراع الحضارات، إلى الحوار دون معرفة الأخطاء والأخطار الماثلة في هاتين النظريتين، فمن أسس الحوار الهادف والجاد معرفة الآخر بدقة وموضوعية.

وربما كان انطلاق فكرة حوار الحضارات من هذا الجانب رداً مشرفاً وواعياً وخيّراً في وقت واحد، ومن المعروف أن الرئيس محمد خاتمي هو الذي أصّل فكرة الحوار ثقافياً ومؤسساتياً منذ عام ١٩٩٨، وبعدها اتخذت الأمم

المتحدة من عام ٢٠٠١ عاماً لحوار الحضارات وأقامت الجامعة العربية في العام نفسه فعالية لهذه الغاية، وفي شباط عام ٢٠٠٢ أقيم في تركيا ما يتصل بهذا على أساس من اللقاء والحوار بين الدول الإسلامية ودول الاتحاد الأوربي.

١-أما النظرية الأولى: فهي أيديولوجيا نهاية تاريخ، وقد ترافق طرحها مع ولاية الرئيس بوش الأب، ومع إعلانه عن ولادة ما يسمى يومها بالنظام العالمي الجديد، وجاءت في معمعة أحداث أوربا الشرقية وحرب الخليج الثانية، طرحها فرنسيس فوكوياما الذي شغل نائباً لمدير التخطيط السياسي في وزارة الخارجية الأمريكية، وذلك عام ١٩٨٩ ضمن محاضرة في جامعة شيكاغو، وافترض فيها أن البشرية وصلت إلى نقطة نهاية التطور الأيديولوجي بعد نهاية الحرب الباردة، فانتهى التاريخ وبدأ تاريخ جديد ينطلق من خلال تعميم الديمقراطية الليبرالية الغربية، حيث انتصار الغرب دون أي بديل، مؤكداً هذا في سياق تأكيد السيطرة الأمريكية، ومسلما بأن الولايات المتحدة الأمريكية قائد للإنسانية ومنقذ لها، وعلى الشعوب أن تسلم بتفوق الغرب من منظور أمريكي، وفي ضوء هذا لا يتحقق السلام إلا بإخضاع (البرابرة)، فأوربا في صياغتها الأمريكية هي المرجع التاريخي، ونهاية التاريخ تساوي إخضاع اللاأمريكي، وهنا لا بد من مهزوم، ولا بد لهذا المهزوم كي يندمج في التاريخ العالمي من نقل مجتمعه من زمن تاريخي زائف إلى زمن تاريخي حقيقي، تصنعه العولمة والشركات متعددة الجنسيات، والأفكار فوق القومية، والاتجاه نحو الانفتاح فكراً واقتصاداً، فتفدو الثقافة العالمية هنا إلا ثقافة العالمية متحققة على حساب الثقافة الوطنية، وليست الثقافة العالمية هنا إلا ثقافة المنتصر الذي لن يعبأ بمفهوم هوية الآخر وبخصوصيته. إنه استبداد وتبعية وقهر، وعلى المغلوب ألا يفوت على نفسه فرصة التسليم بقبول الأمر الواقع طواعية ودون تساؤل أو حوار.

ولا تناقض بين هذه النظرية كما نلاحظ ومفهوم التقدم في الفكر البرجوازي حيث تتحدد النظم الاجتماعية بالتقنية، ويختصر التاريخ وينتهي لأنه صورته في المستقبل، ونجد هذا سابقاً عند هيغل وهو أبرز من قدم صياغة نظرية لمعنى نهاية التاريخ حيث التاريخ الأوربي هو البداية الحقيقية للتاريخ المنجز والمنتهي معاً، وهو التاريخ الجوهري والأساسي، وهناك مقابله جملة تواريخ زائفة لا أصل لها، ويبدو أن هذه الفكرة غير غائبة عن التاريخ الأوربي الحديث والمقترنة بأيديولوجية الانتصار المستمر القائمة في الخطاب الأمريكي والصهيوني. لذلك جاء القول في نهاية التاريخ في زمن انحسار الشيوعية، وضرب حركات التحرر، والصعود الكبير لنتائج الفاشية في نهاية الثمانينيات زمن الريغانية والتاتشرية والخصخصة والعولمة والنظام العالمي الجديد، معتمداً على إيديولوجية الانتصار واستسلام الخاسر لخسارته، الانتصار القائم على التقنية المتطورة، والاجتياح، فصار هناك أمم تاريخية (الغرب) وشعوب لا تاريخية فاتها قطار التاريخ، وهي مهزومة.

إن نهاية التاريخ سيكون عالماً خالياً من الإيديولوجية لأنه ينقسم إلى كتلتين:

الأولى: البلدان الغربية التي وصلت إلى نهاية التاريخ وستنشغل بالاقتصاد أكثر من السياسة.

الثانية: بلدان العالم الثالث الغارقة في مستنقع التاريخ والتي ستكون ساحة لنزاعات المستقبل.

وفي الوقت الذي تعرض فيه طرح فوكوياما لانتقادات كثيفة وقاسية حيث القطبية الأحادية والمركزية الأمريكية تحد كبير أمام هوية الشعوب وخصوصيتها وماضيها وحاضرها ومستقبلها، وحيث الطرح مقدمة لاستبداد جديد وطموح خطير وغير مشروع يتمثل في مفهوم إمبريالي صهيوني متجدد، في الوقت نفسه شجعت أحداث أوربا الشرقية، وحرب الخليج الثانية فوكوياما

فأقدم بعد سنتين من نشر محاضرته على إصدار كتابه (نهاية التاريخ والإنسان الأخير)، هذه الأمور شكلت الظروف المناسبة للطرح الثاني

٢- **النظرية الثانية:** وهي (صدام الحضارات) لصموئيل هنتغون أستاذ العلوم السياسية في جامعة هارفارد ومدير معهد الدراسات الاستراتيجية فيها، عمل في إدارة الرئيس كارتر مسؤولاً عن التخطيط في مجلس الأمن القومي، ولهذا حمل كتابه في هذه النظرية وعلى الصفحة الأولى إشادة هنري كيسنجر وزبينغينو بروزنينسكي، وبدأ مشروعه هذا بعد أربع سنوات من ظهور طرح فوكوياما، فنشر في صيف عام ١٩٩٣ في مجلة (فورن أفيرز) مقالة حول تصادم الحضارات بعنوان: (حول الإطار الأمني المتغير والمصالح الأمريكية) وضعت المسلمين في قفص الاتهام، حين رأى أن القضاء على الشيوعية ليس نهاية المشاكل العالمية، فحضارات العالم الثالث ستشكل الخطر الجديد على الحضارة الغربية، ومصدر هذا الخطر آسيا وأفريقيا وأمريكا اللاتينية، ويتمثل خاصة في الإسلام والمسلمين واعتبر طرحه نجاحاً وقرر تحويل المقالة إلى كتاب نشر في نيويورك في ٣٦٧ صفحة تتألف من خمسة أبواب:

الباب الأول: عالم الحضارات، بحث فيه عن مرحلة جديدة في السياسة العالمية، واهتم بقضايا الهوية الثقافية والتعددية الحضارية.

الباب الثاني: انتقال الحضارات، ورأى فيه الغرب الآن مقترباً من الانحطاط والاضمحلال، بينما الشرق أو الإسلام يقترب من التوكيد والانبعاث والتحدي والانفجار الديمغرافي.

الباب الثالث: انبثاق الحضارات، حيث يشير إلى عالم جديد في طور التكوين وفق سياسة الهوية، ومثاله شعوب الاتحاد السوفيتي السابق حيث التشكل الثقافي والسياسي الجديد.

الباب الرابع: وفيه يرى أن ادعاءات الغرب بالعالمية تضعه في حالة خلاف

مع الحضارات الأخرى وخاصة الحضارتين الإسلامية والصينية ويرى أيضاً في الهجرة السكانية محركاً للتاريخ ويعترف بأن مواقف الغرب تجاهه اتسمت بالتناقض.

الباب الخامس: يرى فيه أن بقاء الغرب يعتمد على قدرة الولايات المتحدة على تأكيد الهوية الغربية، وعلى قبول الغربيين بأن حضارتهم متميزة ولكن ليست عالمية.

وفي الإطار العام يرى أن السياسة الدولية تتحرك خارج السياسة الغربية فشعوب الحضارات غير الغربية وحكوماتها لم تعد موضوعاً للتاريخ بل صارت نداً للغرب بوصفها محركاً للتاريخ وصانعة له، والعالم الآن لا يسير نحو حضارة كونية متناغمة، كما أن الثقافة الغربية لا تخترق سائر أرجاء العالم إلا على مستوى السطح أما في العمق فهي لا تحرك سوى القليل من الأفكار والآراء على المستوى الدولي، والحضارة الغربية التي يقصدها تشمل عدداً من الدول القومية وتظهر في وجهين: الأولى: أوربي غربي، والثاني: أمريكي شمالي، أما الحضارة اليابانية فتشمل دولة قومية واحدة،في حين تتفرع الحضارات الإسلامية إلى ثلاثة فروع: (عربي . تركي . ماليزي) والحضارات الكبرى في العالم هي سبع أو ثمان: الغربية . اليابانية . الكونفوشيوسية . الإسلامية . الأرثوذكسية . الأمريكية اللاتينية وربما الأفريقية.

ويقدم أمثلة على رأيه منها عودة الانقسام الثقافي بين المسيحية الغربية من جهة، والمسيحية الأرثوذكسية والإسلام من جهة ثانية، ومن أدلته أيضاً تواصل الصدام بين المسلمين والهندوس ومنها ازدياد الخلافات بين الولايات المتحدة والصين، وهذا نابع من خلاف القائم بين هذه الحضارات، ومن أن النزوع نحو تغريب الكون وعولمته لم يتحقق إلا على مستوى السطح بسبب ردود فعل الحضارات غير الغربية على سلطة الغرب وقيمه، والمشكلة هنا هي العقيدتان

الإسلامية،والكونفوشوسية حيث السعي إلى التحديث الاقتصادي والعسكري لمواجهة الهيمنة الغربية، ولهذا يقترح على الغرب خطة تحرك ومواجهة تعتمد على:

١-تحقيق أكبر قدر من التعاون داخل الحضارة الغربية.

٢-الحد من توسيع القدرة العسكرية للدول الإسلامية والكونفوشيوسية.

٣-العمل على احتواء الحضارات غير الغربية التي تكون قوتها قد باتت قريبة من قوة الغرب.

٤- المحافظة على تفوق الغرب العسكري في القارة الآسيوية.

٥- دعم المتعاطفين مع المصالح والقيم الغربية في صفوف منتسبي الحضارات غير الغربية.

وفي لقاء أجرته مجلة (المجلة) مع هنتغتون بيّن مواقفه غير البريئة بفجاجة والقائمة على اتجاه الاستراتيجية الأمريكية نحو تصنيع عدو بشكل مستمر، وقد تمثل العدو الجديد هنا بالإسلام بعد أن تم التخلص من الخطر الشيوعي، وحين تم تذكير الرجل بأن هناك في الإسلام من هو متطرف، أو معتدل، أو ليبرالي أجاب بان الإسلام بكل طوائفه وأقسامه وفي مختلف الدول عبارة عن حضارة كاملة تشمل الدين، وتقاليده هي الأفضل وينظر إلى الغرب على أنه مادي وانحلالي وعنيف وعنهجي، ولهذا فإن الإسلام ونظام الدولة الغربية لن يلتقيا. وفي هذا اللقاء يدافع هنتغتون عن إنجازات الاستعمار الغربي في إفريقيا ويرى مسوغاً لدفع التعويضات الألمانية إلى اليهود لأن اليهود كانوا متطورين قبل النازية على عكس الشعوب التي خضعت للاستعمار الغربي الحديث.

كما يرى الرجل في إسرائيل نموذجاً واقعياً للحضارة اليهودية ويقلل من خطرها بسبب قلة العدد. وكما أثمر طرح فوكوياما أيام بوش الأب فإن طرح

- هنتنغتون استغل أيام بوش الابن وفي الفترتين قادت الولايات المتحدة تحالفاً دولياً قيادة تعسفية.

٣- **وبعد عرض هاتين النظريتين:** نتأكد أن ما تقوم به الإدارة الأمريكية اليوم ليس ناتجاً عن أحداث /١١ أيلول/ تلك الأحداث التي بدأت على أنها السبب المباشر لادعاء حملة مكافحة ما يسمى بالإرهاب ونحن لن نتعرض إلى طرح فوكوياما بالحوار والرد ثانية فقد مضى عليه أكثر من عقد من الزمن وكان مقترناً يومها بطرح صيغة النظام العالمي الجديد، وسننصرف إلى مناقشة طرح هنتنغتون الذي يمثل الآن في كثير من جوانبه ما تقود السياسة الأمريكية الغرب إلى افتعاله من عداء لحرية الشعوب وحقها في تقرير مصيرها، ومحاولة حصرها في زاوية إرهابية هي (من ليس معنا فهو ضدنا) وهنا يظهر هنتنغتون في طرحه السابق وكأنه رجل إدارة وقرار،ولعل هذا ما دفع أحد الباحثين إلى القول إن هنتنغتون وبن لادن يمثلان وجهين لعملة واحدة فكلاهما يمثل الوجه الإحيائي للثقافة أي الاستناد إلى الموروث باعتبار الآخر بربرياً أو كافراً وأخطارهما تقود لا محال إلى تأجيج النزاعات أو المصالح القومية والعرقية والدينية تحت شعار الدفاع عن الدين أو الهوية أو المصالح الوطنية أو تحت شعار الدفاع عن القيم الديمقراطية والتحضر وحقوق الإنسان (د. سليمان العسكري مجلة العربي العدد ٥١٨ ص ١٣).

وسننطلق من مناقشة هنتنغتون من زاوية مقابلة وهي حوار الحضارات لنذكر عدداً من الردود من منطلق حواري، لا صدامي، فبرغم كثرة الردود البناءة على طرحه قبل عام ١٩٩٦ إلا أن الرجل أصر على تأصيل فكرة الصدام في كتاب آخر نشره عام ١٩٩٧ عنوانه (تآكل المصالح القومية الأمريكية) ولا يمكن تحميل الرجل وزر هذا الاتجاه بمفرده فمن المعروف أن هناك تياراً قوياً في الفكر الاستراتيجي الأمريكي ينحو هذا المنحى وقد ظهر

في كتابات (نيكسون) وكسنجر، وبريجنسكي.

لقد قام مفكرون وسياسيون بالرد على طرح الصدام وقدموا أفكاراً قيمة من منطلق الحوار وبعض هذا نلمسه في إبراز الردود الحوارية التالية:

- وجه الدكتور فؤاد عجمي أستاذ دراسات الشرق الوسط نقداً إلى طرح هنتنغتون أشار فيه إلى صعوبة قيام التغريب لإحداث تغيرات نوعية في البلدان المنتمية إلى حضارات غير غربية مؤكداً أن الأعراف والقيم والتقاليد تصبح أعلى صوتاً عندما تتحطم. فالأصولية الإسلامية ليست عدوانية كما يرى هنتنغتون وإنما هي دليل الارتباك والرعب تجاه عبور الحدود نحو الغرب وقد أيد رأي الدكتور عجمي بعض الأمريكيين فأشار أحد الصحفيين يومها إلى قيمة هذا الرد وإلى إمكانية الاتجاه نحو التكامل الدولي وبروز حالة كونية متناغمة.

- كما يمكن الاهتمام برد مندوب سنغافورة يومها لدى الأمم المتحدة كيشوري محبوباني الذي سلم بالزعامة الغربية والأمريكية خاصة، لكنه رأى أنه من السخرية أن يخشى الغرب اليوم الإسلام معتبراً أن الغرب يتعمد إثارة المسلمين يومياً من خلال تذكيره بضعفهم واتباعه سياسة الكيل بمكيالين، وقدم أمثلة تدحض رأي هنتنغتون في الاتفاق مثلاً بين الولايات المتحدة والسعودية أو بين الصين وإيران.

- وفي الوقت نفسه وبعد عام ونيف على طرح هنتنغتون نشر السفير الإسباني في واشنطن رده على هذا الطرح في صحيفة السياسة الخارجية الإسبانية ويرى أخيدو أن البعد الثقافي على أهميته لا يحدد ولا يوجه نزاعات المستقبل وإنما المصالح الاقتصادية والسياسية، الحضارات لا تتحكم بالدول،

بل الدول هي التي تتحكم بالحضارات، وهكذا فعالم اليوم محكوم بإرادات دول ومصالح اقتصادية وليس بإرادات حضارات ونزاعات ثقافية، وبالتالي يكون الرد على أطروحة الصدام بالتفاوض والحوار وتقليص الفوارق الهائلة في التنمية والتصنيع في بلدان المجتمع الدولي.

- وفي العام نفسه ومن منطلق الرد على مقولة الصدام في الحوار قدم الديبلوماسي السويدي كارلسون وفي الصحيفة نفسها نقداً إنسانياً لطرح هنتغتون يشير فيه إلى أن صوت الحق والحرية والعدالة لا يموت في المجتمعات الغربية ولا في غيرها،وإلى أن الغرب أو الحضارة الغربية ليسا مفهومين متجانسين دون تباين كما رأى هنتغتون، والتعميم لغة الحمقى، فبيّن أن الأوربيين الذين يقطنون أميركا الشمالية وأميركا الجنوبية من أصل واحد وأن الحضارة الكونفوشيوسية غير موحدة مستشهداً بالخلاف الصيني الفيتنامي، كما أن الكنيسة الكاثوليكية بدأت تنقسم قومياً، إضافة إلى أن الثقافة الإسلامية ليست بعيدة عن الغرب فقد أدى الوجود الإسلامي في أوربا، إلى تكامل حضارات وأديان، والآن لا يمكن تصور اتحاد اوربي بدون الاهتمام بعدد المسلمين المتزايد في أوربا، ومن هنا دعا كارلسون إلى ضرورة إقامة العلاقات الدولية على أساس الاحترام المتبادل والعدل والتكافؤ، دون أن تتحكم بهذا قوة واحدة مسيطرة، وإلى إلغاء القطبية الأحادية وإلى إجبار الولايات المتحدة على التخلي عن سياستها التقليدية القائمة على اختلاق صورة العدو، فحل المشكلات الكبيرة التي يعاني منها المجتمع الدولي يتم على أساس من الحوار والتعاون والسلام والعدل.

- وتأكيداً على قيمة الحوار ورهاناً على جدواه بل ضرورته مع الفعاليات الثقافية والاجتماعية والثقافية في الغرب نفسه نذكر تصدي غربيين آخرين لصراع هنتغتون ودحضه عبر المواجهة الحوارية حتى في الولايات المتحدة

نفسها، فقد أشارت صحيفة الواشنطن بوست بعيد هذا الطرح إلى أن هنتغتون متشائم وبينت كيف أن الثقافة الغربية منتشرة في كل مكان من العالم وأن الناس يرحبون بها ويقبلون عليها ويتعايشون معها بتقدير وإعجاب وطواعية ولا ينظرون إلى الموضوع على أنه صدام أو هزيمة أو انتصار، وفي الوقت نفسه عبرت أيضاً مجلة (نيوزويك) الأمريكية عن أن الرجل ركز على ما يفرق الحضارات لا على ما يجمعها.

٤- **وبالنتيجة يمكن القول:** أن ما تشهده العلاقات الدولية الآن من اضطراب وقلق وتفرد واستبداد لا يمثل وجهاً من أوجه الحضارة الإنسانية عبر تاريخها المديد المشرق، وإنما هو نموذج للنزوع نحو الشر والظلم والطغيان، فسياسة الكيل بمكيالين والمعايير المزدوجة، والقطبية الأحادية وإرهاب شعوب الأرض بالسيطرة على عسكرة الفضاء، واقتصاد العالم، وعلى المنظمة الدولية نفسها ليس سلوكاً حضارياً، مثلما هو بعيد عن إنسانية الحوار الآدمي، وهو همجية تاريخية طالما نبذتها إرادة الشعوب وتوجهها نحو الحق والخير والجمال والحوار.

إن التقابل بين الإسلام والغرب ضعيف وخاطئ يدحضه الحوار الإنساني عبر تاريخ مديد زاه، ومن منّا لا يعرف أن الرسول العربي محمد (ص) قرب إليه بل فضل سليمان الفارسي وبلالاً الحبشي وصهيباً الرومي، ومن ينسى أقوله مثل (لا فضل لعربي على أعجمي إلا بالتقوى) (وإنما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق).

فالإسلام حضارة عاش فيها واسهم في بنيانها النصاري واليهود الصابئة، والعرب والعجم والروم والهنود والصينيون قديماً، والأفارقة والغربيون والأمريكيون حديثاً، ولا يزال الإسلام أصيلاً وموجودة في شرق الأرض

ومغربها ولم يكن هناك تناقض تاريخي حضاري إذ تواصل التفاعل الحضاري عبر التاريخ بين الشرق والغرب، وتفخر الحضارة العربية الإسلامية بقيامها بدور الوسيط الفاعل والحيوي بالاتصال بين الحضارات وتناقلها، وفي الإطار العام فإن ما يجري الآن من ترسيخ متعدد الجوانب لصراع الحضارات يتناقض مع القوانين العامة لتطور المجتمعات الإنسانية لأن ما يناسب قوانين التطور هذه هو الحوار والتفاعل الخلاق وهذا ثابت تاريخياً.

وما يؤسف له أن لا حوار اليوم أمام منطق القوة العظمى الطامحة إلى أن تتحول إلى فوق عظمى. فقد كانت قيادتها للتحالف الدولي أيام حرب الخليج الثانية قيادة قسرية سرعان ما انتقلت منها إلى تفويض حلف الأطلسي القيام بدور المنظمة الدولية، وإلى تفويض نفسها بأن تحل محل الاثنين فتضرب متى وأين ومن وكيف تشاء.

وكذلك الآن فإن الولايات المتحدة تقود التحالف الدولي ضد الإرهاب قيادة إرهابية بكل ما في الكلمة من دلالة إذ لا سبيل إلى الحوار، فبوش يعلن أن من ليس معنا فلا محالة هو ضدنا، ومعايير استحقاق الشعوب والأنظمة للضرب والتسلط والظلم هي معايير فردية أميركية، وليس بخاف على أحد أن معايير أمريكا وخياراتها تتعب شعوب الأرض وحكامها باستثناء النزوع العنصري الصهيوني، فقد أرهقت هذه الخيارات المسلمين وغيرهم وحتى حلفاء أمريكا نفسها.

٥- فما الحل وهل هذا يدعو إلى اليأس ؟

لا شك في أن ما ورد في نظريتي فوكوياما وهنتغتون مقلق ومؤسف إذ يعزز الاختلاف القائم على المصادرة والاستلاب والضغط، ويزرع بذور العدوان والظلم والهيمنة، شأنه شأن ما تؤدي إليه سياسة التفرد والكيل بمكيالين

والتدخل في شؤون الدول والشعوب بحجة مكافحة الإرهاب، واليوم فإن أغلبية الشعوب والقادة السياسيين غير متأكدين من وجود، أو لا وجود جدول أعمال خفي ذي طابع اقتصادي أو عسكري أو أمني... خلف الإعلان عن مكافحة الإرهاب. لكن هذا جميعه لا يدعو إلى اليأس وقد عرضنا فيما سبق بعض الردود على النظريتين من منطلق الحوار واحترام الاختلاف القائم على الحرية والإيمان بحق الآخرين في التعبير عن آرائهم بما لا يصادر حق الشعوب في تقرير مصيرها.

وإذا كنا عرضنا فيما سبق بشيء من التفصيل لطروحات الصراع فإن الهدف من هذا هو تعريف آفاق التعبير في هكذا نسق، إذا يتضح العقل الهجين والتفكير الذرائعي الذي لا يمكن أن يؤسس لبناء حضارة عالمية، ولا يؤمن بخصائص إنسانية مشتركة عند الشعوب، ولا يمكن في الوقت نفسه الاطلاع على هذا النسق من الطروحات بغية الفائدة، على غرار ما قدمه الفكر الغربي السابق مع مؤلفات روسو وهيجل وماركس وأمثالهم، على الرغم من معرفتنا أن فوكوياما عاد وقدّم ما يمثّل إضافة مهمة لفكره، وذلك حين أصدر كتابه (الثقة: الفضائل الاجتماعية وتحقيق الازدهار) وما من شك في أن الاطلاع على طروحات الصدام تدفع مفكري شعوب الأرض وقادتها إلى التصدي والاستعداد للمواجهة. إنه فكر صامي ما يلبث أن يستفيق من جديد على هويته. ومثال هذا ما نجده في رد كوريا الشمالية على اتهام بوش لها بمحور الشر إذ دفع هذا الاتهام كوريا الديمقراطية من جديد للتفكير بأسلحة الدمار الشامل.

إن الحلول للخروج من مأزق الصراع والصدام تنطلق من الإيمان بأهمية الحوار البعيد عن الأحادية التي يراد فرضها ومن الإيمان بقيمة التنوع، إذ هو سر الحوار وديمومته فالاختلاف ظاهرة إنسانية حين يبتعد عن فرض أفكار

على الآخرين من خارج منظومتهم الأخلاقية والاجتماعية والسياسية، إذ يجب قراءة الآخرين، والتعامل معهم من خلال مصادرهم وقناعاتهم ومصالحهم دون إملاء أو رهبة.

لكن في الوقت نفسه لا بد من وضع أسس واضحة وأهداف محددة وبرامج عمل دقيقة لمشروع الحوار تنطلق أولاً من تعزيز الحوار في الحضارة نفسها، وثانياً مع الحضارات الأخرى، فالحضارة الإسلامية ولا شك بحاجة ماسة إلى حوار ينقي مسيرتها من الشوائب والفرقة والتفكير والتخوين بحيث تكون كلمة مسلم أساساً سامياً للمحبة والتسامح والثقة، وهي بحاجة ثانياً إلى الحوار مع الحضارات الشرقية، وإلى الإيمان بوجود ما يشجع للحوار مع الغرب في الغرب نفسه وعند الأمريكيين تحديداً، فإنسانية الإنسان مقترنة بوجوده ويمكن الرهان عليها في أي زمان ومكان.

ونحن في سورية العروبة والإسلام مهد الحضارة الإنسانية لا نزال ندعو إلى تعزيز الحوار واحترام حرية الشعوب والعمل على إقامة السلام العادل والشامل من منطلق احترام رأي المنظمة الدولية وميثاق حقوق الإنسان مؤكدين قول القائد الخالد حافظ الأسد: (الحضارات قامت على الحوار وليس على الصراع).

إن ما يجري الآن في منطقتنا يفتقد إلى روح الحوار، إذ تعاني المنطقة من وجود العنصرية النازية التي تعيث فساداً ودماراً وفتنة في المنطقة والعالم وتؤجج الصدام بين الشعوب والحضارات على المستوى الدولي، وتسعى إلى التحكم بمقدرات القوة العظمى وبسياسة إدارتها، وتتنكر في الوقت نفسه للشرعية الدولية ولميثاق حقوق الإنسان، وهذا ما يلفت الانتباه إلى أن تكون الدعوة إلى الحوار غير منعزلة عن أسباب القوة والمنعة والصمود وفي وجه قوى الشر وما يساندها.

إننا في سورية نؤكد أهمية الحوار بين الحضارات المختلفة على أساس الانسجام مع الشرعية الدولية ومع قوانين المجتمع الدولي وأعرافه، وقد حدد السيد الرئيس بشار الأسد أهداف الحوار في بناء (أوثق الصلات مع الدول والشعوب والمنظمات الدولية على قاعدة الاحترام المتبادل والتعاون البناء وصيانة الأمن والسلام الدوليين واحترام حق الشعوب في تقرير مصيرها بالشكل الذي يحقق مصالحها الحيوية.. فلا تبقى أسيرة تحكم قطب واحد أو جهة معينة).

Damascus University

تدريبات

١- ما موضوع المقالتين السابقتين، وهل هنالك من هموم مشتركة في المقالتين، وعند الكاتبين؟

٢- كيف تنظر إلى توزع رؤية الكاتبين بين الهموم الذاتية والهموم الموضوعية؟

٣- هل هناك من أثر للموضوعات المطروقة في المقالتين في المفردات وفي التراكيب، وفي المعجم اللفظي؟

٤- اكتب نصاً آخر تحاول ان تضيف فيه شيئاً إلى أحد الموضوعين المطروقين، وتبيّن رأيك فيه من خلال الاتفاق أو الاختلاف أو الإضافة.

Damascus University

فن السيرة الذاتية

السيرة نوع أدبي قديم، وقد اختلف النقاد في النظر إليه وتصنيفه بين الأدب والتاريخ، وإذا أخذنا بالحسبان أن لكتابات بعض المؤرخين قيماً إنشائية وأدبية ساطعة على نحو ما نجد في سيرة ابن هشام، وتاريخ الطبري صار بالإمكان عدّ السيرة جنساً أدبياً، ولا يتناقض هذا مع أن تكون السيرة جزءاً من علم تدوين التاريخ. وهنا تحضر القيمة العالية لقول كولردج: إن حياة ما مهما كانت تافهة ستكون ممتعة إذا رويت بصدق.

إن الصلات بين ذات الكاتب الإبداعية وذاته الحقيقية عديدة متنوعة، ويرى بعض النقاد أن الصلة بين شخصيات النص الأدبي وأحداثه انعكاس لموقف الأديب من الأحداث ومن الحياة العامة، وتعد هذه الرؤية من أقدم مناهج الدراسة الأدبية، وهي تكاد تجعل من كل نص أدبي انعكاساً لذات الأديب الحقيقية.

ومن الإشكالات التي يطرحها اعتبار كتابة السيرة الذاتية جنساً أدبياً هو أن مشكلات كاتب السيرة هي نفسها مشكلات المؤرخ من حيث استحضار الأحداث التاريخية الحقيقية والشهود الواقعيين من الحياة العامة، والذكريات والتصريحات التي يتفق المجتمع على صدقها والعلم بها. لكن كاتب السيرة يحتاج مع هذا الاصطفاء والتلميح أحياناً والتصريح أحياناً أخرى، إلى خيال ابتكاري يوفق بين التقريرية والأدبية، ويحسن الانتقال من السيرة كعلم إلى السيرة كأدب. وهنا نتذكر محاولات جرجي زيدان في مطلع القرن الماضي في

اقتباس أحداث وشخصيات من التاريخ وتحويل الوقائع إلى قصة أو سيرة فنية ممتعة، كما هو واضح من سيرة أو قصة: عذراء قريش، أو عذراء دنشواي.

والسيرة الذاتية فن شائع، لكنه يحتاج إلى جرأة كبيرة، وإلى موهبة ومقدرة فائقة للتوفيق بين ما هو ذاتي وبين ما يهم الآخرين من الشخصية، وإلى تدوين ما هو معروف وتدوين الجانب المضمر من شخصيته الذاتية. وقد يوفّق في هذا الفن الأدباء الرومانسيون نظراً إلى تعلقهم بذواتهم، وإلى صدورهم عن أحاسيسهم ومشاعرهم الخاصة.

ويعد مفهوم القناع من أهم ما يميز الصلة بين السيرة الذاتية والأدب من جهة، والتاريخ من جهة ثانية، فقد يتخفّى الكاتب خلف قناع ويجعل منه صورة الحياة التي يريدها، وليس حقيقة الحياة التي جرت أحداثها، كما أن معيار الإخلاص أو المطابقة بين تجربة الكاتب وبين نص السيرة الذاتية ليس شرطاً ضرورياً، ومن جهة ثانية فإن الافتنان في السرد والبلاغة في التعبير والاعتماد على المجاز والاستعارة أمور نادرة في بنية نص السيرة الذاتية.

ويعد كتاب الأيام لطه حسين بأجزائه الثلاثة من أهم ما عرفه الأدب العربي في فن السيرة الذاتية. ويبدو أن طه حسين أحسن المواءمة بين أحداث حياته الفنية وبين براعة التعبير وسلامة الأسلوب وجمّاله.

Damascus University

مختار من

من كتاب "الأيام" طه حسين[1]

الفصل الرابع عشر
قصة حبّ..

كانت حياة الفتى في باريس حلوة مرة ويسير عسيرة، لم يعرف فيها سعة ولا دعة، ولكنه ذاق فيها من نعمة النفس وراحة القلب ورضا الضمير ما لم

---

[1] طه حسين بن علي بن سلامة ١٨٨٩ – ١٩٧٣م، ولد في صعيد مصر (المنيا) وأصيب بالجدري وهو في الثالثة من عمره فكفّ بصره، بدأ دراسته في القرية ثم انتقل إلى الأزهر، ثم التحق بالجامعة المصرية في أوائل عهدها فنال منها اول درجة للدكتوراه في بحثه (ذكرى أبي العلاء) ١٩١٤ وبعدها درس بجامعة السوربون بفرنسا ونال درجة الدكتوراه بالفرنسية عن بحثه (فلسفة ابن خلدون) ١٩١٨م.

عمل بالتدريس في كلية الآداب في الجامعة المصرية ـ جامعة القاهرة فيما بعد ـ وانتخب عميداً للكلية، وكان لمدة رئيساً لمجمع اللغة العربية بالقاهرة وعضواً في مجمعي دمشق وبغداد، وعيّن وزيراً للمعارف المصرية فحقق مجانية التعليم حتى نهاية المرحلة الثانوية الفنية والعامة.

طه حسين شخصية ادبية، وفكرية، وإنسانية فذّة، قدم أمثولة على الإفادة من الطاقة الخلاّقة للإنسان رغم العوائق الجسدية والاجتماعية والمادية، ولقد أثار قضايا هامة في الأدب العربي، تاريخه ودراسته ونقده، أثرت في أجيال الدارسين وجددت مناهج البحث على الرغم من المسائل الخلافية الجدلية فيها. من كتبه الدراسية: في الأدب الجاهلي، حديث الأربعاء ٣ مجلدات، على هامش السيرة، مع المتنبي، قادة الفكر، مع أبي العلاء في سجنه، ومن آثاره الفنية: قصة دعاء الكروان، والسيرة الذاتية: الأيام (٣ أجزاء)، وله كتب، ومقالات عديدة نشرت وجمعت في مجلدات مطبوعة.

كان طه حسين صاحب أسلوب متميز في أدائه اللغوي، وفي تضد تراكيبه واختيار الفاظه الموسيقية، وقد اغنى اللغة العربية بالمفردات الحديثة والمصطلحات المناسبة لروح العصر، وكانت له طريقة ممتعة في الحوار، وكانت محاضراته شيقة لطيفة ممتعة.

يعرفه من قبل، وما لم ينسه قط، كانت حياته المادية شاقة، ولكنه احتمل مشقتها في شجاعة ورضا وسماح، لم يكن مرتبه يتجاوز ثلاثمائة من الفرنكات، كان يدفع ثلثيه في اليوم الأول أو الثاني من كل شهر، ثمناً لمسكنه وطعامه وشرابه، وكان يدفع نصف الثلث الذي كان يبقى له أجراً لسيدة كانت تصحبه إلى السوربون مصبحاً وممسياً ليسمع فيها دروس التاريخ على اختلافها، وتقرأ له بين ذلك ما شاء الله من الكتب حين لا يخلو له ذلك الصوت العذب الذي كان قد رتب له ساعات بعينها في النهار ليقرأ له فيها روائع الأدب الفرنسي، وكان يستبقي فضل مرتبه بعد ذلك لينفق منه على ما يعرض من حاجاته اليومية، فأما أمر كسوته فقد تركه إلى الله لأن مرتبه لم يكن يتسع له.

وأنفق السنة الأولى من حياته في باريس لا يخرج من بيته إلا إلى السوربون، فكان سجيناً أو كالسجين، لم يذكر قط أنه خرج من باريس إلى ضاحية من ضواحيها في أيام الراحة التي كان رفاقه ينفقون فيها أيام الآحاد، ولم يذكر قط أنه اختلف إلى قهوة من قهوات الحي اللاتيني التي كان رفاقه الجادّون يلمون بها بين حين وحين، وكان أكثر الطلاب المصريين يختلفون إليها أكثر مما كانوا يختلفون إلى الجامعة، وإنما كان يلزم بيته في أيام الراحة لا يفارقه وربما خلا إلى نفسه اليوم كله في غرفته، إلا أن يلم به ذلك الصوت العذب فيقضي معه ساعة من نهار.

وكان يسمع أنباء المسارح ومعاهد الموسيقى واللهو، وكانت نفسه ربما نازعته إلى بعض هذه المسارح ليسمع هذه القصة أو تلك، ولكنه كان يردّ نفسه في يسر إلى القناعة والرضا. وكيف السبيل إلى غير ذلك وهو لا يستطيع أن يذهب وحده إلى حيث يريد ولا يستطيع أن يدعو غيره إلى مرافقته، ولا يريد أن يكلف غيره من الناس عناء مرافقته من جهة وتحمل ما تقتضيه هذه

المرافقة من النفقات من جهة أخرى، ولم تكن ذكرى أبي العلاء تفارقه في لحظة من لحظات اليقظة إلا أن يشغل عنها بالاستماع إلى الدرس أو إلى القراءة. كان يذكر دائماً قول أبي العلاء في آخر كتاب من كتبه أنه رجل مستطيع بغيره، وكان يرى نفسه مستطيعاً بغيره دائماً، ويحتمل في سبيل ذلك من غيره هذا الذي يتيح له الاستطاعة ألواناً من المشقة وفنوناً من الأذى بدون أن ينكر منها شيئاً، فهو مكره على احتمالها إكراهاً، وهو مخير بين أن يقبل ما يكره من غيره من اللذين كانوا يعينونه على ما يريد أو يرفضه فيضطر إلى العجز المطلق اضطراراً، ويضيع حياته في باريس بل حياته كلها في باريس أو غير باريس، وكيف السبيل له إلى أن، يذهب إلى السوربون ليسمع الدروس فيها إذا لم تعنه على ذلك هذه السيدة التي لم يكن من معونتها بدّ، والتي كانت ترفق به أحياناً وتعنف به أحياناً أخرى، وربما صحبته من البيت إلى الجامعة بدون أن تلقى إليه كلمة أو يسمع لها صوتاً، وإنما كانت تعطيه ذراعها وتمضي معه صامتة كأنما تجرّ متاعاً لا ينطق ولا يفكر، حتى إذا بلغت قاعة الدرس أجلسته إلى مائدة من موائدها، وانصرفت عنه إلى خارج القاعة فانتظرت حتى إذا فرغ الأستاذ من درسه أقبلت عليه فأقامته من مجلسه، ومضت به إلى بيته، حتى إذا انتهت به إلى غرفته أدخلته فيها وأغلقت من دونه الباب، وهي تقول له في صوت خاطف: "إلى اللقاء في ساعة كذا من النهار".

وربما اعتذرت هذه السيدة من مهمتها بعد أن تجد له سيدة أخرى تقوم مقامها، فكانت هذه السيدة الثانية ثرثارة تؤذيه بحديثها المتصل أكثر مما كانت تلك تؤذيه بصمتها الملحّ...

على أن عجز الفتى لم يكن مقصوراً على ذهابه إلى الجامعة وعودته منها، وإنما كان عاماً شاملاً يمس الفتى في أشد الأشياء لزوماً له، فهو كان يستحي من كل شيء ويكره أن يثير الضحك منه أو الرثاء له والإشفاق عليه. وكان

شرطه حين سكن في البيت الذي أقام فيه ألا يشارك أهله في طعامهم، وإنما يخلو إلى طعامه الذي يجب أن يحمل إليه في غرفته حين يأتي وقته، فكان الطعام يحمل إليه ويوضع بين يديه ثم يخلى بينه وبينه فيصيب منه ما يستطيع لا ما يريد. يحسن ذلك أحياناً ويخطئه أحياناً أخرى، وربما وضع بين يديه من ألوان الطعام ما لا يحسن تناوله فيتركه مؤثراً العافية، محتملاً في سبيلها ما قد يتعرض له أحياناً من ألم الجوع.

وظل الفتى على هذه الحال أشهراً، ولكن الله رفق به وبعد ذلك فأتاح له من كان يهيء له طعامه ويعلمه كيف يرضى منه حاجته.

واتخذ الفتى زيّ الأوربيين، وما أسرع ما تعلم الدخول فيه والخروج منه، إلا شيئاً واحداً لم يحسنه أعواماً طوالاً، وهو هذا الرباط السخيف الذي يديره الناس حول أعناقهم ثم يعقدونه بعد ذلك من أمام عقدة يتأنقون فيها قليلاً أو كثيراً!

لم يفتح الله على صاحبنا بتعلم هذا الجزء من زيه، فكان أخوه يدير له هذا الرباط حول عنقه ما عاشا معاً في مونبلييه.

فلما افترقا حار الفتى في أمره، ولكن صديقه الدرعمي أخرجه من هذه الحيرة، واشترى له أربطة مهيأة لا تحتاج إلى عناء، وإنما تدار حول العنق في يسر ويجمع بين طرفيها في يسر أيضاً، فقد هيئت عقدتها فليس محتاجاً إلى أن يتكلف عقدها وتسويتها والتأنق القليل أو الكثير فيها، ولكنه كان مضطراً إلى ألا يفكر مطلقاً في الملاءمة بين هذه الأربطة وبين ما كان يتخذ من ثياب. وربما اتخذ منها رباطاً واحداً يديره حول عنقه في كل يوم ويمضي على ذلك الأسابيع المتصلة وربما لاحظ هذا الرفيق أو ذاك من رفاقه اختلافاً بين ثوبه ورباط عنقه، وربما أعانه صديقه الدرعمي فتقدم إليه في أن يغير هذا الرباط واختار له ما يلائم زيّه مما كان عنده من هذا السخف الذي لم يفهم له معنى

فصل.

وكذلك عاش الفتى عامه الأول أو أكثر هذا العام، مضطرباً في هذه الحياة المادية المختلطة المعقدة من جميع نواحيها. وربما كان يجد بعض الأمل في ذلك، ولكنه كان يمر به مرّاً سريعاً لا يقف عنده ولا يفكر فيه إلا قليلاً. كان يعزيه عن ذلك إقباله على الدرس، وإحساسه الانتفاع به والتقدم فيه وشعوره بأنه قد أخذ يفهم الفرنسية في غير مشقة ولا عسر، ويقرأ كتب التاريخ والأدب والفلسفة، فلا يجد في فهمها جهداً ولا عناء، قد انقطع لذلك انقطاعاً تاماً فهان عليه منه ما كان صعباً ويسر له منه ما كان عسيراً.

ولم تكن حياته العقلية أقل تعقيداً والتواء من حياته المادية، فلم يكد يختلف إلى دروس التاريخ والأدب في السوربون حتى أحسّ أنه لم يكن قد هيأ لها، وأنه لا يفهمها ولا يسيغها كما كان ينبغي أن تفهم وتساغ وأن درسه الطويل في الأزهر وفي الجامعة لم يهيئه للانتفاع بهذه الدروس.

وكانت آماله عراضاً فكان ينبغي أن يتخذ إليها أسبابها، وأول هذه الأسباب أن يعد نفسه لفهم الدروس التي تلقى في الجامعة، وسبيل هذا الإعداد أن يقرأ في أقصر وقت ممكن ما كان التلاميذ الفرنسيون ينفقون الأعوام الطوال في درسه بمدارسهم الثانوية. فليس له بدّ من أن يكون تلميذاً ثانوياً إذا أوى إلى بيته، وطالباً جامعيّاً إذا اختلف إلى دروس السوربون.

وما أسرع ما نظر في برنامج المدارس الثانوية الفرنسية، واستخلص منه ما يحتاج إليه، وأزمع أن يدرس منه التاريخ والجغرافيا والفلسفة، وهذه الخلاصات الموجزة التي كانت تلقى إلى التلاميذ عن الآداب الأجنبية الأوروبية قديمها وحديثها قد أقبل على ذلك كله في عزم لا يعرف الضعف، وتصميم لا يعرف التردد ولا الفتور، واستطاع في وقت قصير أن يحصل من هذا كله ما يحصله التلميذ الذي كان يتقدم إلى الشهادة الثانوية مطمئناً إلى أن الممتحنين

لن يردوه عن هذه الشهادة خزيان أسفاً.

واستقامت له دروسه في السوربون فجعل يفهمها ويسيغها كما كان يفهمها ويسيغها زملاؤه الفرنسيون. واختار لنفسه أستاذاً من أساتذة المدارس الثانوية يعلمه اللغة الفرنسية تعليماً منظماً، وإنما كان يجب عليه أن يحسن العلم بحقائق هذه اللغة ودقائقها وأن يكتبها كتابة لا تنبو عمن يقرؤها.

وكان يقدر أن الأساتذة في السوربون، سيكلفونه بعض الواجبات المكتوبة، كما كانوا يكلفون غيره من الطلاب. فلم يكن له بدّ من أنّ يتهيأ لتحرير هذه الواجبات حين تطلب إليه على وجه لا يعرضه للسخرية والازدراء. وما أكثر ما كان الأساتذة يسخرون من طلابهم إذا كتبوا لهم الواجبات فقصروا في بعض نواحيها. وكان الأساتذة يقرؤون بعض هذه الواجبات، يختارون من بينها للقراءة أشدها تعرضاً للنقد، ثم يأخذون في هذا النقد على نحو لاذع ممض يحرضون به الطلاب على أن يحسنوا العناية حين يكتبون. وكان سخريتهم بالمقصرين تضحك الزملاء، وتخرجهم أحياناً عن أطوارهم.

فكره الفتى أن يتعرض لبعض هذه السخرية، ولكنه تعرض ذات يوم لشر منها. كلفه أستاذ تاريخ الثورة الفرنسية فيمن كلف من زملائه كتابة موضوع عن الحياة الحزينة في فرنسا بعد سقوط نابليون، فأقبل على هذا الموضوع فدرسه كما استطاع في الكتب التي نبه إليها الأستاذ، وفكر فيه كما استطاع أيضاً.

ثم كتب عنه ما أتيح له أن يكتب وقدمه إلى الأستاذ في اليوم الموعود. وجاء يوم النقد فاستعرض الأستاذ ما قدم إليه من الواجبات ناقداً ساخراً منددا متندراً موبخاً بعض الطلاب أحياناً، حتى إذا ذكر اسم الفتى لم يزد على أن ألقى إليه واجبه معقباً بهذه الجملة المرة التي لم ينسها قط: سطحي لا يستحق النقد. وكان لهذه الكلمة وقع لاذع في نفس الفتى أمضه بقية يومه،

وأقضّ مضجعه حين اقبل الليل، وأشعره بأنه لم يتهيأ بعد كما ينبغي ليكون طالباً في السوربون، فالح في درس الفرنسية، وكلف نفسه في هذا الدرس من الجهد الثقيل والعناء المتصل ما كاد يصرفه عن غيره من الدروس. وأعرض عن المشاركة في كتابة الواجبات حتى تتم له أداة هذه الكتابة وهي اللغة الفرنسية.

وبينما كان الفتى يمتحن بأثقال هذه الحياة المادية والعقلية العسيرة، مجاهداً ما استطاع الجهاد، مروعاً بين حين وحين بهذا اليأس الذي كان يتراءى له من وقت إلى وقت فيشقيه ويضنيه، فتح له باب من أبواب الأمل لم يكن يقدر أنه سيفتح له في يوم من الأيام. ألمت علّة طارئة بصاحبة ذلك الصوت العذب الذي كان نعيمه الوحيد في حياته الشاقة المظلمة، فأقبل يعودها وجلس يتحدث إليها، لم يدر كيف التوى الحديث، ولكنه سمع نفسه يلقي إليها في صوت أنكره هو قبل أن تنكره هي: أنها يحبها.

ثم سمعها تجبه بأنها هي لا تحبه.

قال: وأي بأس بذلك؟

إنه لا يريد لحبه صدىً ولا جواباً وإنما يحبها وحسب.

فلم تجبه، وغيرت مجرى الحديث، وانصرف عنها بعد ساعة، وقد استقر في نفسه أن حياته ستسلك منذ ذلك اليوم طريقاً جديدة.

وليس من شك في أن نفسه كانت قد تعلقت بذلك الصوت العذب ثم بصاحبته منذ وقت طويل.. وإلا فما جزعه حين اضطر إلى العودة إلى مصر؟. وما ابتهاجه بهذه الرسائل التي كانت تصل إليه؟.. وما شوقه العنيف إلى العودة إلى فرنسا ليسمع فيها ذلك الصوت؟ .. وما خروجه عن طوره حين وجد الرسالتين اللتين كانتا تنتظرانه في نابولي؟.. وما إلحاحه على صاحبه الدرعمي في أن يقرأ عليه هاتين الرسالتين مرة ومرة ومرة حتى أملّه؟.. ثم ما

حرصه على أن يسمع هذا الصوت في باريس؟.. وما نزوله في بيته ذاك الذي كان يسمع فيه هذا الصوت يتردد في كل ساعة من ساعات النهار، ويلقى فيه صاحبة الصوت حين يريد لقاءها دون أن يتكلف لذلك جهداً أو سعياً أو انتظاراً؟.. وما سعادته بأنه كان يقيم في هذا البيت غير بعيد من ذلك الشخص الذي كان يلقى عليه تحية الصباح حين يخرج من غرفته، ذاهباً إلى السوربون ويلقى عليه تحية المساء، حينَ يتقدم الليل ويأوي أهل البيت إلى مضاجعهم. ويقرأ عليه بين ذلك ما شاء الله من آيات الأدب الفرنسي؟

ولكن حبه يستحي حتى من نفسه فينكرها، وكان الفتى يخفي شعوره ذاك في أبعد ما يمكن أن يستقر من أعماق ضميره، ويكره أن يتحدث به إلى نفسه، وقد استيقن أنه لم يخلق لمثل هذا الشعور وأن مثل هذا الشعور لم يخلق له.. وأين هو من الحب؟ وأين الحب منه؟

إنما كتب عليه أن يعيش كما عاش مثله الأعلى ذلك الذي وقف حياته منذ قرون طوال في دار من دور المعرة على الدرس ممعناً فيه، غير معنى إلا به، محرماً على نفسه ما أباح الله للناس من طيبات الحياة..كان الفتى يطوى نفسه على شعوره ذاك يائساً منه ومن عواقبه، راضياً بما يتاح له من سماع ذلك الصوت ومن الحديث إلى صاحبته حين يتاح له الحديث إليها، واثقاً بأن هذا أقصى ما يمكن أن يساق إليه من النعيم.. غير طامع في أكثر منه.. وكان واجداً على الحياة والظروف لأنها تحول بينه وبين أكثر منه.

ولكن العلة الطارئة التي ألمت بصاحبته، والصوت العذب الذي أدركه الضعف وشاع فيه الفتور، والإشفاق من الألم والجهد، على ما كان يكره له أن يحس الألم أو يحمل ثقل الجهد، كل ذلك ملك عليه أمره، وملأ عليه قلبه، وانساه تحفظه وتحرجه، وأجرى على لسانه تلك الكلمة التي أنكرها. وليس غريباً بعد ذلك أنه لم يجد حزناً ولا شقاء ولم يحس لوعة ولا ألما حين بلغ

مسمعه الرد على كلمته تلك موئساً مقنطاً. فهو لم يكن ينتظر إلا اليأس والقنوط، وقد وطن نفسه عليهما وعزّى نفسه عنهما بما كان يعمن فيه من الدرس والتحصيل.

وهو قد انصرف عن صاحبته في ذلك اليوم راضياً عن نفسه ساخطاً عليها، راضياً عنها لأنها قالت ما لم يكن بدّ من أن يقال.

ساخطاً عليها لأنها عرضته بهذه الكلمة لشر عظيم، فهي قد عرضته لإشفاق تلك الفتاة عليه ورثائها له وضيقها به. ومن يدري لعلها تريد أن تصرفه عنه صرفاً، وأن تلقى بينها وبينه حجاباً يقطع تلك الأسباب العذاب التي كانت تتيح لهما اللقاء والاستمتاع العقلي والشعوري بما كانا يقرآن معاً من آيات الأدب الفرنسي.

ومن يدري لعل هذه الكلمة التي ألقاها في غير تدبر وعن غير إرادة أن ترده إلى تلك الظلمة المظلمة التي ظن أنه قد خرج منها، وأن تضطره في يوم قريب أو بعيد إلى أن يترك ذلك البيت ويلتمس له مسكناً آخر لا يسمع فيه ذلك الصوت ولا يلقى فيه ذلك الشخص ولا يجد فيه شعور الرضا والنعيم، وإنما لم يكد ينتفع فيها بقراءة أو درس، ولم يكد يذوق فيها للحياة طعماً.

ولكنه يلقى صاحبته بعد أن انجلت عنها غمرة العلة، فإذا هي كعهده بها لم تتغير، لم تزدد إقبالاً عليه، ولم يجد منها إعراضاً عنه ولا نفوراً منه، وإنما هي تلقاه كما تعودت أن تلقاه رفيقة به عطوفاً عليه، وتقرأ له كما تعودت أن تقرأ له، وتبين له ما يشكل عليه في أثناء القراءة، كما تعودت أن تفعل من قبل، فيرده ذلك إلى شيء من الأمن، ثم إلى شيء من الدعة وراحة البال. وتنقضي أيام، وإذا ذلك الشعور الخفي العميق الذي ظهر فجأة في ساعة من الساعات ثم استحيا وعاد إلى مستقره ذاك من أعماق الضمير، ويظهر مرة أخرى ولكن في تحفظ وتردد وأناة، لا يتحدث إلى الفتاة بشيء ولا يتحدث إلى الفتى بشيء

حين يلقاها. وإنما يكمن في مستقره من أعماق الضمير.

حتى إذا تقدم الليل وخلا صاحبنا إلى نفسه وهم أن يستقبل النوم خرج ذلك الشعور من مكمنه وذاد النوم عن صاحبه وجعل يسامره حتى يوشك الصبح أن يسفر ثم يعود إلى مكمنه ذاك ويسلم الفتى إلى نوم قصير.

ولم يلبث آثار هذا الأرق المتصل أن تظهر وأن يلحظها أهل البيت، وتلحظها معهم ذات الصوت العذب، وهم يسألونه عن أمره فيلتوي بالجواب، وهم يريدون أن يعرضوه على الطبيب فلا يستجيب لما يريدون، وإنما يزعم لهم أن ليس به بأس.

وما يزال هذا شأنه حتى يظهر عليه بعض الضرّ. وتسأله الفتاة ذات يوم. وقد خلت إليه تقرأ عليه بعض ما كانا يقرآن. فيريد أن يلتوى بالجواب، فتلح عليه، وإذا هو ينبئها مريداً أو غير مريد بأمره كله.

فتسمع له ثم تسكت عنه، ثم تأخذ في القراءة حتى إذا أتمتها وهمّت أن تنصرف قالت له في رفق: وإذن فماذا تريد؟

قال الفتى: لا أريد شيئاً قالت: فإني قد فكرت فيما أنبأتني به، وأطلت فيه التفكير، ولم آنته بعد إلى شيء، وقد أوشك الصيف أن يظلنا وسنفترق، فاصبر حتى إذا كان افتراقنا فستتصل بيننا الرسائل كما تعودنا أن نفعل. فإذا قرأت في بعض رسائلي أني أدعوك إلى تنفق معنا بقية الصيف فأعلم أني قد أجبتك إلى ما تريد، وإن لم تقرأ هذه الدعوة حتى ينقضي الصيف فأعلم أنها الصداقة الصادقة بينك وبيني ليس غير.

ولم يسعد الفتى بشيء قط كما سعد بهذا الحديث، وكانت آية سعادته أنه أطرق ولم يقل شيئاً.

وأقبل الصيف وكان الافتراق، ذهبت هي إلى قرية في أقصى الجنوب.. وأقام هو في باريس، واتصلت بينهما الرسائل، ولكنها قبل أن تفارقه كلفت

زميلة لها أن تكون هي الكاتبة القارئة لرسائلهما حتى لا يطلع على هذه الرسائل زميل من زملائه. واتصل الفراق شهراً.. ولكن رسالة تصل إليه في آخر هذا الشهر وفيها الدعوة المرتقبة إلى أن يقضي معها ومع أسرتها بقية الصيف.. وإذن فقد تحقق أمله، أو كاد أن يتحقق، وهو يعلن إلى زملائه المصريين أنه سيترك باريس إلى حيث يقضي الصيف مع تلك الأسرة وهم يصدّونه عن ذلك مشفقين عليه.

ولكنه مصرٌ على ما أراد، فيصحبه صديقه الدرعمي ذات مساء إلى حيث يضعه في القطار، ويوصي به بعض من فيه.. وينصرف عنه ويدعه وحيداً. وينفق الفتى ليلا في القطار، لا يدري أقصر أم طال، لأنه لم يفكر في أثنائه إلا في هذا اللقاء الذي سيكون حين يرتفع الضحى ويبلغ القطار غايته، وإذا الصوت العذب يدعو صاحبنا في رفق وعطف وحنان، ويشعر بأنه منذ اليوم سيخلق خلقاً جديداً.

المرأة التي أبصرت بعينيها!

واستأنف الفتى حياة جديدة، بأوسع معاني هذه الكلمة وأعمقها! كان يرى نفسه في كلمة أبي العلاء حين قال إنه أنسيّ الولادة، وحشي الغريزة.

كان يرى نفسه إنساناً من الناس ولد كما يولدون، وعاش كما يعيشون، مقسم الوقت والنشاط فيما يقسمون فيه وقتهم ونشاطهم. ولكنه لم يكن يأنس إلى أحد، ولم يكن يطمئن إلى شيء، قد ضُرب بينه وبين الناس والأشياء حجاب ظاهره الرضا والأمن، وباطنه من قبله السخط والخوف والقلق واضطراب النفس، في صحراء موحشة لا تحدها الحدود، ولا تقوم فيها الأعلام، ولا يتبين فيها طريقة التي يمكن أن يسلكها، وغايته التي أن ينتهي إليها.

ولكنه ينظر ذات يوم فإذا هو قد أخذ يتخفف قليلاً قليلاً من غريزته تلك الموحشة القلقة، ويحس شيئاً من الأنس الرفيق إلى بعض الناس، ثم يحس هذا الأنس يقوى في نفسه من يوم إلى يوم، وإذا هو لا يطمئن إلى ذلك الشخص الحبيب إليه الكريم عليه، وإنما يطمئن إلى غيره من الناس أيضاً.

كان يرى نفسه غريباً أينما وحيثما حل، لا يكاد يفرق في ذلك بين وطنه الذي نشأ فيه، وبين غيره من الأوطان الأجنبية التي كان يلم بها، لأن ذلك الحجاب الصفيق البغيض الذي ضرب بينه وبين الدنيا منذ أول الصبا كان محيطاً به، يأخذه من جميع أقطاره في كل مكان، فكان الناس بالقياس إليه هم الناس الذين يسمع أصواتهم، ويحس بعض حركاتهم، ولكنه لا يراهم ولا ينفذ

إلى ما وراء هذه الأصوات التي كان يسمعها والحركات التي كان يحسها.

كان غريباً في وطنه، وكان يرى أن ما يصل إليه من حياة الناس ليس إلا ظواهر لا تكاد تغني عنه شيئاً.

وكانت الطبيعة بالقياس إليه كلمة يسمعها ولا يعقلها، ولا يحقق من أمرها شيئاً، كأنما أغلق من دونها بالقياس إليه باب لا سبيل له إلى النفوذ منه. كان ينكر الناس وينكر الأشياء. وكان كثيراً ما ينكر نفسه ويشك في وجوده!

كانت حياته شيئاً ضئيلاً نحيلاً رقيقاً لا يكاد يبلغ نفسه. وكان ربما تساءل بين حين وحين عن هذا الشخص الذي كان يحسه مفكراً مضطرباً في ضروب من النشاط ما هو؟ وما عسى أن يكون؟ وكان ذلك ربما أذهله عن نفسه وقتاً يقصر أو يطول، فإذا ثاب إليها أو ثابت إليه أشفق من هذا الذهول وظن بعقله الظنون. وتساءل: أيجد الناس من الذهول عن أنفسهم مثل ما يجد ويحسون من إنكار أنفسهم مثل ما يحس؟!

كانت حياته حيرة متصلة كلما خلا إلى نفسه. وكان لا يملك أمره إلا حين كان يتحدث إلى الناس أو يسمع لهم أو يختلف إلى الدروس أو يصغي لما كان يقرأ عليه. فأخذ كل هذا ينجاب عنه وأخذ يدخل في الحياة كأنه لم يعرفها من قبل، وكان ذلك الشخص الحبيب إليه الكريم عليه هو الذي أخرجه من عزلته تلك المنكرة. فألفى في رفق وفي جهد متصل أيضاً ما كان مضروباً بينه وبين الحياة والأحياء والأشياء من الحجب والأستار!

كان يحدثه عن الناس فيلقى في روعه أنه يراهم وينفذ إلى أعماقهم.

وكان يحدثه عن الطبيعة فيشعره بها شعور من يعرفها من قرب.

كان يحدثه عن الشمس حين تملأ الأرض نوراً، وعن الليل حين يملأ الأرض ظلمة، وعن مصابيح السماء حين يرسل سهامها المضيئة إلى الأرض، وعن الجبال حين تتخذ من الجليد تيجانها الناصعة، وعن الشجر حين ينشر من

حوله الظل والروح والجمال، وعن الأنهار حين تجري عنيفة والجداول حين تسعى رشيقة، وعن غير ذلك من مظاهر الجمال والروعة ومن مظاهر القبح والبشاعة فيمن كان يحيط به من الناس، وفيما كان يحيط به من الأشياء.

فكان يخيل إليه أنه يكشف له عن حقائق كانت مستخفية عليه ولم تكن غريبة بالقياس إليه كأنه قد عرفها في الزمان الأول والبعيد، ثم نسيها دهراً طويلاً فهو يذكرها بعد أن طال عهده بها.

وكذلك أخذت تثوب إليه ثقته بنفسه وراحته إلى غيره، وأخذ ينجلي عنه الشعور بالغربة، والضيق بالوحدة والسأم من العزلة. وليس من شك في أنه قد صدق كل الصدق وأعرب عن ذات نفسه في غير تكثر ولا غلو حين قال في بعض ما كتب إن فتاته تلك قد جعلت شقاءه سعادة، وضيقه سعة وبؤسه نعيماً وظلمته نوراً.

ولم ينفق الفتى وصاحبته صيفهما ذاك فيما تعود الفتيان المحبون أن ينفقوا فيه أيام حبهم الأولى من تلك الحياة الهائمة الناعمة التي تخلص من المشقة وتتخفف من الجهد وتفرغ لرضا النفوس وغبطة القلوب والذهاب مع الخيال الهائم في كل مذهب.

وإنما عرفا أن وقتهما أضيق من الفراغ للحب ونعيمه، فوقت الفتى في فرنسا محدود، وعليه واجبات يجب أن تؤدي، وله مهمة يجب أن تتم، وهو مسؤول عن هذا كله أمام جامعة في مصر لا تعرف السماح ولا المزاح مع الذين ترسلهم إلى أوربا ليطلبوا العلم فيها.

ولها الحق كل الحق في ذلك فهي إنما ترسلهم إلى أوربا ليتعلموا لا ليحبوا، وليجدوا في طلب العلم لا ليتعلقوا بأسباب الخيال.

وما أكثر ما ذكر الفتى أشهر الصيف تلك في أقصى الجنوب الفرنسي، وما جاء بعدها من الشهور في باريس، فرضي عن صاحبته وعن نفسه رضا لا تشوبه شائبة من سخط أو إنكار.

وانظر إلى فتاة وفتى في أول عهدهما بالخطبة ينفقان أكثر النهار في درس اللاتينية حين يصبحان، وفي قراءة الترجمة الفرنسية لمقدمة ابن خلدون حين يرتفع الضحى.

فإذا جاء وقت الغداء ألمّا بالمائدة فأصابا شيئاً من طعام، ثم أقبلا على تاريخ اليونان والرومان فقرأا منه ما شاء الله أن يقرأا.

فإذا كانت الساعة الخامسة انصرفا عن تاريخ اليونان إلى الأدب الفرنسي فقرأا منه ما شاء الله أن يقرأا كذلك. لا ينصرفان عن القراءة إلاّ ريثما يخرجان للتروض خارج القرية التي يعيشان فيها، ينفقان في تروضهما ذاك ساعة أو أقل من ساعة، ثم يعودان إلى المائدة فيصيبان شيئاً من طعام ثم تجتمع الأسرة كلها إلى كتاب يقرؤه عليها ذلك الصوت العذب.

حتى إذا تقدم الليل شيئاً تفرقت الجماعة، وأوى كل واحد منها إلى غرفته، وخلا صاحبنا إلى نفسه يذكر نفسه يذكر ماضيه القريب وينعم بحاضره السعيد ويفكر في مستقبله المجهول.

ينفق في ذلك أكثر الليل مؤرقاً لا يكره الأرق ولا يدعو النوم، ولكن النوم يغلبه على أمره من آخر الليل. فإذا أسفر له الصبح استقبل يومه آخذاً في الدرس كما فعل من أمس.

وعلى هذا النحو أنفق الأشهر الأولى لخطبته، ثم يعود مع الأسرة إلى باريس فيستأنف فيها حياته الجامعية مختلفاً إلى السوربون حين يصبح وحين يمسي، خالياً إلى قارئته بين ذلك وإلى أستاذ الفرنسية يوماً والأستاذ اللاتينية يوماً آخر، مقدراً عسر المهمة التي تكلفها وبعد الغاية التي يسعى إليها.

وكان قد أزمع أن يظفر قبل كل شيء بدرجة الليسانس ثم يتقدم لدرجة الدكتوراه بعد ذلك، ولم يكن الطلاب المصريون إلى ذلك الوقت يحاولون الظفر بدرجة الليسانس هذه، لأنها كانت تكلف الذين يطلبونها عناء ثقيلا .. كانت تكلفهم إتقان الفرنسية أولا ليؤدوا الامتحان التحريري فيما يدرسون من العلم، وليؤدوه كما يؤديه الطلاب الفرنسيون،يكتبون ما يرادون على كتابته في لغة فرنسية مستقيمة لا عوج فيها ولا خطأ، كانت تكلفهم درس اللاتينية ليؤدوا فيها امتحاناً تحريرياً كذلك.

ولم تكن اللاتينية تدرس في مصر لا في المدارس الثانوية ولا في المدارس العالية.

فكان المصريون يرون انهم لن يستطيعوا مجاراة زملائهم من الطلاب الفرنسيين في هذه اللغة التي لم يسمعوا بها قبل وصولهم إلى فرنسا، حين كان الطلاب الفرنسيون يدرسونها ست سنين في مدارسهم الثانوية، ثم يدرسونها في الجامعة قبل أن يتقدموا لامتحان الليسانس.

من أجل ذلك كان المصريون يعرضون عن درسها إعراضاً لا تكلف فيه، ويعرضون بالطبع عن درجة الليسانس التي لا سبيل إليها من غير هذه اللغة.

وكان ثلاثة من المصريين قد أرغموا أن يقهروا هذه الصعوبة، ويقتحموا هذه العقبة، ويدرسوا اللغة اللاتينية، ويظفروا بدرجة الليسانس مهما يكلفهم ذلك من الجهد والعناء. فأما أحدهم فقد جدّ وتقدم للامتحان فأخفق، ثم أخذ يستعد ليؤدي الامتحان في العام المقبل. ولكن الأسباب تقطعت بينه وبين ذلك. أدركته العلة فاضطرب أمره، واختلط عقله، وردّ إلى مصر فأنفق فيها أياماً كئيبة يائسة، فاستأثرت به رحمة الله فأراحته من أثقال الحياة، وأما الآخر فكان الدكتور صبري السوربوني.

وقد جدّ وتقدّم للامتحان مرة ومرة، ولكن عقدة اللاتينية أدركته، فكان إذا

أقبل على الامتحان وتلقى النص اللاتيني الذي يجب أن يترجمه إلى الفرنسية ألقى عليه نظرة سريعة، ثم طواه وقدم إلى الممتحنين صفحة بيضاء لم يمسها خطأ أو صواب. وانصرف ضاحكاً يتمثل ببيت لاتيني قديم يصور اليأس والقنوط، ولكنه لم يعرف يأساً ولا قنوطاً، ولم يذعن لعقبة أو صعوبة، وإنما حاول وطاول وألحّ في المحاولة والمطاولة حتى تقدم للامتحان ذات يوم وتلقى النص اللاتيني فلم ينظر فيه نظرة سريعة، وإنما أقبل عليه فترجمه وقدم إلى الممتحنين صحفاً أتاحت له الفوز والنجح.

وكان مشكلة خطيرة عرضت له، وكانت خليقة أن تفسد عليه أمره كله، ولم يكن بينها وبين الدرس صلة، فهو قد خطب تلك الفتاة إلى نفسها وإلى أسرتها، وقد قبلت الفتاة خطبته بعد تردّد طويل، وقبلّتها الأسرة بعد امتناع وإباء ولكن صاحبنا لم ينس إلا شيئاً واحداً، وهو أنه قد أعطى الجامعة قبل أن يسافر إلى أوربا ذلك العهد الذي كان يعطيه أعضاء البعثة جميعاً قبل سفرهم ألا يتزوج في أثناء إقامته في الخارج طالباً للعلم.

وهو لم ينقض هذا العهد لأنه خطب ولم يتزوج ولكنه عجل إلى الزواج، فليس له بد إذن من استئذان الجامعة أو نقض العهد الذي أعطاه لها. وقد أزمع أن يستأذنها وكتب إليها في ذلك. ولكنه كان يطيل التفكير في عواقب هذا الكتاب، كان يرجح ألا تأذن له الجامعة وكان يسأل نفسه فيطيل السؤال عما يكون من أمره إن رفضت الجامعة الإذن له فيما يريد.

وكان ذلك ربما نغص عليه حياته من حين إلى حين. ولكن الجامعة كانت أرأف به وأرحم له مما قدر، فأذنت له بعد خطوب لم يعرفها إلا بعد أن أتم درسه وعاد إلى مصر.

أذنت له الجامعة إذن، ولكنه هو لم يأذن لنفسه ولم تأذن له الفتاة حتى

يظفر بدرجة الليسانس هذه التي لم يظفر بها مصري بعد، وحتى يشعر الجامعة بأنه صاحب جدّ ونشاط وإنتاج لا صاحب لعب وكسل واشتغال بنفسه عما يجب عليه من الدرس والتحصيل.

والغريب من أمر صاحبنا أنه لم يكن في ذلك العام يتهيأ لامتحان الليسانس وحده، وإنما كان في الوقت نفسه يعدّ رسالته للدكتوراه، وقد زاده إذن الجامعة له بالزواج جداً وكداً ونشاطاً، حتى كان العام الأول لخطبته غريباً حقاً، كلف فيه نفسه وخطيبته من الأمر أعسره وأشده مشقة.

ولم ينس الفتى قط ولم تنس صاحبته، أنهما كانا يخرجان بين حين وحين في أيام الآحاد من باريس يطلبان النزهة والتروض، فلم يخرجا قط وحدهما وإنما صحبهما دائماً كتاب من هذه الكتب الثقال التي ترهق القارئين فيها من أمرهم عسراً؛ والذين يعرفون كتب أوجست كونت ويقدرون ما فيها من العسر الذي يتصل بمعانيها وألفاظها وأسلوبها يرحمون هذين الخطيبين اللذين كان يختلفان إلى هذه الغابة أو تلك من الغابات التي تحيط بباريس، فيأويان إلى ظل من أشجارها ويأخذان في هذه القراءة العسيرة الشاقة المرهقة التي لم يكن بينها وبين ما كان يملأ قلبيهما من الحب والأمل سبب قريب أو بعيد.

وقد أقبلت بوادر الصيف من ذلك العام وجعل الفتى يستعد للامتحان ثم دفع إليه في شهر يونيو فلم يتردد ولم يتكأ وإنما أقدم في عناد أي عناد. لم يكن واثقاً بنفسه ولا مطمئناً إلى نتيجة هذه المغامرة التي يقدم عليها، ولكنه كان يقول لنفسه إن أتيح إلى النجح فرمية من غير رام، وإن كتب على الإخفاق فما أكثر الذين يخفقون!

وكان مزمعاً إن ظفر بالنجح أن يبرق به إلى الجامعة، وإن كتب عليه الإخفاق أن يكتم ويجعله سراً بينه وبين نفسه إن أمكن أن يكتم الإخفاق في الامتحان، ومن حوله زملاؤه المصريون يرقبونه رفاقاً به مشجعين له عاطفين عليه.

وقد أتيح له النجح.. وكان الأستاذ الدكتور صبري السوربوني هو الذي أقبل ذات مساء فرحاً يكاد يخرجه الفرح عن طوره، مكدوداً يكاد يقطع الإعياء تنفسه لشدة ما جرى بين السوربون وبين بيت الفتى.. ولشدة ما أسرع في صعود السلم إلى بيت الفتى في الطبقة السادسة. فلم يكد يفتح له الباب حتى أعلن لمن فتحه له أن زميله قد ظفر بدرجة الليسانس، ولم يدخل وإنما رجع أدراجه لم يرد حتى أن يستريح.

وكان الزميل الكريم قد تقدم للامتحان ولم يكد ينظر في النص اللاتيني حتى طواه وقدم صحفه البيضاء وانصرف ضاحكاً متمثلاً ببيته اللاتيني ذاك الذي يصور اليأس والقنوط. فكان رائعاً حقاً أن يكون ابتهاجه بفوز زميله بهذه الدرجة العسيرة أملك له وأشد استئثاراً به من إخفاقه هو في الامتحان!..

والقى نبأ النجح إلى الفتى، فلم يصدقه حتى صحبته خطيبته إلى السوربون وقرأت له اسمه بين أسماء الناجحين، ثم لم يعد به إلى البيت حتى حجزت أمكنة للأسرة كلها في بيت موليير تكافئ بذلك صديقها وخطيبها على هذا النجح الذي لم يكن مرتقباً.

وأصبح الفتى من غده فأبرق إلى الجامعة ولم يمض يومان حتى أبرقت إليه الجامعة تهنئه وترسل إليه مكافأة قدرها عشرون جنيهاً.

في ذلك اليوم قرر الخطيبان أن يتما زواجهما قبل رحلة الصيف إلى الجنوب.

طلبت تأجيل الامتحان للزواج!

وكان أمر الفتى في عامه الدراسي ذاك عجباً كله، فهو لم يتهيأ لامتحان الليسانس وحده على ما فيه من عسر ومشقة، وإنما جعل يعد رسالته للدكتوراه عن فلسفة ابن خلدون الاجتماعية، فقرأ لذلك ما شاء الله أن يقرأ في اللغتين العربية والفرنسية، وترجمت له نصوص أخرى من لغات أوربية مختلفة، ثم أخذ في إملاء رسالته، يقول هو وتكتب صاحبته، وتقوّم في أثناء ذلك ما يعوجّ من لغته الفرنسية. ولا يكاد يفرغ من إملاء فصل من فصول هذه الرسالة حتى يعيد قراءته ثم يعرضه على أستاذه المستشرق الفرنسي كازانوفا، فإذا أقرّه أخذ في إملاء الفصل الذي يليه. ولم تكن الجامعة قد فرضت عليه هذه الرسالة، بل لم يكن بين هذه الرسالة وبين برنامجه الدراسي سبب فهو قد أرسل ليدرس التاريخ، وكلف الحصول على درجة الليسانس وتطوع هو بهذه الرسالة لأنه سمع دروس الاجتماع التي كان يلقيها الأستاذ دوركيم، فشغف بهذا العلم أي شغف، وأراد أن تكون له مشاركة فيه، وأن يشرف الأستاذ على هذه المشاركة. فاتفق معه على موضوع الرسالة وعلى أن يكون هو مشرفاً عليها من الناحية الفلسفية، وأن يشاركه في الإشراف مستشرق يحسن العلم بالشؤون العربية والإسلامية فكان كل فصل من هذه الرسالة يقرؤه أستاذان، يقرؤه الأستاذ المستشرق أولا ثم يقرؤه الأستاذ دوركيم بعد ذلك.

ولما استقام أمر هذه الرسالة للفتى كتب إلى الجامعة ينبئها بما صمم عليه، وبأن هذا لن يغير من برنامجه المرسوم شيئاً، بل ينبئها بأنه يزمع أن يضيف

إلى هذا البرنامج المرسوم شيئاً آخر: يريد - إن ظفر بالليسانس - أن يظفر بالإجازة التي تليه، وهي دبلوم الدراسات العليا. واستأذن الجامعة في أن يتهيأ لنيل درجة دكتوراه الدولة في التاريخ، على أن ذلك يستلزم أن تمتد إقامته في أوربا أربعة أعوام بعد حصوله على الليسانس والدبلوم.

فكتبت إليه الجامعة تأذن له بنيل الدبلوم إن استطاع بعد الليسانس، وتعفيه من دكتوراه الدولة في التاريخ، لأنها تطيل إقامته في أوربا وتكلف الجامعة من النفقات أكثر مما تطيق.

ثم أذنت له بتقديم رسالته عن ابن خلدون لنيل دكتوراه الجامعة، وذكرته بالعهد الذي قطعه على نفسه قبل أن يسافر من مصر وهو ألا يقدم رسالة إلى جامعة أجنبية مهما يكن موضوعها إلا بعد أن تقرأها الجامعة المصرية وتأذن في تقديمها. وكان الصديق الكريم الدكتور منصور فهمي هو الذي اضطر الجامعة إلى أن تأخذ طلابها في أوربا بأن يعطوا على أنفسهم هذا العهد.

والناس لم ينسوا بعد ما أثارت رسالة الدكتور منصور التي حصل بها على الدكتوراه من ضجيج وعجيج أثارا سخط الهيئات الرسمية أولاً، وسخط الرأي العام بعد ذلك، واضطر الصديق الكريم إلى أن ينأى عن مصر قريباً من عام، ولا يعود إليها إلا حين اضطرته الحرب إلى أن يعود. وحيل بينه وبين التعليم في الجامعة أعواماً، حتى إذا كانت الحركة المصرية سنة تسع عشرة وتسعمائة وألف، وما نشأ عنها من الأحداث ومن تحرر العقول، أذن له بما ينبغي أن يؤذن له فيه منذ أتم درسه في فرنسا. وكان ثروت باشا رحمه الله هو الذي إذن له في ذلك.

ولم ينس الفتى مساء يوم من الأيام جلس فيه بين زملائه إلى بعض الأساتذة في الجامعة حين كان طالباً، وإنه لمصغ إلى الأستاذ وإذا يدٌ تمسه مساً رفيقاً ثم تحاول إقامته من مكانه فيلتفت فينبئه صوت بأن الذي يريد أن

يقيمه هو علوي باشا، فيستجيب الفتى لهذا اليد وهو يشفق في نفسه من بعض الشر. فهو قد أقيم مرة من درسه في الأزهر مع صاحبين له ليقدما للمحاكمة أمام شيخه الأكبر الشيخ حسونة رحمه الله. وقد سأل الفتى نفسه إلى من سيقدم، وفيم يمكن أن يحاكم هذه المرة. ورأى الفتى نفسه قد أجلس على كرسي وقيل له إنك أمام مجلس إدارة الجامعة وإن المجلس يريد أن يسألك عن بعض الأمر. وإذا صوت رقيق يتحدث إليه في رفق فينبئه أولا باسمه عبد الخالق ثروت، ويساله بعد ذلك عن حكم الدين في أشياء تليت عليه من رسالة لطالب من طلاب الجامعة في أوربا.

قال الفتى: فإنه لا يملك إفتاء في أمور الدين.

قال محدثه: فإنا نريد أن نعرف رأيك.

قال الفتى وهو يبسم في شيء من غضب ساخر: كنت أظن أنني في الجامعة حيث لا يحاسب الناس على آرائهم. فإذا أنا أراني في الأزهر لا أسأل عن رأي نفسي وإنما أستفتى في رأي غيري من الناس.

قال صوت غليظ: رده يا علوى باشا إلى درسه فلن نأخذ منه شيئاً.

ورد الفتى إلى درسه لم يصحبه في عودته علوى باشا وإنما صحبه خادم من خدم الجامعة.

ومنذ أثار الدكتور منصور ذلك الضجيج أقامت الجامعة نفسها رقيباً على رسائل طلابها، وأخذت عليهم العهد ألا يقدموا رسائلهم إلى الجامعات الأجنبية حتى تأذن لهم هي في ذلك بعد أن تقرأ الرسائل وتقرّها. فلما استأذنها الفتى في تقديم رسالة عن ابن خلدون ذكرته بعهده ذاك، فوفى به وأرسل نسخة من الرسالة بعد أن أتمها، وأحالها مجلس الإدارة إلى الأستاذ أحمد لطفي السيد فقرأها ورضى عنها وأذنت الجامعة في تقديمها إلى

السوربون. ولم ينقض شهر يوليو من ذلك العام حتى كان الفتى قد نجح في الليسانس من جهة، وأذنت له السوربون في طبع رسالته توطئه لمناقشتها بعد الصيف.

وقد تخفف الفتى من عبئين ثقيلين.. عبء الليسانس وما فيه من امتحان اللغة اللاتينية، وعبء الرسالة وما فيها من رقابة الجامعة والإذن في تقديمها. على أن فوزه بالليسانس لم يكن كاملا، فهو قد نجح في الامتحان التحريري نجاحاً حسناً، ولكنه كان قد شق على نفسه بالاستعداد لهذا الامتحان وكتابه الرسالة وهو بعد ذلك مشغول متصل التفكير في زواجه الذي أذنت به الجامعة والذي كان يجب أن يتم في ذلك الصيف.

فخادع الفتى نفسه شيئاً، وقرر أن يرجئ الامتحان الشفهي إلى الدور الثاني في أول العام الدراسي، وما هي إلا أن يعرض نفسه على طبيب فيشهد كتابه بأنه مكدود الأعصاب محتاج إلى الراحة، ويقدم هذه الشهادة إلى السوربون فتؤجل ما بقي من امتحانه إلى شهر نوفمبر، ويفرغ الفتى لنفسه وخطيبته، وما كان يعنيهما من أمر الزواج.

فإذا كان اليوم التاسع من أغسطس من ذلك العام، أصبحا زوجين حين انتصف النهار وتركا باريس إلى الجنوب حين أقبل الليل. ولم يفرغا مع ذلك لحياتهما الجديدة في أثناء الصيف، وإنما استقرا في مدينة هادئة من مدن الجنوب، وأقبلا فور استقرارهما على ما لم يكن بدّ من الإقبال عليه وهو الاستعداد للامتحان الذي يجب أن يؤدي بعد شهرين.

وكان الاستعداد عسيراً حقاً. لم يكن بدّ لطالب الليسانس في التاريخ من أن يكون مستعداً بعد نجاحه في الامتحان التحريري لأن يسأل فيما يريد الأساتذة أن يسألوه فيه من تاريخ العصور القديمة وتاريخ القرون الوسطى والتاريخ الحديث والتاريخ المعاصر والجغرافيا والفلسفة ولغة أوربية غير اللغة

الفرنسية. وحسبك بهذا كله عبئاً ثقيلاً وعناء طويلاً. وحسبك به أو بالاستعداد له نعيماً يلائم حياة عروسين قد أتما زواجهما منذ أيام.

وهما مع ذلك يقبلان على هذه المحنة الثقيلة لا يضيقان بها ولا ينفسران منها، وإنما يصحبان في التاريخ ويمسيان في الجغرافيا ويلمان بالإنجليزية بين ذلك، ويتركان أمر الفلسفة إلى الله وإلى ذاكرة الفتى، وما يمكن أن يكون قد استقر فيها مما سمع في السوربون أثناء العام.

وينقضي الصيف ويعود الزوجان إلى باريس، ويقبل صاحبنا على الامتحان مشفقاً منه أعظم الإشفاق، مروّعاً به أشد الروع لا يخاف التاريخ القديم، وإنما يخاف أشد الخوف أساتذة التاريخ الحديث والتاريخ المعاصر، ولا يكاد يذكر الجغرافيا حتى يجن جنونه، فقد كان واثقاً بأنه مخفق فيها من غير الشك. وقد كتب عليه أن يرضى في يوم من أيام الامتحان كل الرضا مصبحاً وأن يسخط فيه كل السخط ممسياً.

واقبل من ضحى ذلك اليوم على أستاذ تاريخ القرون الوسطى وكان من أعظم أساتذة السوربون قدراً، وهو الأستاذ شارلى ديل. فإذا الأستاذ قد كتب على أوراق صغيرة أسئلة كثيرة وضعها أمامه، وجعل الطلاب كلما أقبل واحد منهم على الأستاذ يرمقونه ويرقبون ما يسعفه به الحظ. ويقبل صاحبنا ترافقه زوجه، فإذا أخذت ورقة ودفعتها إلى الأستاذ نظر فيها ثم ابتسم قال في صوت عذب: لقد أسعدك الحظ بمرافقة هذه الآنسة. حدثني إذن عن الإمبراطورية العربية أيام بنى أمية، وما أرى إلا أنك تعرفها خيراً مما أعرفها.

واندفع الفتى في حديثه لا يلوى على شيء حتى وقفه الأستاذ قائلاً: حسبك فقد ظفرت بالدرجة العليا.

في ذلك اليوم لم يعد الزوجان إلى البيت ليصيبا غداءهما، وإنما ألح الفتى

على صاحبته في أن يرفّها على نفسيهما بتناول الغداء في مطعم من مطاعم الحي اللاتيني، يجدان فيه من لين الطعام ما لم يكن مقدراً أن يجداه إن عادا إلى البيت. وكانت صاحبته تكره له أن يسرف فيما يبقى له من مرتبه بعد أداء ما عليه فيه من حق، فامتنعت عليه وألحت في الامتناع، لكنه مازال بها حتى استجابت له. فأصابا في ذلك اليوم غداء قلما كانا يصيبان مثله في سائر أيامهما.

وعادا بعد ذلك إلى السوربون، وإن قلب الفتى ليخفق فرقاً وقلقاً؛ وكيف لا وهو مقبل على امتحان الجغرافيا بعد قليل؟ وكان قد قدر في نفسه أن الأستاذ الذي سيمنحه لن يراه مقبلاً عليه حتى يرفق به ويعرف أن مثله لا ينبغي أن يسأله في الجغرافيا السياسية أو الاقتصادية أو البشرية ولا يسأله في الجغرافيا الطبيعية مثلا. ولكن الأستاذ يدعوه فيسعى إليه ويجلس بين يديه، ويقول الأستاذ في هذه المداعبة الرفيقة التي يتكلفها الممتحنون عادة: مسيو حسين، صف لي مجرى نهر الرون.

ويسمع الفتى هذا السؤال فيسرع إلى الوجوم، ولكن العناد يسبق الوجوم إلى عقله وقلبه جميعاً. وإذا هو يرفض الإجابة عن هذا السؤال في صوت لا تردد فيه ولا اضطراب.

قال الأستاذ متلطفاً: فإن من الحق عليك أن تجيب حين تسأل.

قال الفتى: ولكني لن أجيب.

قال الأستاذ: فقد اكتفيت.

ودعا طالباً آخر.

فانصرف صاحبنا محزوناً مدحوراً، مستيقناً أنه قد أخفق في الامتحان، وأن نجحه في أول الصيف قد ذهب هباء، مشفقاً في الوقت نفسه على صاحبته من هذا الحزن الذي سيسعى إليها من غير شك. ولكن صاحبته

تخرج به من هذه الغرفة مترفقة به قائلة له في ابتسامة عذبة: وما رأيك في فنجان من القهوة تهيأ به للقاء أستاذ الفلسفة! وقال: وفيم لقاء هذا الأستاذ وقد ذهب الامتحان كله هباء؟

قالت ضاحكة: لا عليك. فقد كان هذا الممتحن غليظ الطبع قليل الحظ من الذوق.

وما زالت به حتى سقته القهوة. ثم عادت به إلى السوربون، فلقي أستاذ الفلسفة وسمع منه وقال له غير محقق في نفسه شيئاً مما سمع أو مما قال.

وراحا إلى بيتهما وهو يضمر اليأس ويظهره. وهي تظهر الأمل، والله يعلم ما كانت تضمر.

وتكلف صاحبنا أن يشغل نفسه عن التفكير في الامتحان بالتفكير في مناقشة الرسالة التي تم طبعها وقدمت إلى السوربون والتي سيحدد لمناقشتها فيما كان يقدر موعد قريب.

ولم تتحدث إليه صاحبته في أمر هذا الامتحان، وإنما جعلت تتحدث إليه في أشياء كثيرة ليس بينها وبين السوربون وعنائها صلة، ثم تقبل عليه ذات يوم فلا تكلمه ولا تلقي إليه تحيتها وإنما تقبله ثم تهمس في أذنه:

-لقد نجحت!

ولم يصدق الفتى ما سمع حتى أنبأته بأنها عائدة من السوربون حيث أعلنت أسماء الناجحين وفيها أسمه.

وعلم الفتى بعد ذلك أن الأستاذ ريمونجون أستاذ الجغرافيا لم يكن غليظ الطبع ولا قليل الحظ من الذوق، فلم يمنحه الصفر الذي كان يستحقه، وإنما منحه درجتين اثنتين ليعصمه من الإخفاق إن أتيح له النجح في غير الجغرافيا من مواد الامتحان.

وتريد الظروف بعد سنين أن يعقد في مصر مؤتمر للجغرافيا، وأن يكون

هذا الأستاذ من الذين مثلوا وطنهم في هذا المؤتمر، وأن يلقاه صاحبنا في حفلة من حفلات الشاي التي تكثر حول المؤتمرات، فإذا قدم إليه صافحه وأطال النظر إليه وإلى صاحبته ثم قال متضاحكاً: يخيل إليّ اني رأيتك!

قال الفتى مغرقاً في الضحك: نعم رأيتني، وكدت تضيع على درجة الليسانس.

قال الأستاذ: الآن ذكرتك.. ولعلك راض عني لأني لم أعطك الصفر الذي كنت له أهلا!

ولم يضحكا وحدهما، وإنما ضحك معهما من كان حولهما من الناس.

وكذلك خلص الفتى من مشكلات الليسانس وأقبل على الرسالة يتهيأ لمناقشتها مستريح القلب هادئ النفس راضي الضمير، ولكنه لم يلبث أن روع بوفاة الأستاذ دوركيم المشرف الفلسفي على رسالته. وكان الفتى للأستاذ محباً وبه معجباً إعجاباً يوشك أن يبلغ الفتون، فأدركه للخطب فيه حزن عميق. ولكن للحياة حقائقها وتبعاتها. وليس بد لهذه الرسالة من أن تناقش، وليس بد لمناقشتها من فيلسوف متخصص في الاجتماع.

وقد استطاعت السوربون أن تندب لمناقشة الفتى في رسالته أستاذاً من أساتذتها كان من تلاميذ الأستاذ الفقيد. وهو الأستاذ بوجليه. وكذلك تم الاستعداد للمناقشة، ولكن الدكتوراه الجامعية في فرنسا لا يكفي فيها أن تقدم الرسالة وان تناقش، بل يجب أن يناقش الطالب قبل ذلك في موضوعين يختاران له قبل اليوم الموعود ليتهيأ للخوض فيهما.

ويتصل الفتى بأساتذته الذين سيمتحنونه ليعرف منهم هذين السؤالين. فأما الأستاذ المستشرق فلم يقترح شيئاً واكتفى برسالة الطالب عن ابن خلدون. وأما الأستاذ الفيلسوف فاقترح على الفتى موضوعاً رآه في أول الأمر عسيراً أشد العسر، ثم لم يلبث أن رآه يسيراً كل اليسر بعد أن عرف الموضوع

الثاني الذي اقترحه أستاذ التاريخ، اقترح الأستاذ الفيلسوف: 'علم الاجتماع كما يتصوره أجوست كونت'، واقترح أستاذ التاريخ - وكان من مؤرخي الرومان وهو الأستاذ جوستوف بلوك - 'القضايا التي رفعت على حكام الأقاليم كما يصورها بلينوس الشاب في رسائله'.

وقال الأستاذ وهو يلقي هذا الموضوع إلى الفتى: وأريد أن أناقشك في النصوص فلا تكتف بفهم التاريخ.

في ذلك اليوم عاد الفتى إلى أهله يرعد من الخوف والسخط جميعاً، كان يظن أنه قد فرغ من اللغة اللاتينية وعنائها، وإذا أستاذ التاريخ ذاك يرده إليها ويفرض عليه أن يدرس طائفة من رسائل ذلك الكتاب اللاتيني القديم.

وأقبل الفتى على رسائل ذلك الكاتب فقرأها كلها مترجمة إلى الفرنسية أولاً، واستخرج منها الرسائل التي تمسّ موضوعه فعاد إليها يدرسها في نصوصها اللاتينية درساً دقيقاً عميقاً لأنه كان يعرف الأستاذ ويعلم أنه لا يحب المزاح ولا يكتفي بالقليل.

ولم يرتعد الفتى في امتحان قط إلا في هذا الامتحان حين أخذ الأستاذ يناقشه في هذه الرسائل، ونسي حكام الأقاليم وقضاياهم، ولم يحفل إلا بالنص اللاتيني من حيث هو نص أدبي يجب فهمه أولا وذوقه ثانياً وتحليله ونقده بعد ذلك.

ولولا فضل من شجاعة واستحياء من الرفاق ومن زوجه التي كانت تشهد الامتحان ومن سائر النظارة لا صطكت أسنانه ذعراً وهلعاً. ولكه ثبت للخطب على كل حال، وإن رأى الأساتذة والنظارة أن فرائصه كانت ترتعد، وأنه كان شديد الاضطراب، وثابت نفسه إليه حين سكت عنه أستاذ التاريخ وأخذ أستاذ الفلسفة في مناقشته وجرت ريح الامتحان له رخاء حتى رفعت الجلسة.

وخلت اللجنة للمداولة وعادت بعد للحظات فأعلن إليه رئيسه وهو أستاذ

التاريخ، أن الكلية ترشحه لدرجة الدكتوراه مع مرتبة الشرف الممتازة ومع تهنئة اللجنة.

ولأول مرة سمع الفتى تصفيق النظارة من الفرنسيين لشخصه المتضائل الضعيف. وعاد إلى أهله جذلان فرحاً، وظن أن قد حطت عنه أثقال الدراسة، وأن ما بقي له منها لن يكون شيئاً ذا بال.

ولكن الأيام كشفت له عن أنه كان مغالياً في تفاؤله بل مسرفاً في الغلو، فقد بقي عليه أن يظفر بدبلوم الدراسات العليا، وأراد حظه أن يعدّ رسالة لهذا الدبلوم بإشراف أستاذ التاريخ ذلك الذي أرهقه من أمره عسراً.

Damascus University

تدريبات

١- لطه حسين كتابات أخرى في غير فن السيرة الذاتية، ولا سيما كتاباته الأدبية والنقدية. هل تتوقع خلافاً في الأسلوب بين هذه الفنون؟ وما طبيعة هذا الخلاف؟ أو ما سبب التوافق؟

٢-ما مدى صلة المتخير من نصوص 'الأيام' بالتدوين التاريخي، وما مدى الصلة بالتعبير الأدبي؟

٣-كيف تنظر إلى فن السيرة الذاتية بين الصدق الواقعي، وبين النزوع الفني والغاية الجمالية؟.

٤-اكتب نصاً أدبياً يمثل قسماً متخيراً من سيرتك الذاتية في مرحلة من مراحل عمرك توفق فيه بين النزعة التاريخية والنزعة الأدبية، وبين الصدق والواقعية والخيال والافتنان.

Damascus University

فن الرواية

الرواية صارت اليوم من أرقى الأجناس الأدبية، وهي في الوقت الحاضر تزاحم الشعر، وتحتل مواقعه في ساحات عديدة، وقد تطورت، وتطور نقدها تطوراً مذهلاً، واشتغل النقاد المعاصرون اشتغالاً كبيراً بالسرد، وبفنون الخطاب الروائي.

والرواية من فنون الأدب الحديثة فهي متأخرة في الظهور عن الشعر والملاحم والمسرح، على الرغم من محاولة بعض النقاد عقد أواصر المشابهة بينها وبين بعض الأجناس الأدبية التراثية ذات الصلة. وفي أدبنا العربي القديم على سبيل المثال، تغدو هذه المشابهة والمقارنة في مكانها ولا سيما إذا أخذنا بالحسبان ما كتبه ابن المقفع والجاحظ والتوحيدي وابن طفيل والمعري من قصص واقعية ومتخيلة.

وعلى أية حال فرواية اليوم متطورة فيها كثير من الافتنان في الموضوعات والشخصيات وأنماط السرد وبناه، وهي بهذه المعايير فن جديد وافد أتى إلينا من خارج السياق الثقافي العربي عن طريق التأثر في أوائل القرن الماضي، ولم تظهر في بلادنا إلاّ بعد تخلخل الرؤية التقليدية العربية للمجتمعات بدخول نمط الرؤية الغربية الحديثة، وهي فن يحتفي أساساً بالحياة اليومية ووقائعها، ويستعمل اللغة اليومية، فعلاقة الرواية بالواقع ولغته وهمومه هي أحد جوانب خصوصية الفن الروائي.

وهناك خلاف في الاتفاق على أول نص عربي من هذا الفن، فبعض النقاد يرى أن 'حديث عيسى بن هشام' لمحمد المويلحي الذي ظهر سنة ١٩٠٢ هو أول

نص قصصي عربي منطلقاً من أن فن المقامة العربية الذي ظهر في القرن الرابع الهجري هو أول نص قصصي عربي . وبعضهم يرى أن رواية 'زينب' لمحمد حسين هيكل التي ظهرت سنة ١٩١٤ هي أول نص روائي عربي، وقد آثر مؤلفها أن يكتم اسمه عن القرّاء مستعيضاً عنه بتسمية عامة ذات إيحاء وطني وهي 'مصري فلاح'. على الرغم من أن آخرين يعودون بتاريخ هذا الفن إلى نص 'تخليص الإبريز' الذي كتبه رفاعة الطهطاوي سنة ١٨٣٤ حيث سطع فيه أثر الاتصال بالثقافة الأوربية.

والنصوص الثلاثة التالية المتميزة من ما كتبه روائيون ثلاثة كبار مبرزون تمثّل نضوج الفن الروائي العربي في المغرب والمشرق في النصف الثاني من القرن الماضي، وقد تجلت في هذه النصوص بيئة البحر، وبيئة الصحراء، والصلة بين الريف والمدينة.

رواية: الياطر

حنا مينة[1]

أنا زكريا المرسنلي، لست راضياً عما حدث، واقسم على ذلك. ما كنت أريد أن يقتل ابني، فؤاد المرسنلي، الصياد حسن الجربيدي، ولكنه قتله. كنت عند وقوع الحادث، في ميناء الزجاج، نشر خيط التلويح معي. كانت الانتياسة[2] كبيرة قوية، وأنا بيد واحدة. اليد الأخرى بترها من الرسغ، إصبع ديناميت. وكانت الانتياسة مشاكسة، كامرأة حرون، تريد أن تمتلكها بالقوة، فصحت بها: يا عاهرة! مضى الزمن الذي كنت أصلح فيه للهراش.. لا تأخذي وتعطي كثيراً.. لم أعد شاباً يا حياتي، ولكني على كفاية من قوة. لا تصدقي ما يقال، ذكريا المرسنلي هو زكريا المرسنلي. قصة القصبة كاذبة لفقها الذين تحديتهم بيد واحدة. أولاد الكلب، هؤلاء أعرفهم، ولإغاظتهم راهنتهم. قلت لهم: لا تشمتوا بي، حتى ولو قطعت يدي الأخرى أظل أنا أنا، صيادكم وتاج رأسكم جميعاً. اربطوا يدي لتروا. وقد ربطوا يدي الباقية إلى ظهري، ومع ذلك ألقيت

---

[1] ولد حنا سليم مينة عام ١٩٢٤ على الساحل السوري لأسرة أصلها من بلدة السويدية في لواء اسكندرون، وقد تشردت الأسرة خلال الحرب العالمية الأولى وبعدها، بين مرسين حيث عمل الوالد حمالاً في تفريغ البواخر، وبين اسكندرون واللاذقية والسويدية، واستقرت فترة في أسكندرون حيث أتم حنا مينة تعليمه الابتدائي عام ١٩٣٦، وعمل في الميناء كسائر الأحداث الفقراء، وبعد اغتصاب اللواء هاجرت العائلة إلى اللاذقية عام ١٩٣٩ حيث عمل حنا فيها أعمالاً مختلفة، وامتهن الحلاقة حتى عام ١٩٤٧، فغادر بعدها إلى دمشق ليعمل في الصحافة، ويبدأ حياته الأدبية، إذ سطع نجمه عند تأسيس رابطة الكتاب السوريين التي كانت نواة اتحاد الكتاب العرب. وفي عام ١٩٥٤ انطلق في الحياة الأدبية حيث خرج إليها بروايته ذائعة الصيت المصابيح الزرق وكانت روايته الشراع والعاصفة عام ١٩٦٦، محركة حمالياً ومعرفياً لنشاط فن الرواية العربية وذاع صيت بطلها الغطروسي، كبطل روايته الياطر: زكريا المرسنلي، وتتابعت أعماله الروائية، ومقالاته وخواطره في الصحف، وفي عام ٢٠٠٢ منحه الرئيس بشار الأسد وسام الاستحقاق السوري من الدرجة الممتازة في مرسوم جمهوري إضافة إلى الأديب زكريا تامر، والدكتور عبد الكريم اليافي.

[2] - انثنى سمك الانتياس.

الديناميت.. أشعلته بأسناني وأمسكته بين إبهام وسبابة قدمي وقذفته على رف من الشيلان[1] فانفجر وأخرج أحشاء البحر إلى السطح، وبينما كانت المياه تغمر وجهي ورأسي، ضحكت كأن إنساناً يضع أصابعه في خاصرتي. قهقهت ساخراً، وشتمتهم، وبصقت نكاية، ثم أدرت ظهري للسمك الكثير العائم، تركته لهم، للمجزة، للذين يؤجرون أقفيتهم، وشربت زجاجة كاملة على الصخرة، وعليها نمت إلى الصبح، وليس علي سوى قميص من شيت، وسروال قصير، كمه واسع كتنورة، ولبادة على رأسي، فوق الشعر المصمغ بالملح وزنخ السمك.

أنا غير راض عما حدث اليوم، وما كنت أريد أن يقتل ابني حسن الجربيدي، ولكنه قتله، ولست قادراً على أحيائه، ولا على الحزن عليه، فالحزن ليس شغلتي، ولم يمنحني الله قلب امرأة. وحين جاؤوا إلي وقالوا: ابنك قتل حسن الجربيدي سمعت ولم أسمع. كانت عاهرتي[2] تنج بأكثر مما تحتاج لإهاجتي. أنثى! لو كانت ذكرا لنتربت بقوة، ولكنت أعطيتها وشكمتها. كنت مع الذكر احسم الموقف بسرعة ولكنها أنثى، انتياستي أنثى، وهذه في الماء أو على الفراش، واحدة من كثيرات وسترى... لن تفلتي من قبضتي، أنا العجوز زكريا المرسلي. تملكتني رغبة مجنونة في استعادة مشهد بعينيه، قطعة علي ابني، أنا الذي جاء به، في ساعة نحس، إلى هذا العالم. كنت يومها عاريا، مع امرأة علي فراش واحد. كنت في حال من الانسجام كما أنا معك يا انتياستي، وبمقدار غنج المرأة كانت نشوة ملعونة تدب في جسمي وتهيجني. وفي هذه اللحظة سمعت جسماً يسقط. في صحن الدار. خبطة قوية من أعلى جدار الحوش وإذا ابني في الداخل. قفز وهو يعلم أني هناك، اقتحم علينا الغرفة بدون خجل. لم يخجل منها ولا من عريي أنا أباه. صحت به اخجل يا ابن

---

[1]- الكبير من سمك البوري

[2]- يقصد المسكة

الكلب' فلم يتحرك.. راح ينظر إلينا بعينين فاجرتين ولسان مدلوق كالكلب في الحر. كان، قسماً، جروا مريضاً، مخيفاً، وقد اضطربت، أمام وقاحته، إلى شد الغطاء على جسمي، فانتهزت المرأة ارتدادي عنها، وتملصت مني وهربت. قفزت أنا من السرير ووقفت قبالته. رفعت يدي وصفعته. آه لو كانت معي سكين، لكنه لم يتحرك. النذل لم يتحرك، قال لي: 'البس ثيابك واذهب إلى زوجتك'. السافل قال زوجتك ولم يقل أمي. حسنا، كان التيس مستعداً للعراك... من أجل تلك المرأة ولأن، ابني صدق حكاية القصبة، أو لأني كنت اهارش انتياستي، وأحس، في مجاذبة الخيط بيني وبينها، بدفقات من اللذة التي تأسرني، لم اكترث بما قالوه لي عن مقتل ذلك 'البندوق'[1] حسن الجربيدي.

وحين لجوا علي في خبره زعقت بهم نزقا: 'إلى جهنم، ألا ترون الخيط، الآن، في يدي؟ غوروا، يا أولاد الكلاب،أنا ليس لي ابن. الكلب ليس ابني' قلتها وثنيت رجلي فربطت الخيط بإبهامها، ولففت سيكارة وأشعلتها، ثم عدت إلى الانتياسة أحاورها: 'أنت يا حلوتي، كفاك تقلبا ورهزا، أعطيتك حتى رضيت، تعالي إذن، أخرجي كوني لطيفة معي، دعيني آخذك وأمض' فشكمتها كما ينبغي بحركة فاصلة فتخبطت واستسلمت، وجاءت مع الصنارة إلى البر. كانت كبيرة سمينة، براقة، علقتها بعصاي على كتفي، وعدت متمهلا إلى المدينة، غير مبال بشيء، فبعتها ودخلت الخمارة.

في الطريق سمعت قصة ابني على أفواه الناس، قال السماكة: 'سيشنقونه يا زكريا' فأجبتهم: 'ليفعلوا' لم اصغ إلى هذرهم. سأسمع القصة منه، ذات يوم، حين أزوره في السجن، بعد أن يصفو قلبي عليه.. أنا لست مستعجلا

---

[1] - ابن الحرام

لرؤيته، ولست فخورا بهذا الجرو الذي أهداني، أنا زكريا المرسلني، رابط الحوت في الماء، الراقص على ظهره في الماء الذي تحدثت اسكندرونة كلها عن فعلته، ونشرت جريدة 'اللواء' صورته مع الحوت.

لقد جاؤوا من بيروت لشرائه، وأعطوني خمس ليرات لأنظف لهم أحشاءه. قلت لرئيس البلدية: 'يا سيدي لا تبعهم الحوت.. أدفنه على هذا الساحل أو انتفع بها' فقال: 'بيعه أفضل.. إذا أنتن جلب الوباء إلى المدينة، ونحن لا نستطيع الانتفاع به، فليس لدينا صناعة زيوت، ولا مناشير لنشر العظام' رفض أن نمنحه إلى أرمني يصنع الأمشاط.. لو فعل لحصلنا على كمية منها تكفي لنسل القمل والصئبان من رؤوس الناس مئة سنة، ولكن رئيس البلدية، المرؤوس بدوره للمستشار، أعطاه لتجار بيروت، وهؤلاء كانوا سماسرة لتجار فرنسيين.. فنقل، حوتي المسكين، إلى فرنسا في البحر، في نفس الطريق التي جاء منها، ولكنه في العودة كان جثة في براد. وقد زعم الأرمني الأعرج، أنهم أعادوه إلينا في معلبات باهظة الثمن، وإن عظامه تحولت إلى تماثيل، وأنها ثروة ضاعت علينا، ولكن أحد لم يصدق الأرمني الأعرج.. رئيس البلدية أمر، وفي ذلك الوقت كان الناس كحمير النواعير، ينفذون الأوامر وأيديهم على رؤوسهم، لكني أنا، زكريا المرسلني، رفضت تنظيف جوف ذلك الحوت بخمس ليرات، فأضافوا إليها نصف ليرة أخرى، و 'دمجانة' عرق، وهذا يكفي، رفعت الدمجانة إلى فمي وأغمضت عيني: كر.. كر.. كر.. سحبت بعد ذلك خنجري، ومزقت الخاصرة. فتحت فيها ثغرة، ومددت يدي أسحب الأمعاء، مزقا مزقا. قال التجار، بعد أن تحدثوا بالفرنسية مع رجل أشقر: 'هذا لا يكفي، افتح جوف الحوت وافرغه كله، نريد أن نحشوه قشا وملحا'.. وكان الليل قد هبط، فجمعنا على الشاطئ كثيرا من الأخشاب وأضرمنا النار، وشويت على الجمر قطعاً من الأحشاء، أكلت الكبد نيئاً، وبيدي (وكانت سليمة بعد) أخذت دمجانة العرق

وذهبت إلى الحوت فسكبت منها في فمه، قلت للسمكة: اسمعني، أنا لم أكن عدوك قبل أن تأتي إلى ديارنا .. ونحن لم نطلبك، ولا أرسلنا لك مكتوباً، لكن الشيطان الأزرق[1] جاء بك.. كان هو بسفينته، كنت أنت أثرت الاضطراب في جوّنا الهادئ.. لم تتركي فيه شيئا لنا. طاردت أسماكه حتى الأرصفة، وباندفاعات عمياء، حطمت رأسك على صخوره، وعندما فقدت وعيك هاجمت الساحل كله. قلبت بعض الفلائك، وافترست بحارا ضعيفا فقيرا. حسبت إلا خوف عليك، وأنك قوية، وقادرة على النجاة دون حساب أو عقاب. وها أنت، كالضبعة المطعونة، ترفعين قوائمك إلى أعلى.

لقد كنت هناك، أنا، على صخرة عالية، في الطرف الآخر من الميناء. رأيت كل شيء، وسمعت كل شيء. هممت بترك السمكة العالقة بصنارتي، لكنها كانت ترهز. وعبر الخيط، كان رهزها ينسرب إلى نخاعي وظهري. كنت كحالي ظهر اليوم، أواصل حلوتي، ولم أكن أبدل ذلك بأي مغنم يأتيني. تعلمت من تجاربي إلا أفوت لحظتي، إلا أدع صيدتي تطير مني. وحين أخرجت السمكة، كانت الميناء قد ازدحمت بالناس، بالوطاويط، وهم يركضون، من طرف إلى طرف، دون أن يجرؤوا على الدنو من سمكة الحوت. كانت جبارة وبعزم الجبار ترفع ذيلها وتضرب وجه البحر فتنثر الماء، فعل حجر من ألف طن ألقي فيه. كانت تبحث عن منفذ في الجون الذي سدت منافذه في وجهها. أسد في قفص حديدي. أسد في الماء، في قفص مائي، قضبانه صخور. والأسد يروض. يتعلم أن يروض. يتعلم أن يزمجر في فراغ، ويدور في المشبك الحديدي دون ان يحاول قضمه. يدور، يدور ويتعب، ويقع في الزاوية، كأي كلب حبيس. إذ ذاك تتهدل لبدته، ويسترخي ذنبه، نزولا على حكم الواقع. أنا رأيت أسد على هذه الحال، وتوقعت أن يضرب رأسه في الحديد، يموت أم

---

[1] – قبطان السفينة

يلويه ويخرج، ولكنه لم يفعل، وعندئذ تفقت عليه، فنظر إلي معاتباً. ابتعدت مسرعا، نادما على فعلتي ومغتاظا منه لأنه لا يعرف أن يموت أو يموت أو يتحرر. والحوت، أسد الماء، لم يكن قد تروض بعد، لذلك عزم على تحطيم قفصه الصخري أو يموت، وقد مات. أنا غير أسف عليك أيها الحوت بسبب أفعالك في جوننا، ولما وصلت وأنت تتطح الصخر، والناس يخافون الاقتراب منك تلبستني روح المشاكسة. قلت في نفسي: 'ليتدبر أولاد الكلب أمرهم' ورحت أراقبك يا سمكتي وأنت، الضخمة كقطار طويل، الهرمة كتيس التركمان، قد أعمى الحقد بصرك، فاندفعت في هجمات انتحارية، على ساحل، وربصت على الرمل.. لم يعد الماء يحملك، وذنبك الذي يضرب كمخباط وجه البحر، فيشقه كعصا موسى، كان دفة خائبة، لا قدرة لها على تحريك هيكلك وتدويره. وجاء الأوغاد فافرغوا الرصاص في رأسك من بعيد، لكنهم هابوك فلم يجرؤوا على الاقتراب منك، وكنت أنا قد وصلت خائبا مثلك، فقلت 'هذه هي سمكتك الكبيرة التي تحلم بها يا زكريا، انزل إليها.. اربطها وأخرجها'.

نزلت صفق الناس.. حركت أنت ذنبك وخبطت الماء، فانقلبت الفلوكة، وتعالت الصيحات والضحكات على الساحل. ذقت مرارة الفشل، والخوف، ولكني تجلدت، وبحثت عن نقطة الضعف فيك حتى اكتشفتها وانتصرت.. كان وسطك، لا رأسك ولا ذنبك، هو المأمن، وغطست باتجاهه، وخرجت من الطرف الثاني، وهلل الناس، وتحركت أنت.. ولكنني شاب وأنت عجوز، عشت عمرك وانتهى الأمر.. كان لا بد من فنائك، من نهايتك، وقد عجلت لك بها، وناديتهم: 'هاتوا الحبال' وربطتها حول خصري، وغطست، وانتصرت حتى ارتفع ذنبك مع الماء ونزلت تحته، وسحبت الحبل معي.. وخرجت مرفوع اليدين: لقد ربطتك. صفق الناس، وصاحوا: 'ابتعد يا زكريا، ابتعد' لماذا؟

أسكرني النصر فصعدت إلى ظهرك.. وزاد التصفيق، وزادت حماستي. قفزت مرة أخرى إلى الماء.. صار الموت سهلا، ولم أعد أبالي. وربطت طرف الحبل بعقدة السلك الحديدي الثخين، وشددناه إلى زورق وسحبناه ودخل السلك تحتك، وأوثقناك بحلقة حديدية، وجئنا بشاحنة وقفت على الساحل وسحبت، لكن دواليبها دارت في فراغ، كنت جبارة فضاعفوا الشاحنات، وبدأ هيكلك العظيم يبرز، وفقدت، يا ملكة الماء، صرت في مملكتنا: الأرض، واستسلمت، بعد صراع، إلى نهايتك. توقف ذنبك عن الحركة: أنه الموت. هجم الناس.. الأوغاد هجموا، الآن هجموا، ورفسك واحد منهم بنعله، وأدرت أنا وجهي كيلا أرى. هجموا، الآن هجموا، ورفسك واحد منهم بنعله، وأدرت أنا وجهي كيلا أرى. هرولت إلى أقرب خمارة فشربت سطلا كاملا.. ورفض الخمار أن يأخذ ثمنه، قال: ' على حب الرجال' وقلت في سري: 'أخس.. ليس ثمة رجال، كلهم نساء، كلهم نساء..' أتسمعين يا عزيزتي؟ ليسوا رجالا هؤلاء.. قد يصبحون كذلك، وقد ينجبون رجالا، ولكنهم الآن، نساء، أقسم لك بشرفي، أنهم نساء، كأسك.. أشربي قليلا، قليلا أيضاً، واعذريني، لسوف أبقر بطنك. وأنا آسف.. أنت لا تحسين بما أفعل الآن.. بعد الموت لا يحس الجسد.. وأنا لا أحترم الموت في الجسد، سيان، ليقطعوني، أنا زكريا المرسلي، ألف قطعة بعد موتي، وفقط ليحترموني في حياتي، لتكن حياتي جميلة، مثل ليلة صافية' . قال التجار: 'عجل يا زكريا، عجل، ماذا تنتظر؟ سكرت؟ تتحدث إلى سمكة؟ مجنون أنت؟' لا يا سادتي،لست مجنوناً، ولذلك اسكر. أنتم خنازير، وأنا مثلكم، قد أذبح جملا، أمزقه، استخرج أحشاءه، دون شفقة أو ندم، ولكن سمكتي هذه، تعذرونني، لا تتعجلوا علي، لا تحرموني مرآها بسرعة، اذهبوا إلى النار، يا أولاد الإبرة. عدت إلى دمجانتي فرفعتها إلى فمي. وصل الشجعان، الصيادون الحقيقيون، الرجال الذين كانوا يصارعون البحر، وصلوا، فقلت لهم: 'لنشرب

يا أخوتي، على اسم الله، ولناكل من صيدنا حلالا زلالاً.

سحبت خنجري وأغمدته في خاصرة السمكة من جديد.. لم يكن بإمكاننا أن نقلبها ولا سبيل إلى تفريغها إلا من خاصرتها، وهناك لعبت بخنجري. صارت الثغرة طاقة، وأدخلت يدي.. عبثا، لا بد من كسر الضلع.. إلي ببلطة صحت، وضربت.. كنت قوياً كثور المصارعة وضربتي لا طبيب لها، ولكن عظم السمك. هل تعرفون عظم السمك؟ وهل تعرفونني؟ هذا لا يهم. لست شيئاً يذكر على كل حال، وفي المدينة لا يأبهون لي، أما على الشاطئ فالمسألة تختلف. أنا رب الشاطئ، أقول لكم أنا رب الشاطئ، وهذه السمة تشهد لي، وفي كل الأحوال لن أطلب شهادتها، ولا يعنيني ما يقال عني وما لا يقال. حافيا أمشي. الحذاء لا يدخل في قدمي ولم تعتادا عليه. وحين أسير حافيا، مفتوح الصدر، معصوب الجبين،وراء أذني عرق حبق؛ وفي جيبي ثمن سكرة، عندئذ لا أسال عن الوالي. لقد عرضتم علي تفريغ السمكة، وأنا قبلت والسمكة لا تقبل، والبلطة تصيب عظمها وترتد، تتأبى علي، هي أيضاً لا تعرفني.

كان علي أن أكسر الضلع. وأمام عناد السمكة استيقظ عنادي، وفي داخلي فارت عصبية مدمرة. السمكة التي كنت الاطفها واسقيها لم تعد سمكة، لم تعد جسما هامدة يستدعي الشفقة. صارت، امرأة أخرى، خصما كريها، امرأة عصية، أما أن تعطيني نفسها وأما أن أحطم رأسي لأ نالها.

كانت فتحة الخاصرة قد اتسعت، فأدخلت رأسي فيها وأخرجته بغير فائدة. العرق يتصبب من جسدي المقهورة، والدم يلطخ شعري ووجهي وصدري، وقدماي الحافيتان تغوصان في الرمل البارد، فوق الحسك ونثار العظام، وغضب يلهب دماغي. قذفت البلطة بعيدا، وبغير كلام ركضت شبه عار إلى الخمارة.. لقد تبخرت دمجانة العرق ورشحتها مسامي.. ولكي أدفئ نفسي

طلبت نبيذا، وضعت الليرات كلها على الطاولة وقلت للخمار:

- نبيذ يا زخريادس!

قال زخريادس:

- النبيذ كثير يا مرسنلي، ولكن لا أبيعه بالليرات.

- وبماذا تبيعه؟

- ببطرخ السمكة، أنت أحضر لي ما في جوفها.. وأنا أسقيك قدر ما تريد.

- وإذا شربت كل ما في خمارتك؟

- اشربه..

- كلمة شرف..؟

- نعم..

- اتفقنا أذن، لسوف آتيك بكل ما في جوف السمكة.. اشهدوا يا ناس.. كل ما في جوفها، حتى القلب..

تناولت إبريقا زجاجيا كبيرا أرجوانيا فأعدته فارغا.

- أملأ يا زخريادس.

- حاضر يا مرسنلي.

- أملأ.

- حاضر..

- املأ مرة ثالثة.

صاح البحارة:

- يكفي، لسوف تصرعك الريح.. هذا نبيذ وليس ماء.

قال زخريادس:

- اتركوه.. هذا البرميل كله له..

كان يضحك من تحت شاربه الأشيب المعقوف، الناصل الخضاب، ومن عينيه الصغيرتين يطفح فرح وعزم.

قدرت أنه سيسقيني نبيذه كله لو أردت. السمكة اللعينة، والنار على الشاطئ وضجيج الناس.. أنه عرس حقيقي.. المرقع الكبير كما في بلاد اليونان.

وخطر لي، أنا زكريا المرسلي، أن أرقص.. كانت الفرحة طاغية، وقالت امرأة لامرأة:

- هذا الذي ربط السمكة..

قلت في سري:

- لعينيك وعيني السمكة.. مري.. أنت، يا نسل حواء اللعين!

صحت بزخريادس:

- أعطيني هذا البرميل والحقني بما لديك من سلال فارغة.

حملته وركضت عائداً إلى حوتي، وقلت للبحارة: أشعلوا النار.. أشعلوا يا أخوتي محبة بالله.. واشربوا.. هذا البرميل لكم.. وما في جوف السمكة لزخريادس.

هتف البحارة لزخريادس. هتفوا وشربوا، وملأت زجاجة وأقسمت أن اشربها داخل السمكة؛ وأمسكت بلطتي وجئتها من خاصرتها الثانية ورحت أضرب.. تناثر اللحم على وجهي وصدري، ولهثت من السكر والتعب، لكني أحدثت فيها فتحة جيدة. تناولت خنجري وشرعت بتجويفيها، وعندئذ وقعت المفاجأة..

ابني، الذي قتل اليوم حسن الجربيدي، لا يصدق كلامي.. البندوق لا يصدق أباه.. وأقول له آنا، أنا الذي اصطاد الحوت، يا نغل! ويجيبني: أنت أجهزت عليه.. كان جانحاً فربطته، وميتا فبقرت بطنه، أنت مدع عاجز، قهرتك

الانتياسة، فأخذت منك القصبة.. تفو يا وغد، يا من، في تلك، الليلة ليلة اصطياد الحوت، قذفت بك في رحم أمك.. جئتها تلك الليلة مخمورا، مع طلوع الفجر، في عربة نقل استأجرها لي زخريادس. كنت قذرا كجاموس تمرغ في وحل، داميا كقصاب لف نفسه بجلود ذبائحه.. وصاحت أمك وأنا أكشف عنها الغطاء:

- أذهب، اذهب واغتسل.. لا تقترب مني.. لا تقترب يا شيطان!

ولكني اقتربت.. لو مانعت لقتلتها.. في الصباح كانت أذنها مقروضة، والوسادة مبعوجة، وفمي مليئا بالريش، والفراش ملطخا.. وكنت أنت، يا عاهر، في رحم أمك.. لقد زرعك دون وعي، في هياج أقرب إلى الجنون.. وحشاً كنت ومخموراً، وكان الله في عون أمك المسكينة. لقد تزوجت حوتا وولدت درفيلا، وبالحديد المحمي كتب على جبينها أن تشقى معنا نحن الاثنين.

نمت إلى المساء.. كنت أشخر كمذبوح نصف ذبحة. أمك قالت هذا، وقالت أنني نهضت في المساء.. وخرجت بنفس قذارتي ودون كلمة، إلى الملعون زخريادس. أمك لا تحب الخمارات، ولكن بنفس قذارتي ودون كلمة، إلى الملعون زخريادس. أمك لا تحب الخمارات، ولكن أية دنيا كانت هذه، ابنة الإبرة، لو لم يكن فيها خمارات!؟ يا ليكن! يا ربي الرحيم، أدعوك، أنا زكريا الخاطئ؛ ليكن فيها خمارات!؟ يا ألهي! يا ربي الرحيم، أدعوك، أنا زكريا الخاطئ، فاستجب دعائي: "ادخل جميع الخمارين إلى الجنة، وأدخلني إلى جهنم، كفارة عنهم آمين."

صاح زخريادس وهو يراني:

- أوه.. أوه.. ألم تمت بعد؟

قلت وأنا أبحث في جيوبي مستعجلاً:

- أعطيني خمرا... ألحقني.

لم يكن في جيوبي شيء. ضاعت نقودي، سرقوها حين تعريت ودخلت السمكة. أقسم أنهم ، رقوها، أولاد الكلاب فعلوها معي. أنا واثق من ذلك. امك لا تمد يدها إلى جيبي. صالحة لا تفعل هذا، لا تحتاج إليه، هي الداية التي تولد نصف نساء المدينة، والتي ليس لها ولد، فأنت يا نغل، جئت متأخراً، حملت بك في الثلاثين، وكنت أنا أكبرها بعشر سنوات، ومن يراها يظنها أمي. كانت معذبة، أسكر وأضربها، وقد حدثتك بكل هذا، وأوغرت صدرك بي، لهذا انت لا تحبني... ولهذا صدقت حكاية الانتياسة التي أخذت قصبتي.. تفو يا نسل الشيطان!

أعطاني زخريادس خمراً بدون نقود.

- في صحتك يا صاحبي، يا من أدعو له بدخول الجنة.

قال زخريادس:

- أشرب بدون دعاء.. أنا لا أومن بدخول الجنة.

أهانني ابن الكلاب. وحق السماء، أهانني. ليس معي نقود وهو لا يؤمن بالجنة، فكيف أسدده ؟

- يا زخريادس.. يجب أن تؤمن بالجنة.

- لا يا حبيبي!

رفض العتريس أن يؤمن، فصحت به مغضباً:

- تؤمن أو أضربك بهذه الزجاجة؟

- ولماذا يا مرسلي؟

- لأنه يجب أن تؤمن حتى أدعو لك.

- أنا لا أريد أن تدعو لي..

- لا بد أن تريد..

- بالقوة..؟

- نعم، حتى يصير معي نقود، وعندئذ أنت حر.

- في صحتك أذن.

- لا تشرب، قف.. يا رب، يا رحمن يا رحيم، أدخل زخريادس الجنة، بدعائي هذا الذي يسمعه حتى لا تبقى منتّه علي.. والآن في صحتك.

شرب وشربت قال:

- أنت يا مرسنلي، يا حبيبي، معك فلوس؟

- أنا!؟ سألته مدهوشا.

سحب من درجه ليرتين وقال:

- أيوه، هذه لك، واشرب على حسابي حتى تسكر.

- أنا لا أفهمك يازخريادس.. ولن أدعو لك بالخير. أنا لا أدعو مقابل فلوس، فهمت؟ الدعاء مقابل الخمر، لا أريد جهنم مقابل فلوس، لا تحاول رشوتي.

- اشرب أنت يا مرسنلي.. هذا تعبك.. أمس اشتغلت... من السمكة الكبيرة طلع سمك كثير..

- حسنا! شربت حتى سكرت، وقال لي الصيادون فيما بعد:

- أنت مجنون يا زكريا.. أعطيت زخريادس كل ما في جوف الحوت..

- وماذا في جوف الحوت يا أخوتي؟

- أشياء كثيرة!

- السمك؟ البطرخ؟ الأمعاء؟

- لا.. هذا كله لا قيمة له.. كان في جوفه ذهب وماس..

- ذهب وماس؟

- وخواتم، وأساور وعقود..

- حذرتهم:

- إياكم، إياكم، لا تتلاعبوا بي.. لا تخدعوني، من أين للحوت الذهب والماس والخواتم والعقود؟

- قال عجوز فيهم:

- الحوت، يا زكريا، يقطع المحيطات.. يتبع البواخر، يهاجم الأحياء، يأكل الغرقى، وتأمل.. الذين يسافرون، غالبا من الأثرياء.. والذهب في جيوبهم،والحلي في أعناقهم وسواعدهم، ومعدة الحوت لا تطحن المعدن، تفرزه في كيس خاص وعن هذا الكيس كان يبحث زخريادس، فهمت؟ لقد خدعك اللعين، ضحك عليك.

أكد بحار آخر:

- كان سياح على رأس الصقالة في البحر، ومن امرأة فيهم سقطت أسوارة وكنت اصطاد على مقربة.. نادوني فجئت، دفعوا لي ليرة فضة.. وغطست.. أنا أعثر على الإبرة وهي على عمق عشر قامات، ومع ذلك لم أعثر على الأسوارة.. وبعد شهور اصطاد جاري سمكة كبيرة، وفي البيت شقت امرأته السمكة وصاحت: 'يا ألهي! اسوارة'. وأوصاها زوجها: 'اكتمي الخبر، الله ساق لنا رزقنا' ولكن زوجته تكلمت.. كانت ثرثارة.

- هدرت :

- لسان امرأة.. تفو.. وبعد؟

- كانت الأسوارة من الماس..

- من الماس..؟

- وحق الله.. تأمل! سمكة تزن خمسة كيلوات، فيها أسوارة من الماس، فكم في هذا الحوت الذي أعطيت كل ما في جوفه إلى زخريادس مقابل برميل من الخمر؟ غشك.. هذا واضح.. أذهب إليه وطالب بحصتك، لا تحل عنه قبل أن يعطيك.

قلت في نفسي: 'لقد فعلها أذن، هذا الكافر.. طيب يا أخواني، سترون الآن

مضيت إليه، وجاؤوا هم في أثري. أنا لست ضد الخمارين، ولم يحدث أن تعاركت معهم. على العكس أدعو لهم بدخول الجنة، ولكن أن يغشني خمار ابن عاهرة مثل زخريادس؟ الآن فهمت.. لقد غشني حقاً، وإلا لماذا دفع لي الليرتين وسقاني نبيذه؟ يا زخريادس، يا ابن التي كانت تنام على ظهرها من الصباح إلى المساء، أعد لي الذهب والماس، وإلا فاكتب وصيتك! اكتبها وأنت واقف على قدميك!

قال زخريادس:

- أنت يا زكريا مجنون.. ضحكوا عليك.. تعالى انظر.. أحلف لك بالله..
- لا تحلف.. أريد مالي، أريد ذهب والماس.
- لا يوجد يا حبيبي ذهب ولا ماس.. يضحكون عليك.
- علي أنا؟ لا يا زخريادس، أنا ذكريا مر سنلي، ولا أحد يضحك علي.. أعطيني، هذه اللحظة، حصتي. أريدها قبل خروجي من الخمارة، ولا أقبل ليرات فضة أو ورقية، أريد الذهب.. أنا لم أملك يوما ليرة ذهبية، أتسمع؟.. لم أملك يوماً ذهبا ولا ماسا، والآن، بعد أن أعطيتني سمكتي الذهب والماس، تأخذه مني؟ لا.. هذا لا يجوز، أعطيني حصتي، هيا، أين خبأت المال؟

قال رجل من ورائي:

- في كرشه يا زكريا!

للتو بدا لي العنبر الكبير، المواجه، أصغر من كرش زخريادس. خيل إلي أن في وسعه أن يضع الحوت نفسه في كرشه، وأن في وسعي، أنا، أن أشق ذلك الكرش فيتساقط علي منه الذهب والماس.. وكأنما فطن زخريادس إلى ما يجول في خاطري، فاستولى عليه الرعب.. جحظت عيناه، وتراجع إلى الوراء، فاستند بظهره إلى رفوف زجاجات الخمر، ثم هجم، وقد رأى نظراتي تستقر على السكين التي يقطع بها "البسطرمة" يريد أخذها.. هو دلني عليها. أنا لم

افكر فيها حتى دلني عليها. اكتملت في رأسي صورة ما يجب أن أعمل. كرش، وسكين، وذهب وماس! سبقته إلى التقاط سكين البسطرمة، وبضربة طولانية انفتح الكرش. من أعلى إلى اسفل، واندلقت منه الأحشاء.. تفجر الدم، والأمعاء تدلت، زخريادس، بشاربيه الكبيرتين، تهاوى على ركبته ومعه انهارت رفوف الخمر التي تمسك بها.. تكسرت القناني، وانساح الخمر، وصارت الوليمة جاهزة... أولاد الكلاب الذين ورائي، الذين أغروني كانوا على موعد مع الوليمة. اختلطت الأصوات وتشابكت الأيدي، وانفلتوا كجرذان في الخمارة، ولم يهتم أحد بي ولا بزخريادس.. صار الخمر، والبسطرمة والنقانق ودرج النقود، نهبا لهم، والشاطر من شرب وأكل وأخذ أكثر ما يستطيع..

كان زخريادس مكوما وراء الدكة، أسفل الرفوف، وكنت أنا ذاهلا كأن كرشي هو الذي بعج، والخمارة بكل ما فيها، تقتل من حولي: الدكة والرفوف والزجاجات وسكين البسطرمة المدماة.. وكان العراك، بين الناهبين، على أشده، والخمر المتدفق من الدمجانات المرفوعة إلى الأفواه، يصبغ الشعور والوجوه والقمصان، وعلى الصدور جداول منه، والأصوات،والزمجرات الحيوانية، والعراك بالأيدي، والتخاطف بالأكف، كل ذلك كان يجري من حولي، يحيط بي، وكذلك كانت لبادات الرؤوس التي سقطت وديست تحيط بي، وأنا وسط هذا الانفلات الصاخب، مفتوح الفم، لا أدري ما أصنع.

أخيراً واتتني القدرة على الحركة، زعقت وأمسكت بواحد فرفعته وخبطته على الدكة، فتدحرج إلى الداخل وسقط على زخريادس. أنشأت اضرب بيدي، ورجلي، وانطح برأسي، وكل همي أن اشق طريقا لنفسي فأخرج وأتنفس. وحين تم لي ذلك انطلقت بقوة عاصفة أدور أدور بين الأزقة، كأن زخريادس، والناهبين، ورجال الدرك، وأهل المدينة يطاردونني كلهم. حثثت الخطى، بل

ركضت، وخرجت من زقاق يؤدي إلى البحر عبر مستودعات الأخشاب، حتى انتهيت إلى الشاطئ، ورحت أسير إليه، هائما، لا وجهة محددة لي، لا هدف، مثلي يوم كدت اقتل ابني. كنت قادرا أن أسير على امتداد الشاطئ حتى ألف المتوسط كله. تملكتني رغبة في أن أقوم بهذه الرحلة العجيبة. لعنت في سري المدينة والحوت وزخريادس وأولاد الكلب الذين حرضوني عليه. بدا لي، عندئذ، أن الحياة حلوة،هكذا بدون ذهب ولا ماس، بدون بيت ولا زوجة ولا ولد. كل هؤلاء أعداء، على نحو ما، وليس من صديق إلا البحر. هو وحده الذي يقبلني، ويعرف سريرتي، ويقدر ان يغسلني من خطيئتي. تعبت من السير فجلست على صخر بين الأدغال. جاءت الأسماك ترعى تحتي، تمنيت لو تخرج إلى السطح، وتراني، وتتحدث إلي وتقبلني بينها. تساءلت: 'إذا أنا القيت نفسي في البحر، وظللت أسبح وأسبح فأين أصل؟ سأبلغ البر، من الطرف الآخر، وسأجد ناس آخرين، فكيف يكون هؤلاء الناس؟'.

في هذه اللحظات، أكثر وأكبر من كل الأماني، كانت أمنية التحول إلى كلب بحر. شكلي وطبعي يلائمان هذا الحيوان. أنزل في البحر فلا اخرج أبدا.. بلى، أعود مرة واحدة إلى المدينة، إلى خمارة هذا اللعين زخريادس، فأرى ما حل به، ثم اغطس ولا أعوم. أبقى في الأعماق، في كهف بعيد، عميق، لا يصله بشرى سمكة من الأسماك التي تعيش هناك. ترى، لماذا يعيش السمك في الماء ولا يعيش الإنسان؟ السمكة تتنفس من غلصمتيها، فلماذا لا يتنفس الإنسان من أذنيه؟ ولماذا لم أتدرب على التنفس من أذني؟ لو استطعت أن أتنفس كذلك، لعشت هناك، ولم ارجع إلى هذه المدينة الساقطة.

خلعت ثيابي وقفزت إلى الماء.. نزلت مفتح العينين إلى الأعماق.. بقيت

تحت الماء حتى أحتبس نفسي. تضايقت و 'طقت' أذناي فاضطررت إلى الصعود.. كنت جائعاً ولم يعد أمام سوى الاختباء، فقلت أذهب إلى الأمام، وفي الجبل ملاصق للبحر أعيش، الندم! الندم! يا ألهي! أنا الضخم كجاموس، الجاف كزيتونة أحرقها الصقيع، أحسست، وربما لأول مرة في حياتي، بالرغبة في أن أركع وأصلي. كان البحر هادئاً، شفافا، وموجات رقاق، ذات زبد أبيض ناعم كالتخاريم، تتكسر على الشاطئ، وعند الأفق حيث الزرقة الداكنة، جبل أخضر، وعلى الجبل منارة، وقلت في نفسي: 'ما أسعد حارس المنارة! الشيطان، في داخلي، نام. زخريادس الملعون، الذي لا يؤمن بالجنة، قد يعيش في داخله ملاك، أما أنا فهيهات، ولكنني لست بعيدا عن جو الملائكة الآن. ولو رأيت زوجتي لغمرتها بعاطفة أنكرتني معها. كنت قبلتها، من القدم حتى الرأس ووسدتّها ذراعيّ.

الأشجار واغتيال مرزوق

عبد الرحمن منيف[1]

بعد ثلاثة أيام اشتريت حماراً ابيض قوياً. وفي الخرج الذي على ظهره عشرات الحاجات الصغيرة التي يمكن أن تباع في القرى: مرايا، دبابيس، خرز، حناء، مناديل ملونة، أمشاط، خيوط، وتجرأت واشتريت ملابس داخلية رخيصة وبعض قطع القماش، وخمسة أزواج من الأحذية.

وقبل أن أغادر المدينة باتجاه القرى، اشتريت سكراً وشاياً وملحاً ولم أنس أن أشتري ثلاثة صاعات من الشعير للحمار.

لقد كان شراء الحمار أهم شيء في حياتي، حتى أنني خلال فترة طويلة نسيت الأشجار من فرط الفرح وأنا أنتقل من قرية إلى أخرى، أبيع وأشتري، ربحت كثيراً، وندمت لأني لم افعل ذلك من قبل. كما أني أصبحت معروفاً في القرى التي أمر عليها، وقامت بيني وبين الناس علاقات المودة والتفاهم.

---

[1] ولد عبد الرحمن منيف في عام ١٩٣٣ في عمّان، لأب من نجد وأمّ عراقية. أنهى دراسته الثانوية في العاصمة الأردنية. ثم التحق بكلية الحقوق في بغداد عام ١٩٥٢، وبعد عامين من انتقاله إلى العراق طرد بعد توقيع حلف بغداد مع عدد كبير من الطلاب العرب عام ١٩٥٥، فتابع دراسته العليا في جامعة بلغراد وحصل عام ١٩٦١ على الدكتوراه في العلوم الاقتصادية – اقتصاديات النفط- وعمل بعدها في مجال النفط في سورية، وفي عام ١٩٧٣ انتقل ليقيم في بيروت حيث عمل في الصحافة اللبنانية، وبدأ الكتابة الروائية بعمله (الأشجار واغتيال مرزوق) وعاد عام ١٩٧٥ وأقام في العراق وتولى تحرير مجلة النفط والتنمية، وفي عام ١٩٨١ غادر العراق إلى فرنسا، وفي أواخر الثمانينيات عاد إلى دمشق وبقي فيها يكتب، ويحاضر في الأدب وتجربته الذاتية والإبداعية حتى وافته المنية فيها عام ٢٠٠٤. نال جائزة سلطان العويس الثقافية لرواية عام ١٩٨٩، وجائزة القاهرة للإبداع الأدبي عام ١٩٩٨. من أهم أعماله خماسية (مدن الملح)، قصة حب مجوسية، شرق المتوسط، عالم بلا خرائط، بالاشتراك مع جبرا إبراهيم جبرا.. وله مؤلفات أخرى في الاقتصاد والسياسة.

-حتى ذلك الوقت لم تكن تعرف النساء..؟

سألته وابتسامة ماكرة تشعره إني لا أصدقه.

نظر إليّ وهو يهز رأسه، ثم فتح فمه وأمسك شفته السفلى بثلاثة أصابع يريد ان أرى مكان أسنانه المتساقطة.

بدت أسنانه صغيرة متآكلة، وقد علتها طبقة من سواد، ومكان الأنياب فجوة كبيرة تبرز تحتها لثة فقدت لونها الأحمر فأصبحت بلون التراب. ولما اطمأن أني فهمت إشارته، قال:

- فقدت أسناني . كما ترى . ولم يبق لي في هذه الحياة إلا أعوام قليلة ثم أمضي، ومع ذلك فأن السر الوحيد الذي لم أكتشفه أبداً هو المرأة.

- المرأة ليست سراً، الرجل هو الذي يحاول أن يجعلها كذلك، وكأنه يلتذ بلعبة القطة والفار!

- إن كنت تفكر هكذا فأنت لا تعرف شيئاً عن هذه الحياة!

- قلت بلهجة بدت لي كاذبة مصطنعة:

- أنا لا أعرف شيئاً، أحاول أن أتعلم!

قال وقد تغير كل شيء فيه: ملامحه، لهجته، بريق عينيه:

- كثيراً ما تبدو الأشياء بسيطة، وكأن ليس فيها سر . ولكنها تتغير فجأة، فتبدو جديدة تماماً، جديدة حتى لكأنك تراها أول مرة. وسكت لم يرتح لهذه البداية. تاهت عيناه وهما تفيضان، واستغرقته حالة من التفكير أو الذكرى. بدا الصمت قاسياً، وهدير القطار يشق الظلام مثل حيوان مجنون.

قلت وأنا أتظاهر بالموافقة على رأيه:

- لا أدعي أن الحياة خالية من الأسرار، أن ادعاء مثل هذا لا يقوله أحد، ولكن الإنسان ميال بطبيعته لأن يضفي على بعض الأشياء الغموض والقداسة، ويرتاح وهو يكتشفها!

- أنا لا أفهم أشياء كثيرة في هذه الحياة، ومع ذلك تبدو لي أقل غموضاً من المرأة! إن النساء والأشجار لهن طبيعة واحدة.

- كيف؟

سألته وقد اصبح الأمر شيقاً وعابثاً في نفس الوقت، فأجاب بحدة:

- هل رأيت الأشجار تتفجر في نيسان ؟

- رأيت الأشجار في نيسان.

- أسألك أن كنت رأيتها تتفجر، تتمزق باللهب الصاعد من أعماق الأرض؟

- العادة أن يرى الإنسان الأشياء التي يحب !

- هذا هو الفرق بين الإنسان الذي يحب الأشجار، وبين الذي لا يرى فيها سوى أعواد خضراء..

قلت وقد بدت لي مداعبة الكلمات والأفكار مملة:

- ألا تريد أن تحدثني عن المرأة وأسرارها ؟

- عنها أتكلم.

قال ذلك وقد جف وجهه حتى أصبح مثل قطعة الحجر.

- نتحدث عن أشياء تتوهمها، تشتهيها !

- نعم عن أشياء اشتهيها. احبها أكثر من أي شيء في هذه الحياة.

- لن أقاطعك. تكلم كما تشاء. عن هذا السر الذي تحبه وتطارده.

- هل أحببت يوماً ؟ وقد أكون متطفلاً، ولكن ما سأقوله لا يفهمه الذين خطبت لهم أمهاتهم وتزوجوا ثم ماتوا !

- لكي أوفر عليك أنا غير متزوج.

- وهل أحببت ؟ هل تحب ؟

- كثيراً !

- أنا لا أمزح

- أتعرف ؟ نظرت إلى عينيه بتحد وقلت: أنت لا تعرف المراة، ولذلك تبدو سراً، ولو كنت تعرفها لتحدثت بطريقة أخرى !

- أنا الذي قلت لك إني لا أعرفها.

- احك الشيء الذي تعرفه !

- انتظر !

وحاول أن يرفع أكمام يده اليسرى، فلم يستطع. بدا يخلع ستراته واحدة بعد أخرى، حتى شمر عن ساعده. رأيت أثر جرح كبير، ووشما أخضر متداخلاً لا تبان خطوطه، وسألني:

- أترى ؟

كانت عيناه على الجرح والوشم لا تفارقهما!

- أرى

- هذا أحد أسرار الحياة !

- كيف ؟

- بعد أن اشتريت سلطانا، وقد نسيت أن أقول أن هذا الاسم أطلقته على الحمار الذي حدثتك عنه، تولدت بيننا ألفة قلما تجتمع لاثنين. كان حماراً عجيباً وذكياً، نعم أعجب حمار رأته عيني. كان يفهم أكثر من البشر دون أن يقول كلمة واحدة، وصدقني أنه هو الذي كان يشتري ويبيع للناس أكثر مما افعل ! كان يقودني من قرية لأخرى، وكان الحيوانات تمتلك حواساً تجعلها تفهم أكثر من البشر، أو ربما كان هو بالذات يملك وحده هذه الحواس. فعندما أطيعه نبيع ونربح، أما إذا عاندته، وهذا ما كنت افعله أول الأمر، فينقضي يومنا دون أن نربح شيئاً. كنت أعرض البضائع، أقول للنساء هذه جيدة، هذه رخيصة، ولكنهن يتضاحكن ولا يفعلن شيئاً سوى ذلك.

- تكرر الأمر مرات، اكتشفت بعدها أن الرزق حيث يقودني هو. نعم.. لقد كان ذلك الحمار عجيباً، كنا إذ وصلنا مفارق الطرق اسأله: أين سنذهب يا سلطان ؟

- لم يكن يجيب، كان يرفع رأسه، وبعد أن يعب الهواء كأنه يتشربه يقف ليفكر، ثم ينهق ويأخذ اتجاهاً. لم أكن أخالفه. كنت أسأله: ولكننا يا سلطان منذ وقت طويل لم نذهب إلى قرية العزراوية؟ ألم تسمع ما قلناه لأهلها آخر مرة، عندما كنا نبيعهم المناديل الملونة؟

كان يسمع ويفكر، ولكنه في النهاية يقرر أين يجب أن يذهب !

هكذا ابتدأ الأمر. ومن ذلك الوقت لم أعرف النساء، إلا ما صوره لي خيالي وأنا ألقي الحطب في موقد الحمام، أو ما من قصص في الطيبة، ونحن ما نزال صغاراً. ودون أن أشعر بدأت أفكر بالنساء !

وربما كان ذلك وأنا أجوب القرى وأرى النساء، وليس الحال مثلما كنت في المقهى.

بدأت أسمع أصواتهن الطرية الناعمة، وأرى صدورهن. كانت الصدور تثيرني والأطواق التي أحملها مدلاة عليها، وكانت أردافهن تهتز مثل كتل النار وهن يحملن جرار الماء فوق رؤوسهن.

في هذه القرى عرفت أن الحياة بدون المرأة لا تعادل روث سلطان، وبدأت أستغرب كيف يمكن للرجل أن يحيا بدون المرأة، لا يهم إن كانت زوجة أو أشياً آخر، المهم أن توجد، وأن يلتقي بها الرجل. بدأت أفكر بالأمر حتى اكتشف شيئاً لم أكن اصدقه، لقد اكتشف أن المرأة سهلة لدرجة لا تحتاج لهذا التفكير كله لكي تصل إليها. أتعرف ما تحتاجه المرأة ؟

- قلت لك لن أتدخل.. قل لي ما تحتاج ؟

- ولكن لا بد وأن تكون عرفت ذلك، اكتشفته بطريقتك الخاصة !

- لقد اكتشفت، بطريقتي الخاصة، ولكن أريد أن أسمع رأيك، ثم أقول لك !

- بعد تفكير متعب اقتنعت أن المرأة شيء مستحيل. صحيح أنك تراها كل يوم، وفي كل مكان، ولكن مثل الشمس لا يمكن أن تلمسها !

- كيف عرفتها، قل لي بحق الشيطان.

- المرأة يا صاحبي عكس الطريقة التي تقول فيها الآن !

- كيف ؟

سألته وقد أصبحت كلماته مثل أشواك تنخز جنبي.

- المرأة خرز وكلمات حلوة.

- خرز وكلمات حلوة ؟

- نعم خرز وكلمات حلوة، ولا شيء غير ذلك.

ونظر إلي يريد أن يرى تأثير كلماته، ولكني شددت وجهي لكي لا أترك له أن يرى شيئاً، لعل كلماته الفامضة تفقد سحرها. قلت:

- هل هذه الوصفة لا تزال سارية المفعول ؟

- كأنك لا تصدق !

- أصدق ! أصدق ! أريد أن افهم. كان يريد أن يفرغ صبري بسرعة، فابتسم ابتسامة ظفر ثم قال:

- ماذا تحتاج المرأة ؟ وتابع بسرعة، المرأة تحتاج إلى كلمات حلوة. صحيح أنني أعطيت كثيراً مما كنت أحمله في الخرج: مناديل، مرايا وحناء، وبعض الأحيان سكرا وطحيناً، ومع ذلك فإن قلب المرأة لا تفتحه إلا الكلمات !

وبهدوء بدأ يلبس ستراته من جديد، وعيناه تبرقان وتخبوان كل لحظة، وكأن هذا التتابع، اشتعال للذكريات في رأسه، الذكريات الحزينة التي مرت والذكريات الحلوة التي تلوح في هذا البرق المتوهج.

بعد أن انتهى وزرّر سترته الأخيرة بأحكام، ألقى برأسه إلى الخلف وتابع:

- نقف أنا وسلطان، فتجتمع حولنا النسوة. هذه تريد أزراراً وإبراً. هذه تريد مشطاً كبيراً أبيض. هذه تريد منديلاً بلون شقائق النعمان.. أقول لها هذا المنديل أجمل. البسيه، جربيه ! كنت في أول الأمر أريد أن أبيع المناديل التي أحملها، ومن أجل ذلك كنت أقول:

- أنت جميلة عندما تلبسين هذا المنديل الأخضر. ولكن رأيت شيئاً في العيون أثارني وحيرني فما أكاد أقول لواحدة أن هذا المنديل جعلك جميلة حتى أرى في عينيها أكثر من ضحكة. كنت أرى فرحة ترقص، شيئاً غامضاً لا أعرف ما هو !

ومن ذلك الوقت درجت هذه الكلمات على لساني. وتعمدت أن أقولها لأغلب النساء اللواتي يشترين مني.

تصور. حتى النساء المسنات اللواتي لم يبق منهن شيء، كن يفرحن وأنا أقول لهن: لقد نقص عمرك يا أم وردة عشرين سنة بعد أن لبست هذا الثوب.

تقول لي: يجب أن تشرب عندنا الشاي. يجب ان تأكل لقمة قبل أن تمشي!

وأنت يا فرحة، هل يوجد في المنطقة كلها ولسفر يومين، رجل أسعد من زوجك ؟ وبفتح تسألني: لماذا ؟ فأقول لها: الله يبارك له بهذا المال. وأشير إليها من رأسها حتى قدميها وتضحك وتقول لي: أنت إبليس ولكنك مجرب وفهيم !

كنت أقول الكلمات من أجل أن أعيش، ولكن بعد فترة تغير كل شيء فيّ.

لم أعد أتصرف بالكلمات مثلما يتصرف الإنسان بروث البقر لا... أصبحت أختارها، أجلوها، أفكر فيها، وعندما أطلقها تصيب في هذا المكان تماماً.

وأشار إلى صدره، جهة اليسار، وهو يضحك !

وتابع وهو يهز رأسه:

ومع الأيام أصبحت الكلمات كائنات عجيبة، تماماً مثل الحمار، لها حياتها المستقلة وتأثيرها الغريب. فإذا تجمعت النساء، وبدأت كل واحدة تقلب الأشياء التي أحملها، كنت أتصرف معهن بطرق مختلفة: واحدة احسب أن أبيعها، لأن وجهها يشبه الخبز الناضج، فكنا نتحدث عن المناديل والمدينة، وأسألها عن زوجها وعن أولادها، وبشكل غامض لم أستطع أن أفهمه أبداً نصل إلى ما نريد دون تعب. وواحدة لا أطيق ان أساومها لأن في عينيها عفة الكلاب، فهي تريد ولا تريد، وهذا النوع من النساء لا يمكن أن تصل إليه، لأن عقولها تقفز دون توقف، مثل الجراد. تظل تحوم وتحوم دون أن تتعب، حتى إذا اصطادتك طالبتك بكلمات كبيرة، وتسقط من عينيها دمعة كالبصاق وتقول: هذه الخطيئة ستعذبني حتى أموت، لن أكررها مرة أخرى لكنها تكذب، أنا أعرف هذا النوع، فإذا حاولت أنت معها فقد لا تعود إلى هذه القرية مرة أخرى، لأنك فاجر وخنزير. تقول احتال عليّ فنظر إلى ساقي وقرصني وأراد أن تعتدي علي !

- وتغير شكله وهز رأسه مرات كثيرة،كأنه يتذكر، ثم تابع فيقول:
- أتعرف الأشياء التي يحملها البائع على الحمار ؟
- لم أجب..
- لا أريد منك جواباً، أنت لا تعرف مهما حاولت ، لأن هناك دائماً شيئاً تنساه، وأنا الذي كنت بائعاً لم أكن أتذكر. عشرات المرات حاولت ذلك، ولكن اكتشفت دائماً أشياء جديدة.

لا حظ إني لم أفهم كلماته، ابتسم أول الأمر، ثم قهقه وقال:

– النساء بقدر هذه الأشياء وأكثر. تتذكر واحدة وتقول هذه. تحوم وتحوم، وفجأة تترك وتمشي. وتسأل نفسك لماذا حاولت ؟ اين هي اللحظة الضعيفة التي انفجرت في رأسك وقالت لك شيئاً ؟ لا تعرف. ومرة أخرى لا تكون رأيت

هذه المرأة من قبل، فما هي إلا كلمة حتى تربط الحمار في حاكورة أو تحت شجرة وتمضي معها إلى مكان لا يراكما فيه أحد !

أنت تتوهم، من يسمعك تتحدث هكذا يظن أنك لم تبق أمرأة واحدة في القرى إلا ونمت معها.

- أنا لا أقول ذلك !
- هل تراجعت ؟
- لم أتراجع، ولكن أقول لك إني عرفت نساء كثيرات !
- كم امرأة عرفت ؟
- لا يهم العدد، قد لا أكون مثل غيري، ولكن عرفت أنواعاً كثيرة من النساء !
- وحق يسوع المسيح أنت لا تعرف شيئاً !
- قل لي أنت الذي تعرف كل شيء !
- أنا لا أعرف لقد حيرتني المرأة.
- كنت تتحدث عن أسرار، وحتى الآن لم تتحدث إلا عن أوهام تتخيلها، تماماً كما كنت تفعل وأنت في الحمام !
- تريد الحق ؟ المرأة بدون خيال الرجل لا تعني شيئاً. ماذا تتصور أن تكون المرأة لو لم يوجد الرجل؟
- أتعرف يا إلياس، سألته بلهجة استفزازية.. أن كل ما رأيته مجرد وهم. أنت لم تعرف النساء، خيالك هو الذي أوحى لك أنك تعرف !
- والجرح الذي رأيته الآن ؟
- ما قصة هذا الجرح، قل لي بربك وأرحني !
- أكثر ما يهين الإنسان أن يعرض نفسه، دون أن تكون هناك حاجة !
- ما ذا تقصد؟

- لا أقصد شيئا.

- وبدأ يتحدث كما لو كان يحدث نفسه:

- أنت حيوان يا إلياس، لماذا تزعج الناس؟ من قال لك أن تدلي لسانك مثل كلب عطشان؟ من قال لك أن تتحدث ؟

- أنا الذي سألتك.

- لو كنت مثل المسافرين الآخرين لما تحدثنا.

- ما زلت أريدك أن تتحدث، وتأكد أن الشوق الذي أحسه نحو ما تقوله يزداد في قلبي، ولكنك تريد أن تعذبني، كما عذبت النساء !

- أتريد الحق ؟

- لا أريد شيئاً غيره !

- أنا الذي تعذبت من النساء، ولم أعذب سوى واحدة.

- هل تحب أن تحكي لي عن العذاب ؟

- لأترك أشياء كثيرة، وأقول أن الجرح الذي رأيته الآن هو الجرح الوحيد الذي لن يشفى. سأموت خلال سنين، عشر سنين، على أبعد تقدير، ولكن هذا الجرح سيبقى ينز دون انقطاع.

- والجراح التي تركتها عند النساء ؟

- كانت جراحاً صغيرة !

- لا يهم أن تكون صغيرة أو كبيرة، فعندما يجرح الإنسان لا ينسى !

- ومن قال لك إني نسيت ؟

- لنتحدث عن جرحك أنت، الجرح الذي رأيته الآن.

- أتعرف..؟

نظر إليّ وابتسامة حزينة تطوف فوق ملامح وجهه كلها، وتابع:

سلطان هو الذي جرحني!

كل هذا الحديث عن النساء والجراح، ويكون الحمار هو الذي جرحك ؟

نعم هو الذي جرحني، ومنذ ذلك الوقت لم أعد أطيق أن أراه. صحيح أن ذلك حصل بعد وقت طويل، بعد أكثر من سنتين، ولكني لم أترك الأمر يمضي دون أن أفعل شيئاً، لقد انتقمت منه !

- لا أفهم ما تقول !

- أعرف ذلك، لأن الأمر كله مهزلة مجنونة !

- عن أي شيء تتحدث ؟

- عن المرأة، عن المرأة الوحيدة التي مضت قبل سنين طويلة ولكن لا أزال أراها حتى الآن، وفي كل لحظة ! لا أطيل عليك، فإن القصة حدثت ونحن نطوف القرى. صحيح إني عرفت عدداً من النساء غيرن من طبيعتي، ولكن هذه المرأة وحدها هي التي جعلت مني إنساناً جديداً !

ذات يوم مررنا على بيت منعزل، تسكنه إمرأة مسنة وابنتها. وكان إلى جانب البيت بستان صغير وأرض لا يزيد عرضها عن أربعين ذراعاً، وطولها مائة أو أكثر قليلاً، وقفنا أنا وسلطان، نريد ماء نشرب ونعرض بضاعتنا لعل المرأتين تشتريان.

حملت لنا المرأة العجوز الماء فشربنا، وكدت أمشي عندما لاحظت عدم الرغبة بالشراء، ولكن سلطاناً أبي يسير، وكأن شيئاً يربطه إلى الأرض، يشده إليها. لم يكن يريد أن يتحرك أبداً. تحدثت معه، شتمته، ضربته، وهو في مكانه لا يتحرك، ولا يمشي !

قلت في نفسي أن الحمار قد جن، لقد جن تماماً، وإلا لماذا لا يمشي ؟

وقلت في نفسي أن تعب اليوم قد هدّه، فلنجلس قليلاً ونسترح، وبعدها نواصل سيرنا.

جلسنا وطال جلوسنا. وقد حاولت اكثر من مرة أن أتحدث معه بهدوء. قلت

له ننام في القرية وهي لا تبعد عنا أكثر من ساعة. قلت ننام في الطاحونة، وهي لا تبعد أكثر من ساعة من الناحية الثانية. قلت له نستريح يوم غد كله، فلا نبيع ولا نشتري.

كان صامتا لا ترف عيناه. قلت يجب أن تتحرك يا سلطان، ولكن لم يسمع كلمة مما أقول، فقد ذهبت محاولاتي في الهواء !

ورأت المرأتان ما يصنعه الحمار. لم تتكلما كلمة واحدة، أول الأمر. ولكن عندما اقتربت الشمس من المغيب، وأنا أضرب سلطان وأشتمه، جاءت العجوز تحمل لي شاياً وتقول: أتركه يا ولدي، لا تضع عقلك في عقله، إن الحمير تحرن فما عليك إلا بالحسنى.

قلت: ولكن نريد أن نصل القرية قبل أن يحل الظلام.

قالت: تنام عندنا هذه الليلة، حتى إذا جاء الصباح أصبح حمارك حمارا آخر !

وهذا ما حصل، نمت ذلك اليوم عندهم !

قلت إنني رأيت عدداً كبيراً من النساء، ولكن لم ترعين امرأة تشبه ابنة العجوز. ظلت صامتة وهي تعمل دون توقف. كانت تنتقل من مكان لآخر. تعلف الدجاج، تطعم الثور، تهش على الكلاب. كانت تعمل كل ذلك دون تعب ودون أن تقول كلمة !

لم أرها تنظر إلي مرة واحدة طوال ذلك المساء. وحتى عندما وضعت لي طعاماً وطلب مني أن آكل، كانت تدعوني وكأنها تدعو شبحاً لا تراه. وفي الليل وضعت سراجاً في الغرفة المجاورة، حيث نمت، والتقت نظراتنا، وربما عرضاً، عندما كانت تخرج.

كانت تلك النظرة الصغيرة التي لم تدم لحظة واحدة، هي التي خضّت حياتي كلها، لقد غيرت كل شيء فيّ. فكرت كثيراً تلك الليلة. قلت في نفسي

أن هذه المرأة لا تشبه اي امرأة أخرى، لم تكن جميلة، ولكن فيها شيئاً لم أستطع أن أفهمه. شيء يؤثر في الإنسان، يؤلمه ويفرحه !

وفي تلك الليلة خفت. قلت لنفسي لن آتي إلى هنا مرة ثانية. خفت من نفسي على هذه الفتاة. وخفت من أمر لم أستطع أن أفهمه أبدا، وإن كنت اعرف كم من الشرور تجيش في هذا الصدر اللعين وتخض دمائي كلها، حتى إني شتمت إلياس مرات كثيرة قبل أن أنام، وتذكرت العذاب الذي يحيط بروحي بعد كل مرة التقى بامرأة !

وقبل أن يطلع نور اليوم التالي، وضعت الخرج على سلطان، وقد صممت أن أسرق نفسي قبل أن يستيقظوا ، وقبل أن يروني، وقلت سأترك لهم حاجات بسيطة، ولكن ما كدت أنتهي من تجهيز الحمار حتى أطلت ابنة العجوز تحمل شاياً وأكلاً. وجاءني صوتها من الخلف رطباً مخيفاً في عتمة الصباح الناصلة، قالت تأكل شيئاً قبل أن تمشي!

مرت ثلاثة أيام، كدت أنساها. ولكن في الليل لم أعد أحس بتلك الراحة، ولم يعد يهمني أن أحسب الغلة أو ألبي طلبات النساء !

وفي اليوم الثالث، عند الظهر، وكنا ما نزال بعيدين عن المحربة، القرية التي كنا نريد أن نصلها، رأيت سلطانا ينحرف يساراً باتجاه قرية المغيريب. أمسكت بالرسن. قلت: هذه المرة تطيعني ولا أطيعك يا سلطان، هذه المرة تذهب إلى المحربة. حاولت معه، ولكن مع زيادة إلحاحي كان يزداد عناداً. تركت له الرسن لأرى أين سينتهي بنا المطاف. وخلال ساعتين وجدت نفسي مرة أخرى عند العجوز وابنتها!

لو لم أطلع سلطان لانتهت الأمور، ولكن عندما يطيع الإنسان حماراً، فأن عليه أن يتحمل النتائج كلها، ولا يحق له أن يلوم أحداً، أو أن يشكو !

في هذه الليلة تحدثت إلى المرأتين عن الطيبة والتجارة، وعن سلطان الذي

قادني إلى هنا دون أن أطلب منه، وقلت لهما: لقد رأيتما كيف حاولت معه لكي نتابع سيرنا في المرة الماضية، ولكنه أبى، وهذا ما حصل اليوم، وإن هذا الشيء عجيب لم يفعله أبداً من قبل!

ضحكت المرأتان، كانت أول مرة تضحك فيها الابنة. وقررت في تلك الليلة أمراً خطيراً !

فما كدنا ننتهي من العشاء، حتى بدأت اللعنة الثانية، والتي لا تقاس شيئاً بلعنة سلطان.

بدأت الكلمات تطفى عليّ، تخرج من فمي دون تفكير، ودون قصد.

وقبل أن ننام قالت العجوز: أمهلنا أسبوعاً نفكر في الأمر، ويجب أن لا تغضب إذا سألنا أهل المحرية عنك.

قبل أن ينتهي الأسبوع، تم كل شيء. وخلال شهرين تزوجت!

بدأ حزيناً وهو يتذكر. رأيت دموعاً صغيرة في عينيه، ولكن غيّر جلسته وكأنه يجلد نفسه على هذا الضعف الذي بدر منه دون أن يستطع مقاومته. وبجلسته الجديدة تغير صوته، وتغيرت ملامحه. نظر إليّ بعينين فارغتين وتابع:

- قد تكون معيباً أن يتحدث الإنسان عن زوجته. ماذا يمكن أن يقول عنها ؟ خاصة تلك الأشياء الصغيرة والتي لا تشكل حادثة أو صراخاً ؟

لم أترك الحمار ولم أترك الأمشاط والمرايا، ولكن الدائرة التي أصبحت أدور فيها ضاقت لدرجة أني نسيت كثيراً من القرى ولم أتذكر نساءها. أصبحت أعود عند المغيب إلى البيت، فأجد كل شيء رائعاً مثلما كان في الطبية وأنا صغير: الأشجار تنمو وتخضر، ثم يعربد فيها الثمر فتنحني لثقيلة مكتنزة. فإذا اكتمل الصيف أترك الخرج وأحمل التفاح واللوز اليابس على سلطان وننزل إلى المدينة، ولما أعود أكون قد حملت معي الطحين والسكر،

وتجـرأت مـرة واشتريت سريراً صغيراً للولـد الـذي بدأ يتكون فـي بطـن حنـة، ولكن الدنيا لا تمهل أحداً... ذات يوم وحنة فـي شهرها الرابع ماتت العجوز، وفي أقل من شهر بعنا الأرض بعد أن قررنا العودة إلى الطيبة !

Damascus University

تغيرت الطيبة كثيراً خلال هذه السنين، فالأشجار الصغيرة التي زرعت في أماكن عديدة من الحقول نمت، وأوشكت أن تثمر.القطن الذي كان مثل موج البحر يغطي الأرض كلها، اقتصر على مساحات كبيرة في الجهة الشرقية وحدها، وكان لابن الحاج زوين - المهندس الزراعي، فضل في ذلك، فقد قال لأهل الطيبة أنه يجب زراعة الأشجار من جديد لكي تمطر السماء. رفضوا، لكنه أصر. قال لهم لا تقطعوا القطن، ازرعوا إلى جانبه الأشجار. لم يسمعوا. ولكن لم تمض شهور حتى تغير كل شيء واضطر الناس لأن يزرعوا الأشجار بعد أن مرت السحب فوق الطيبة ولم تتوقف. كانت سماء الطيبة أشبه بالأرض السبخة تعلوها الغيوم دائماً ولكن لا ينزل فيها المطر.

... لا أطيل .. خلال هذه السنين بدأت الطيبة تعود إلى ما يشبه رأس الأقرع عندما يعود إليه الشعر !

لم يقتصر الأمر على ذلك لأن صالح الأعور فتح فرناً وفكر الخوري سمعان أن يفتح فرناً ثانياً، وقلت في نفسي عندما رأيت الناس يأكلون خبز الفرن، أن إلياس المشؤوم مغضوب الوالدين، لا يفعل شيئاً في وقته، وحتى لو قال لأهل الطيبة أن الشمس تشرق من وراء جبل الظهور لسخروا وأنكروا، رغم أنهم يرون الشمس تركب جبل الظهور وتظل هناك، كل يوم، حتى تتعب، ثم تمشي باتجاه بستان الخوري سمعان الذي تحول أيضاً إلى مزرعة قطن !

عدت إلى الطيبة، وعادت إليّ الهموم. ماذا أستطيع أن أفعل ؟ هل أزرع الأشجار ؟ هل أطلي بيوت أهل الطيبة بلون أخضر يشبه لون الشجر ؟ هل يريد أهل الطيبة حماماً لأصبح فيه وقاداً ؟

لم أعرف ماذا يريد أهل الطيبة، ظللت أياماً أفكر حتى أستقر رأيي أن أعمل في المطحنة عند العم شكري، قال العم شكري: أريد أنساناً وأريد

حماراً. وكنت أنا وسلطان.

عدت إلى المحرية بسرعة، حيث تركت الحمار لأحضره ونبدأ العمل.

أتعرف يا صاحبي، أن للحمير ولكل جنس الحيوان أرواحاً مضيئة تشتعل بالحنان والرغبة، وهذه الأرواح تموت أن تركت، أو إذا ما قسا عليها الإنسان !

ما كدت أرى الحمار حتى أنكرته تماماً. كان ضعيفاً مهزولاً، كأنه لم يأكل ولم ينم منذ وقت طويل. وفي زاوية الحاكورة، حيث كان يقف ووجهه إلى الجدار بدا لي حزيناً وهو يمسح وجهه بالجدار. تقدمت نحوه بهدوء، لا أريد أن يراني، ومثلما كان يفعل دائماً، أحس بشيء. رفع رأسه، عبّ الهواء، حرك أنفه أكثر من مرة. ثم بدأ يلتفت. لقد أحس بوجودي. وفي لحظة تغير كل شيء، تحرك فيه الدم، ضرب الأرض بحوافره، نهق، فبدت أسنانه بيضاء لامعة، كأنه يضحك من الفرح.

كنت أسمع أن الخيول وحدها تحزن وتنقطع عن الأكل والماء إن هي فارقت أصحابها، وقد تموت كمداً. أما الحمير فكانوا يقولون عنها أنها جنس رديء لا تعرف صاحباً ولا تشعر إلا برغبة الساعة التي تعيش فيها.

سلطان لم يكن كذلك. كان أشبه بالحصان، فما كاد يراني حتى سمعت صوتاً ضعيفاً أقرب إلى البكاء يمتلئ به صدره، وبدأ حول نفسه من الفرح، ثم تهاوى على الأرض، ومرّغ جسده على الجانبين بالتراب، كأنه إنسان يسجد إلى الأرض ويقبلها !

وفي الطريق إلى الطيبة تحدثنا من جديد عن القرى التي زرناها، ونحن نبيع ونشتري. وتذكرنا أناساً كثيرين،ولم أترك له فرصة ليتحدث عن النساء، لأنه لا يليق برجل متزوج أن يتذكر النساء اللواتي عرفهن من قبل. وما كدنا نقبل على الطيبة، بعد ثلاثة أيام من السير المضني، حتى شممت رائحة خاصّة، كنت أعرفها وأنا طفل. لقد كانت رائحة المطر، فانتعشت روحي،

وأصابني ما يشبه الدوار وأنا أتذكر كل شيء في هذه الأرض !

وتوقف لا يريد أن يضيف كلمة واحدة،كأنه رغبة قوية لا يستطيع مقاومتها تسيطر على الزمن، فتوقفه، ودون أن أحس قلت له:

- وفي الطيبة أصبحت ملحاناً .. أليس كذلك ؟

- لم تمض أربعة شهور حتى بدأت اركض في الظلام هارباً من الطيبة. كنت أتصور أن أشباحاً ورائي تطاردني، وأن خيطاً من نار يمتد بين يدي هذه. ورفع يده قليلاً، يشير إلى الجرح. وبين لعنة سوداء خلقت في الطيبة.

لو تُركت دقيقة واحدة لانتهى الأمر تماماً. ولكن كثيراً ما يتحول إحساس الناس إلى ألم ينحفر في العظام ويظل هناك إلى ما بعد الموت !

لقد دخل فيّ شبح عكّر دمي، أصبح ينفث فيه بولاً أسود. والإنسان إذا خالط دمه بول الأشباح لا يشفى أبداً. يظل ملعوناً ومطارداً إلى يوم يموت. هكذا قال لي قس التقيت به قبل سنوات لم أصدقه في ذلك الوقت، حتى رأيت تلك المرأة تموت.

- قل بربك عن أيّة امرأة تتحدث ؟

- لم أشعر في حياتي كلها أن الإنسان يمكن أن يكون غاضباً وحزيناً إلا مرتين: المرة الأولى عندما قطعت الأشجار، والثانية عندما ماتت حنة.

- ولكن لمَ تركتها تموت ؟

- أتعرف كيف قطعوا الأشجار ؟

- وتابع بحزن

- كنت أدور في الطاحونة مثل ثور أعمى، غبار الطحين يملأ وجهي وعيني، والشمس في الخارج ترسل دفئاً ناعماً يفجر الأرض والأشجار. كنت أقول لنفسي: لن تبقى هنا طويلاً يا إلياس، لن تبقى في هذا الوكر اللعين، كنت أفكر أن أترك الطاحونة، وأشتري أرضاً لأبدأ بغرس الأشجار من جديد. وكنت

أفكر أن يكون القادم الجديد مثلما كنت لأبي: أن نزرع ونتعب معاً. كنت أتصور أن يساعدني وأنا أفتح الساقية لكي ترتوي الأرض. ويقفز فوق الأشجار مثل قرد لكي يقطف الثمار العالية. ويسوق الدواب في الصباح الباكر حاملاً لأهل الطيبة والقرى المجاورة التين والعنب. هكذا كنت أتصور وأقول لنفسي وأنا أدور، وبين فترة وأخرى أنظر إلى الشمس.

- وجاؤوا. لم أعد أتذكر من جاء، وأي شيء قالوا.

- كنت أصرخ والسكين في يدي. أريد ان أقتل هذا الذي قتل زوجتي وهي تلد. سألت الناس الذين حولي، إن كانوا قد رأوه، فلم يجيبوا أول الأمر. ثم قالوا لا تكفر

- سألتهم ثانية. أصوات الناس مثل نعيب الغربان. كنت أرى وجوههم سوداء مثل بول الأشباح. وحنة ممدة على الفراش، وقطرات العرق فوق ذقنها. وشعرها مثل الأسلاك الخشنة الممزقة، كان شعرها على الفراش وعلى الأرض.

وتذكرت كل الليالي. حنة لا تعرف وسادة غير هذا الذراع، وفي هذا المكان بالذات.

وأضاءت نفسي. رأيت نوراً وهاجاً ينبع من داخلي فيضيء كل شيء. وبهدوء كان أكثر قداسة آلاف المرات من الخوري سمعان، اقتربت من حنة، ودون أن يحس الغربان الذين حولي، أدخلت السكين في هذه اليد تماماً في نفس المكان الذي كانت تنام عليه، وظللت أقبلها

لكم كانت قبلاتها دافئة ولذيذة، كانت تحرقني، تشعل في نفسي رغبات مجنونة. وامتلكتني لذة شعرة معها أن الموت أجمل آلاف المرات من الحياة، وحسدت الموتى.

ولم أعد أتذكر بعد ذلك، حتى العصر.

كان كل شيء قد انتهى.

دُفنت حنة والطفل ما يزال في بطنها، ويدي ملفوفة إلى صدري وبقع الدم على القميص وعلى الصدر، والدنيا صغيرة.. صغيرة لدرجة يمكن لإنسان واحد أن يغيرها.

لم أعد اسمع من الأصوات التي حولي سوى صوت سلطان. لم أعد أرى وجهاً سوى وجهه.

وفي تلك الليلة بالذات، بعد أن تركني الناس نائماً، استيقظت على صوت سلطان. كان صوته ضعيفاً مثل ذلك اليوم عندما رأيته في المحرية.

وخرجت بسرعة، وسلطان يركض ورائي كأنه غزال، وما كدت أبعد قليلاً عن آخر بيوت الطيبة، حتى توقفت. أخرجت السكين، وبهدوء لا يملكه إلا الناس الملعونون، بدأت أمسح رأس سلطان وأنا أبكي، ثم تحدثت معه، وشممت وجهه ورقبته، ومسحت بيدي جسده كله حتى حوافره، ولما أحسست أن قلبي يمتلئ بشيء أسود ويفيض إلى الخارج.. أدخلت نصل السكين في رقبته، وانتهى كل شيء

طفرت الدماء مثل بول الأشباح، غزيرة ساخنة، فامتلأت يدي حتى الساعد، وطلت أمرر السكين، وسلطان هادئ مستسلم حتى سقط على الأرض، فأخذ يمرغ جسده مثلما رأيته في المحرية. كان تلك اللحظة مثل قديس في أصفى ساعات الصلاة

وبدأت أركض خارجاً من الطيبة نحو الفلاة، والأشباح تسد في وجهي الطريق، وخيط من النار يمتد بين يدي هذه، والبلدة الملعونة.

(٩)

سجنت ثلاثة أيام وأنا في طريقي إلى المدينة. رأوني أركض مفزعاً، والدماء اليابسة تملأ يدي ووجهي، فقالوا قاتل. لم يعطوني خبزاً. لم ينظروا إلى عيني الباكيتين. تجمدت عيونهم على الدماء، وتحرك في داخلهم نداء وحشي لأن يجهزوا عليّ. ولما سلموني للدرك لم أستطيع أن أقول كلمة واحدة

نسيت كل شيء: الطيبة وحنة وسلطان، ولم تكن تملؤني سوى رغبة واحدة، رغبة لذيذة تلح عليّ: ان أقتل نفسي.

وفي السجن حاولت أن أقتل نفسي. ضربت رأسي بالجدار، ولكنهم أمسكوا بي وقالوا كلمات قاسية، نزعت اللفائف عن الجرح، ولكن في لحظة شعرت أني متعب لدرجة لا أستطيع أن أفعل شيئاً.

وفي اليوم الثالث، عند الظهر تماماً، تركوني. قالوا لي: اصبر، الصبر مفتاح الفرج. قالوا: لا يليق بالرجال أن يقتلوا أنفسهم من أجل امرأة ماتت وهي تلد. وقالوا: أنا لله وإنا إليه راجعون.

تركوني لأعود إلى الطيبة. ولكن ما كدت ابتعد قليلاً، حتى غيرت وجهي نحو الشرق، باتجاه المدينة.

إن المدن الكبيرة تستر الإنسان، رغم إنها تظل تنهشه من الداخل حتى يموت. والموت في هذه المدن عادة مألوفة تقع كل يوم، لذلك لا تحرك الناس ولا تعنى شيئاً بالنسبة لهم. أما في القرى الصغيرة، حيث لا يموت الناس إلا عندما يتعبون من الحياة، فإن الموت، يقف على قبة الكنيسة مثل الغراب، وقد يصبح مثل الجمرة في العين، يحرق ويصرخ، فلا يستطيع الإنسان أن يعيش في هذه القرى بعد ذلك !

شربت ماء كثيراً في الطريق إلى المدينة، كان ماء لذيذاً لم أشرب في حياتي مثله منذ تركت الجبل، فاحسست بالشبع ولم أكن أريد شيئاً سوى أن أنام.

وأنت تعرف أن المدن الكبيرة المليئة بالأسرة الدافئة والفراش، لا يمكن للغريب أن ينام فيها إذا ام يكن غنياً. وحتى الجوامع تسد أبوابها في وجه الفرباء.

اتجهت إلى المقهى. قلت لنفسي: لا بد أن يكون أبو ذياب قد نسي الإساءة، وعنده سأشرب شاياً ساخناً وأنام.

كان أبو ذياب قد نسيني تماما، ولكنه عندما تذكر، لم يتذكر غير الإساءة ! قال لي وهو يضع في يدي قطعاً صغيرة من النقود:

- يا ولدي مقهاي يجلس فيه أناس محترمون،ولا يمكن أن أحوله إلى فندق. أذهب ... أشحذ لك قرشين ودبر لنفسك مكاناً تنام فيه.

ذهبت إلى الحمام، فوجدت أناساً غير الذين أعرفهم. وعندما سألتهم عن أبي النور، قالوا: باع الحمام منذ سنة. ولم أقل شيئاً.

ومن جديد انتشلتني امرأة لكي لا أموت مثل كلب في المدينة الكبيرة.

- امرأة ؟ أنت محظوظ، لا تترك امرأة حتى تجد غيرها !

أنت عجول. ستموت في سن مبكرة، نعم ستموت قبل أن تجد الآثار التي تبحث عنها !

- اتركني الآن، لا يهم متى سأموت، أريد أن أسمع كم مرة مت أنت في هذه الدنيا !

- أتعرف؟ لقد مت قبل زمن طويل، وربما في تلك الليلة التي وافقت فيها على أن ألعب على الأشجار. ليس لأني خسرت، فالإنسان معرض دائماً للخسارة، ولكن لأني قامرت على شيء لا يجوز لأحد ان يقامر عليه. قامرت على الطبيعة، على هذا الشيء الذي لا أملكه.

- الحياة كلها مقامرة، وأغلب الأحيان مقامرة خاسرة. ولكن لنترك الحياة الآن، أحك لي عن هذه المرأة الجديدة !

- تستغرب إذا قلت لك أنه لم ينقذني من الموت غير هذه المرأة. وأية

امرأة؟ هذه التي أسأت إليها من قبل !

- أنت تحب أن تؤذي نفسك، تتصور أن أي شيء تفعله إساءة للآخرين !

- لا... لا تحسن بي الظن. أنا رجل شرير، وأهل الطيبة لم يخطئوا عندما سموني ملعوناً.

- لا أدري... إذ حدثتني عن هذه المرأة، أقول لك أن كنت قد أسأت إليها أو إنك تتوهم ذلك!

- تتصور إنني لا أعرف نفسي، لا أعرف أكوام الشرور التي تنام تحت هذه السترات اللعينة؟ لا أريد لأحد أن يقول من أكون !

- أنت تعرف، ولكن أنا الذي يريد أن يعرف !

- اسمع:

كان الناس يسمون هذه المرأة أم البيادر، واسمها الحقيقي نهاد، أما في المدينة فقد تغير اسمها إلى نهدة. تعرفت عليها عندما كنت أذرع الأرض أنا وسلطان. كانت من أهل قرية بيلة، امرأة مقطوعة من شجرة، كما يقولون، تعيش وحيدة، وتستقبل في بيتها بعض الرجال لتعيش. وقد رآها أناس كثيرون مع رجل لم يعرفوه. كانت تقضي وقتها مع ذلك الرجل، خاصة في ليالي القمر، على البيادر. كان الرجل ملثماً دائماً، ولا يكاد يرى إنساناً حتى يبتعد، كأنه يخاف من أحد، ونهدة مع ذلك الرجل تسرح وتضحك، حتى إذا جاء الفجر افترقا. الرجال الذين رأوها تعود، لاحظوا أنها حزينة،كأنه فرغت لتوها من البكاء. كان الرجال يصادفونها عندما يذهبون إلى الحقول، ومع أنها في العادة تمزح معهم وتتقبل كلماتهم البذيئة، ولا تعرض كثيراً على الأيدي التي تمتد إلى صدرها، فأنها وهي تعود من البيادر لا تنظر إلى أحد، ولا تسمع كلمات الرجال.

وظل الأمر سراً حتى التقينا في المدينة !

أما كوني أسأت إليها، فأنا رجل مثل باقي الرجال، إذا تملكتني تلك الرغبة المجنونة نسيت كل شيء.

كنت أعطي بعض الناس الحاجات التي يريدونها واستوفي ثمنها بعد فترة. وقد أعطيت نهدة مثلما أعطيت غيرها. أخذت مني منديلين ومشطاً ومرآة وقالت أعطيك ثمنها.

وذات يوم تعرفت إلى امرأة أخرى، اشترطت لي أنام معها أن أذهب لنهدة وأسترد الحاجات التي أعطيتها.

قالت: يجب أن تأخذ الحاجات ولا تقبل شيئاً غيرها، حتى ثمنها لا تقبله !

لم أتردد. ذهبت لنهدة وقلت: أريد الحاجات.

قالت: أعطيك نصف ثمنها الآن.

قلت: لا.

قالت أعطيك غداً ثمنها كلها.

قلت: لا.

قالت: لبست المنديل !

قلت: أعطيني الحاجات مهما تكن.

رجتني، بكت، قالت أتركهم لي هذا اليوم فقط، ولكن لم أقبل.

وعندما عدت بالحاجات إلى تلك المرأة، أخذتها بيدها قلبتها، ثم أعادتها إليّ وقالت:

- يمكن أن تواصل مشوارك الآن !
- قلت: والوعد الذي بيننا ؟
- قالت: الرجال دائماً أوفياء لوعودهم ! وانفلتت ضاحكة وهربت.

لم أعد لنهدة ولم أراها إلا في المدينة. لما رأتني تطلعت إليّ بلهفة. أمسكت بكتفي وهزتني وهي تسألني عن يدي الملفوفة. خجلت. لم أرد أن أقول كلمة

واحدة. ولكن لم تتركني، فما هي إلا دقائق حتى كنا نمشي سوية باتجاه الغرفة التي تسكن فيها.

تصور... الرجال الأغنياء ينظرون إليك كأنك حشرة مقززة، لا يريدون إلا ان تفارقهم، وبعد أن يروا ظهرك تنبسط وجوههم وقد علتها ابتسامة الرضا، أما الفقراء الذين لا يملكون شيئاً فإنهم يقاسمونك الفراش الذي ينامون عليه ويقاسمونك الماء الذي يشربونه.

كانت نهدة تواصل المهنة التي بدأتها في بيلة، وعندما تعود إلى الغرفة تكون متعبة وحزينة، ولكن مع حزنها تحمل في قلبها شيئاً يشبه الرمان، شيئاً لذيذاً تريد أن تعطيه. كانت تعطيني كثيراً، حتى إني خجلت من كل لقمة آكلها، إلى أن قررت ذات يوم أن أتركها، بعد أن وجدت عملاً !

قلت لها: أريد أن أذهب يا نهدة.

سألتني بلهفة: هل ضايقتك بشيء ؟

قلت: لا.

قلت: لا أريد منك شيئاً... لم أفكر أن نتزوج، ولم أفكر بالسعادة، ولكن لو نبقى نحن الاثنين معاً في هذه المدينة الكبيرة !

لم أستطع أن أقول كلمة واحدة، ظللت صامتاً، وفي هذا المساء عندما خرجت، وضعت لها على السرير منديلين ومشطاً ومرآة، وتركت البيت.

ومنذ ذلك الوقت لم أراها.

عندما انتهى نظر إليّ وسألني:

- هل عرفت الآن كيف أسأت إلى أم البيادر ؟ لم أسئ إليها مرة واحدة، أسأت مرتين، وربما أكثر من ذلك، وهذا هو الفرق بين الرجال والنساء !

قلت بصوت بدا لي بارداً وكئيباً:

- إساءات صغيرة، ولم يكن ممكناً أن تعمل غير ذلك !

- كما قلت أنت: الجراح لا تنسى، الجراح الصغيرة والجراح الكبيرة، والإنسان المجروح لا ينسى أبداً !

- ظلت نقطة واحدة.. وذاك الرجل الملثم ؟

- تطلع إلي بحزن وقال:

- أيضاً قصة رجل. كانت تهدة تحب ذلك الرجل المجهول، الذي التقت به مصادفة على البيادر. وظلت معه فترة طويلة، وقد قالت لي أنها وافقت على أن ينام معها دون أن يرفع لثامه. تصور كان ينام معها واللثام حول وجهه.. لماذا؟

وفي الليلة الأخيرة اكتشفت فيه خوري القرية !

ولم تطق أن يبقى يوماً واحداً في بيلة بعد ذلك. وأهل بيلة حتى الآن لا يعرفون سوى أم البيادر أما أبو البيادر فلا يعرفه أحد !

-وأنت كيف واصلت مشوارك في المدينة ؟

واصلت العذاب في تلك المدينة اللعينة. كنت اشرب، مع كل شمس جديدة، مع كل لقمة خبز، العذاب والمذلّة. مثل المرة السابقة انتقلت من عمل لآخر، حتى لم أترك عملاً يعتب عليّ.

كان بإمكاني أن اشتري حماراً وانتقل بين القرى، لكن ما كدت أفكر بهذا الخاطر حتى انتابني حزن لم أعرف كيف أقاومه. ولم ينته هذا الحزن إلا بعد أن أقسمت أمام نفسي، وبصوت عال، أن لا أفكر بهذا الأمر مرة أخرى.

بدأت العمل. أول الأمر في ورشة بناء. ثم انتقلت إلى رصف الطرق. كنت انام في الأبنية التي لم ينته عمارها. وفي هذه الأبنية الكبيرة المفتوحة من كل الجهات، أحسست بالوحشة والألم، كأني في باخرة مهجورة يتقاذفها بحر هائج. مرت ليالٍ كثيرة لم أستطع أن أنام. كنت أختبئ في الزوايا هرباً من الريح الباردة. كنت أسد النوافذ التي تفتح أفواهها مثل القبور، بقطع الخشب

والكرتون. وكانت رائحة الخشب الذي أحرقه تشبه رائحة العظام بعد أن تكون قد تلوثت بالماء والأسمنت. لم تكن هذه الأخشاب مثل خشب الحمام، ولا مثل خشب الطبية. كنت ألقيها بحقد لكي أمتص منها الدفء، ولكن في لحظات تتحول إلى دخان أسود يملأ الصدر.

لم أحتمل هذه الأبنية طويلاً، فقد هجرتها. واستغربت كثيراً ذات يوم، وأنا أمر أمام واحدة منها. كانت البناية تتلألأ بالأنوار، كأنها لم تضم قبل شهور أناساً بائسين. كان الناس يدخلون ويخرجون. أيديهم لامعة، ابتسامتهم تملأ الوجوه. دون تعب كانت النوافذ تنفتح بأيديهم. أن هذه الحياة عجيبة يا صاحبي لدرجة لا تصدق !

هربت دون أسف من هذه الأبنية الكبيرة، إلى غرفة صغيرة، وجدت فيها لذة الحياة. كانت صغيرة لدرجة أن الإنسان لا يتعب أبداً وهو يدور فيها. أما الدفء فأنه ينساب من كل جنباتها. كان يكفي أن أتنفس حتى تتحول إلى غرفة دافئة تشع خدراً وأحلاماً، وقد تصورت مرات كثيرة أن حنة وسلطان إلى جانبي في هذه الغرفة.

ظلّت الأمور تتغير شهراً بعد آخر. مرة أشقى حتى لا أعود أطيق الحياة، ومرة تمتلئ روحي بنشوة غريبة تأتيني فجأة. وفي مثل هذه الحال كنت أفكر كثيراً بالحياة. أحلم أني اشتريت أرضاً، غرست فيها أشجاراً. وأحلم أني تزوجت. وقد تجرأت ذات يوم، وحلمت أني اشتريت حصاناً أسود. كان حصاناً جميلاً وقوياً، وفي صباح كل يوم، في العتمة الخفيفة عند الفجر، أسرجه، ثم أركبه، ونطوف خلال ساعات الصباح الأولى في كل أنحاء البستان. وكنت أنفض عن كتفي الندى المتساقط من أوراق الشجر، فيسقط على الأرض، وأسمع لسقوطه رنة عذبة. كنت في ذلك الوقت أشعر بلذة لا تقاوم وأنا أرقب

الأشجار تنمو وتثمر !

ولكن الحياة لا تترك للإنسان حتى أن يحلم.

تعطلت عن العمل، طال بحثي عن عمل جديد، ولا أعرف كيف قادتني قدماي إلى مقهى أبي ذياب. دخلت دون أن أدري، ووقفت مثل كلب بائس أمام الطاولة الكبيرة، حيث كان يجلس. وبعد أن سألني عن أحوالي، قال لي بلهجة أب قاس:

- اشتر، يا ولدي، صندوقاً لمسح الأحذية، وتعال إلى هنا.

(١٠)

في صباح اليوم التالي كنت أول القادمين إلى المقهى.كان على كتفي صندوق لامع علقت عليه صورتين، إحداهما لحصان أبيض. وهكذا بدأت أعيش من جديد في المقهى !

لقد عوّدني ذلك الصندوق عادات سيئة. أصبحت أنظر إلى الناس من تحت، وأصبحت الأحذية والجوارب عالمي الجديد والوحيد !

هل جربت أن تجلس على كرسي صغير وتنظر إلى وجوه الناس فوقك ؟ لو حاولت ذلك لاكتشفت أشياء عجيبة. كانت تبدو لي الأنوف كبيرة، كبيرة جداً. أما العيون فإنها مثل الخطوط الطويلة السوداء، ولكنها مقطوعة النهاية. والذقون كأنها قطع من اللحم التصقت بالوجوه في اللحظات الأخيرة. هكذا كانت تبدو لي الوجوه وأنا أنظر إليها من تحت.

أما الأحذية والجوارب فإنها عالم عجيب أيضاً. أحذية ملونة، وأخرى بلون واحد. سوداء، بنية بيضاء.. والجوارب: ممزقة، وحريرية. نظيفة وأخرى لها رائحة لا يطيقها الخنزير. والناس أياً كانت الجوارب التي يلبسونا يضحكون، ويلمعون أحذيتهم أيضاً، وأخيراً يقدمون إليك القطع النقدية الصغيرة، دون أن ينظروا.

وفي عالم الأحذية الكريه، كان الفقراء افضل من الأغنياء.كنت أعرف الفقراء من أحذيتهم، من ابتسامتهم، من السيجارة التي يمدونها إليك. وقد تعلمت الغش في صنعتي الجديدة. كنت أمسح أحذية الفقراء بإخلاص لا يعرفه أي مساح أحذية غيري. كنت أفرك جلود الأحذية، حتى لكأني أريد أن أمزقها. أطيل التلميع حتى ليشعر هؤلاء بالحرج. أما الذين لا يتكلمون معي، لا ينظرون عليّ، فقد كنت أمر على أحذيتهم بقرف، وأنظر إليهم بحقد !

رواية: التبر

إبراهيم الكوني[1]

(١)

عندما تلقاه هدية من زعيم قبائل آهجّار[2] وهو لا يزال مهراً صغيراً كان يطيب له أن يفاخر به بين أقرانه في الأمسيات المقمرة ويتلذذ بمحاورة نفسه في صورة السائل والمجيب: 'هل سبق لأحدكم أن شاهد مهرياً[3] أبلق؟'. ويجيب: نفسه: 'لا'. 'هل سبق لأحدكم أن رأى مهرياً ينافسه في الكبرياء والشجاعة والوفاء؟'. 'لا'. 'هل سبق لأحدكم أن رأى غزالاً في صورة مهري؟'. 'لا' 'هل رأيتم أجمل وأنبل؟'. 'لا. لا. لا. اعترفوا انكم لم تروه ولن تروه'. يقفز إلى الخلاء، ويجدل مقلداً رقص المجذوبين حتى إذا تعب، أنهار على الرملة، واستلقى على ظهره، ورفع صوته بأحد تلك الألحان السحرية التي يتحصن بها الفرسان

---

[1] ولد إبراهيم الكوني في غدامس ليبيا عام ١٩٤٨م، أنهى تعليمه الابتدائي في غدامس، والإعدادي والثانوي في سبها، وأوفد إلى موسكو فحصل على درجتي الليسانس والماجستير في العلوم الأدبية والنقدية من معهد غوركي للأدب العالمي بموسكو.

عمل موظفاً في وزارة الشؤون الاجتماعية، وفي وزارة الإعلام والثقافة، ومحرراً صحفياً في صحف: البلاد – الثورة – فزان (ومستشاراً إعلامياً للمكتب الشعبي الليبي في وارسو، وموسكو، وسويسرا. حضر وشارك في عدد من المؤتمرات والندوات المحلية والعربية والعالمية، ونشر إنتاجه في الدوريات المحليّة والعربية والأجنبية، وقدّم وأعدّ برامج إذاعية. له عدد من الدراسات منها: نقد الفكر الثوري، ومن أشهر أعماله الروائية: المجوس، نزيف الحجر، عشب الليل، السحرة، التبر، ترجمت أعماله إلى اللغة الانكليزية، والفرنسية، والألمانية، والروسية، والإيطالية، والإسبانية، والهولندية، والنرويجية، والبولونية، واليابانية، والصينية، والمجرية، والبلغارية، والتشيكية، والتركية، والجورجية، والكازاخية، والأوكرانية، والأوزبكية، وغيرها.

عمل مندوب جمعيّة الصداقة الليبية والبولونية المقيم، ورئيس تحرير مجلة الصداقة باللغة البولونية.

نال جائزة اللجنة العليا للآداب السويسرية، جائزة الفاتح التقديرية للفنون والآداب، وجائزة اللجنة العليا للترجمة إلى اليابانية.

[2] - أهجّار: قبائل عريقة تستوطن جنوبي شرق الجزائر.

[3] - الإبل المهرية: تجانب تسبق الخيل، منسوبة إلى قبيلة مهرة بن حيدان من اليمن.

المسافرون في الفلاة كتعويذة ضد الوحشة حتى يختم موالـه الحزين بالأبيات المعروفة:

آسد ينكرد أمود نكفي تيزداج.

إذ شاغت تاجنين يتجر نيمزاد[1]

وبلغ به عشقه للأبلق أن قصد شاعرة معروفة من قبائل 'كيل أباد'، وطلب منها أن تقرض قصيدة مديح للمهري، تمجيد خصائله، وتطري مواهبه أسوة بالفرسان والأبطال من المحاربين. وجلس طوال المساء يحصي لها خصائص الأبلق: 'ابلق، رشيق، ممشوق القوام، نبيل، شجاع، وفيّ'. ولكن الشاعرة الخبيرة قاطعته فجأة: 'لا يعيب الفارس أن يعدد خصائص مهريه ويتحدث عنه كملاك، ولكن لقصائد المديح شروطاً. مهريك لم يذع صيته في معركة، ولم يشتهر في حفلات الرقص'. ارتبك 'أوخيد' وأخفى خجله خلف زمالته. ثم قال فجأة: 'ولكنه أبلق. يكفي أنه ابلق. هل سبق أن رأيت مهرياً ابلق؟'.

قبلها أوكل للأتباع مهمة ترويض المهري وتدريبه على الشكيمة، ولكن رأى أنه من العار أن يسند إليهم مهمة ترويضه على الرقص أيضاً.

التدريب على الرقص في حضرة الحسان مهمة الفرسان في الصحراء .

(٢)

قبل أن يدخل به في حرم الحلقة حرص أن يعتني له بالزينة، استعار أغلب المستلزمات... السرج والفرش والشكيمة والجرب والزمام وحتى السوط. لباسه القديم باهت وشاحب. أكلته الشمس ولا يصلح لتزيين مهري يتأهب للدخول في حرم الحسان ليتدرّب على التمايل على أنغام الموسيقى والإيقاع.

قضى نهاراً كاملاً وهو يعدّ له ثياب الحلبة. السرج صنعه أمهر الحدادة في

---

[1] - آسد ينكرد امود نكفي يتزداج، إذ شاغت تاجنين يتجير نيمزاد' (عندما اقبل امود استقبلناه بعهاري الحرب. واعطيناه فرساناً لا يخطئون الهدف). مطلع قصيدة طويلة لتمجيد الزعيم امود في حملاته لصدّ الغزاة الفرنسيين.

غاب، والفرش كليمة مزركشة جاء بها التجار من 'توات'، والشكيمة ضفرتها عجائز قبيلة إيفوغاس في غدامس، والجراب طرزته أنامل حسناوات 'تامنغست'. أما السوط فهو قطعة نادرة، مغطاة بخيوط الجلد التي نُقشت عليها تمائم السحرة في 'كانون'. ويعتقد الحكماء في القبيلة أن السوط دسّه له الحسّاد من أقرانه، فلعب دوره في التخريب وترتيب الفضيحة.

دخل الساحة بعد الظهر. في السهل تحلقت النساء حول الطبول، وكوّن الصبية حولهن طوقاً واسعاً، واتخذ الشيوخ موقعهم على المرتفع الجنوبي، واجههم من الناحية المقابلة الرجال والشباب وهم يتوّجون رؤوسهم بالعمامات الفخيمة الزرقاء، ويتهادون في خطوهم بكبرياء الطواويس. وربطت المهاري في الأفق على جانبي العراء. صف تأهب في الغرب والصف المقابل رابط شرقاً. كانوا يزفّون مطلقاً مزواجاً من الأتباع اختار أن يتخذ خلاسيّة حسناء رفيقة، مقرراً أن يذوق طعم الدم الممزوج بحرارة الزنج!

بدأ الاستعراض بالتشكيلات الثنائية.

بادر فارسان رشيقان من الجهة الغربية أولاً، فانطلق فارسان في مقابلهما من الناحية الشرقية، وتقاطعا بجوار حلقة الرقص، وكوفئا بعاصفة من الزغاريد.

تهيأ 'أوخيد' للانطلاق. بجواره مهمة العبور.

اقترب القادمان من الجانب الآخر. اقترب الشاب بمهري حتى كاد يلتحم بالأبلق وقال:

- يحق ليّ اليوم أن أتباهى بمرافقتك. الأبلق مهري فريد في الصحراء. ثم غمز بعينه المخفية في الكتان الأزرق. تألق شاب من الأتباع معمماً بـ 'تجولوست' ومطوّقاً بحزام جلدي بديع، يجلس في سرج منمنم مثبت على ظهر مهري رمادي أنيق. الشاب سيرافقه في الملاحظة أزعجت أوخيد. لأنه لم ير صدقاً في عيني رفيقه.

انطلقا.

انطلقا متلاصقين، ثابتين، متكبرين، متناسقين،منسجمين، فماش أوخيد في هذه المسافة القصيرة، الفاصلة بين العراء الممتد غرباً حتى حلقة الغناء في الوسط، دهراً من السعادة. كان إقبال المهريين المتلازمين بطئياً متوازناً، ولكنه أحسّ أنه يطير في الفضاء على جناحين وقلبه يكاد ينفجر بالسحر والشجن والفرح الخفي. أسرته الموسيقى، فماش رهين الرقص والوجد والشوق المجهول، وأحس ان الأبلق البهيّ يشاطره نفس الأحاسيس الشجيّة حتى بلغا الحلقة. لم يعرف كيف حدث ذلك. أفاق من الحلم فوجد أن رفيقه قد مضى يتهادى نحو صف الفرسان، ناحية الشرق، وانحرف الأبلق يساراً، ودار حول حلقة الرقص. تضاحك الصبية، فشعر بالعار. امتدت يده إلى السوط السحري كي يحث الجمل على الانطلاق واللحاق بالرفيق. وما أن أحس الأبلق بوقع السوط على جسده حتى ركبه الجنون. لم ينحرف يميناً ويلحق بقرينه، إنما رفس حلقة الصبية وفقد وقاره تماماً. عاود يمسّد فخذه بالسوط فاشتد جنون الحيوان، اخترق حلقة النساء، وحطم طبلاً أنيقاً مغطى بجلد غزال، فتفرقت النسوة، وتوقف الغناء. علت الهرجة. شد اللجام حتى طوّق رأس المهري الهائج بين ساقيه. ولكن هذا التدبير لم يوقف حركته الفوضوية في ساحة الرقص.

استمر يرفس بخفّيه كل شيء في طريقه ويرغي ويلوك الزمام بوحشيّة. ثم بدا الزيد يتطاير على النساء في كتل منفوشة ناصعة. هرعت إليه كوكبة من الجبابرة الراجلين وحاصروه بالحبال. قاومهم أيضاً فاضطروا إلى أن يصرعوه على الأرض. صرعوهما معاً في ساحة الرقص.

(٣)

هذه ليست المرة الأولى.

سبق له أن ورّطه في فضائح أفظع.

فقد تعوّد أن يقوم بغزواته العاطفية الليلية إلى النجوع المجاورة على ظهر الأبلق. يسرجه بعد المغيب وينطلق إلى ديار المعشوقات فيصل بعد منتصف الليل. يوافقه بالعقال في أقرب الأودية ويتسلل في الظلمات إلى خيم الحسان. يتغازل ويتسامر ويختطف القبلات حتى ينفلق أفق الصحراء عن الضوء، فيتسلل إلى الوادي ويقفز فوق السرج وينطلق عائداً.

تكررت الغزوات حتى اكتشف أن أبلقه الرشيق قد وقع في غرام ناقة حسناء تملكها قبيلة تعودت أن تقضي الربيع في وادي 'المغرغر' واعتاد هو، أن يزور فاتنة من بنات تلك القبيلة النبيلة. يتركه يرتع في قاع الوادي مع الإبل، ويذهب إلى فتاته في المضارب. ولم يغفل عن مشاعر مهريه العاطفية. فقد لاحظ هيامه بالناقة البيضاء منذ زياراته الأولى. وازداد يقيناً بعدما رأى كيف يطير الأبلق إلى 'المغرغر' ويحترق شوقاً للسفر الليلي.

فكان يشاكسه ويقول:

-لماذا تغبطُ عنّي؟ اعترف أنك تطير إلى محبوبتك ولا تطير بي إلى محبوبتي. اعترف أن لا فضل لك في الطيران هذه المرة ! الأنثى هي السببُ هي السبب دائماً!.

-فيرد عليه متميلاً، ينثر الزبد، ويمضغ الوسن في عدوه السعيد:

-أو . ع . ع . ع .....

فيضحك أوخيّد، ويستمر في مداعبته.

حتى جاء يوم تفتق فيه الرتم عن زهوره الشجيّة.

عَقَلَهُ في الوادي، وتركه يرتع بجوار الرتم الفوّاح. ولم يكن يدري أن زهور الرتم هي الإشارة إلى أن الربيع حلّ في سهول الصحراء. وإذا حل الربيع فإن موسم الخصوبة والتناسل إلى الجمال فتهيج ويركبها الجنّ.

هذا ما حدث في ذلك اليوم.

لم يمض وقت قصير على تمتماته حتى سمع هدير الحيوان

الهائج. في البداية ظنّ أنه رعد بعيد، فاستمر في ملامساته ومداعباته، فعاد الهدير يعلن عن نفسه بجنون أعنف. قفز من الخباء وهرع إلى الوادي. هناك أشتبك الأبلق مع جمل رمادي كريه في أشرس وأنبل معركة: كانا يتبادلان للفوز بالناقة! تفتق الأفق عن ضوء الفجر. تبيّن في العتمة جراح المهري. مزّقه غريمه بأنيابه في الرقبة والفك، وأصابه في الفخذ الأيسر بجروح بليغة.ولكن الجمل البشع تلقى أيضاً الإصابات ونزف الدم. كان جسمه كله ملوثاً بالدماء.

الهرجة أيقظت الأهالي، فاندفع الرعاة إلى الوادي مسلحين بالهراوات. نجحوا بعد قتال طويل في أن يفصلوا بين الخصمين.

تدفقت الشمس، فأحس أوخيّد أنه ضبط عارياً. جاء شباب القبيلة إلى الموقع فرأى في عيونهم الاستنكار. عيونهم تقول إنهم يعرفون كل شيء.

قادوه إلى شيخ القبيلة. عجوز نحيل، طويل القامة يمسك بعكاز أنيق من السدر مطوق بدوائر جلدية موسومة بنقوش دقيقة. في وجنتيه تنشي غضون عميقة، ولكن في نظرته تلوح عفوية وعافية ومرح مجهول. أمر بإعداد الشاي ودعاه إلى الجلوس على الكليم في الخيمة. قلّب عكاز السدر بين يديه، وقال بوقار:

-لا يعيب الرجل النبيل ان يعشق أو يهاجر للقاء، ولكن ما ضرّنا لو عملنا بشريعة المسلمين ودخلنا البيوت من أبوابها؟

-ثم ابتسم وأضاف:

-يسرنا أن نستقبل ابن شيخ امنفساتن في ديارنا. فله يرجع الفضل في صدّ الغزاة الأغراب ووقف توغلهم في الصحراء.

-فهم 'اوخيّد' أن الشيخ الحكيم إنما أراد أن يليّن ويهدّئ الشباب بحديثه عن الغزوات العاطفية وإشارته إلى دور والده في التصدّي لغزاة الصحراء. شيوخ القبائل لا ينطقون بكلمة عبثاً، ويسروق لهم أن يستعملوا الإشارة في

لغتهم.

جاء أحد رجاله بالأبلق المثخن بالجراح. كان ملوثاً بالدم والزبد والعرق والغبار.

صاح الشيخ الحكيم في رجاله:

- ما هذا يا ربّي؟ كيف لم تقولوا لي إن ضيفنا النبيل يملك مهرياً بهذا الكمال؟ مهري أبلق رشيق مثل الغزال. هذه سلالة انقرضت من الصحراء منذ مائة عام. فمن أين حصلت عليه بالله؟.

قال أوخيد محاولاً أن يستر عريه:

-من زعيم آهجار. هدية منه عندما بلغت سن الرشد.

-آه. زعيم آهجار. إبراهيم بكدة. هذه فضيلة تليق ببطل مثله. لن يقدر على تقديم هذه الهدية غيره. لدى القبائل العريقة دائماً مفاجآت وأسرار.

-...

-عندما يقولون عن المهري مرآة الفارس. إذا أردت أن تنظر في الفارس وتقف على خفاياه، فتفقّد فرسه، مهريه. عليك بالمهري إذا أردت أن تعرف صاحبه. الآن أستطيع أن أقول إنك شاب لا ينقصك الكمال. من يملك مهرياً مثل هذا الأبلق لن يشكو من نقص القيم النبيلة. شرّفت ديارنا أيها الفتى لكن يؤسفني أن أقول لك إن فرصتك في تولي القبيلة بعد أبيك ضعيفة. لدى الشيخ أبناء أخت ثلاثة حسب علمي(١).

ولكن من يدري. ربما حدثت معجزة. باب المعجزات دائماً مفتوح.

قام شاب عملاق، صارم الوجنتين، خشن اليدين، بتوزيع الدور الأول من الشاي الأخضر.

١- لدى الشيخ أبناء أخت ثلاثة: يرجع الطوارق في النسب إلى الأم. فابن الأخت هو الذي يرث وليس الابن، وهي تأثيرات المجتمعات الأمومية.

رشف الشيخ طربوش الرغوة. ووضع الكوب على الأرض، وقال:

-ليسمح ضيفنا النبيل أن نكرم مهريه أيضاً. فطالما يتأفف الفارس من الدخول إلى بيوتنا من أبوابها فلا بأس أن يفعل المهري ذلك.

ابتسم، فابتسم أغلب الحاضرين. أوخيد لم يفهم الرمز. لم يدرك تلميح الشيخ، فعاد العجوز الحكيم يعلن:

-إذا أفلت الفارس من حسان القبيلة، فلا يجب أن يفلت المهري النادر من نوق القبيلة. أنا أرى أن تستأثر نوقنا به. نريد نسلاً من السلالة المنقرضة. المهاري البلقاء في إبلنا عمل ستحسدنا عليه كل القبائل. إحياء السلالة البلقاء وحمايتها من الانقراض واجبنا. ما رأي ضيفنا؟

لم ينظر رأي ضيفه. أمر بتمكين المهري من النوق، فشاهد أوخيد في ذلك اليوم الأول مرة كيف يلقح الذكر أنثى البعير.

جاؤوا بالناقة الناصعة وأناخوها في العراء. علقوا قوائمها الأمامية والخلفية. ثم قادوا إليها الأبلق الهائج وتكأكأوا حولهما. برك فوقها حتى خيل لـ 'أوخيد' أن ضلوع الناقة المسكينة قد تكسرت. ترغي وتستغيث وتتقيأ كتل الزبد المنفوش. أعاق الذيل المهمة، فأمسك أحدهما به، ورفعه إلى أعلى. تصدّعت البيوت بالعويل، فخرج الأطفال والنساء للفرجة.

اصطفوا في طوابير كثيفة أمام البيوتُ. بين الحين والآخر يضحك العجوز ويلوّح بعكاز السدر في الهواء ويردد: 'إذا أفلت الفارس فلا يجب أن يفلت الأبلق'.

كانت تلك عملية فظيعة. كلما تذكرها أوخيّد أحس بالغثيان والخجل.

(٤)

واصل مغامراته مع النوق السارحة في مراعي الصحراء، فكلّفته الفحولة العمياء داء الجرب. عاد من إحدى الغزوات كئيباً. انطفأ بريق المرح في عينيه

الكبيرتين ودلى شفته السفلى أكثر. وقف في العراء هادئاً، صامتاً، يشيّع الأفق المتراقص في ألسنة السراب السماوية، بنظرة حزينة.

كان خجولاً.

لاحظ أوخيد كآبته، ولكنه لم يكتشف السرّ إلاّ بعد أيّام. تفحص وبره البهي وهو ينزع شوك السدر من جلده المبقّع ويتفقده من القراد. فتوجع المهري، وصاح من الألم. جاء بالمقص، وأختار موقعاً حلق منه الوبر الكثيف. تعرّى الموقع عن المرض اللئيم. اسودّت الجلدة، وأكلت لحم الحيوان.

بعد أيام لاحظ أن الجرب ازداد توسعاً والتهم مواقع جديدة من جسد الأبلق. ذهب إلى حكماء القبيلة طلباً للمشورة. اجمعوا على أن الأمل ضعيف في الشفاء. إذا تمكّن الجرب من البعير فلا أمل. لم يفقد الأمل. لم يتصور أن توجد قوّة تخطف منه أبلقه. الخبير بداء الحيوان العمى هزّ رأسه، وأجابه على استنكاره: "أبيه يا ولدي، بعد الضحك يأتي البكاء".

الفرح يعقبه الحزن، والموت يأتي في غفلة الحياة".

لم يقتنع.

لم يخلق الأبلق للموت. تذكّر كيف رعاه وربّاه عندما تلقاه من الزعيم المهيب وهو لا يزال مهراً. كان يسرق الشعير من الخباء ويطرحه في راحتي يديه ويقدمه له. مع تكرار الفعلة افتضح أمره وشكته الخادم الزنجية إلى أمّه قبل أن تموت. الأم أخبرت الأب، فوبّخه قائلاً: "حتى الناس محرومة من الشعير وأنت تعطيه للدابّة". أجاب أباه يومها: "الأبلق.. ليس دابة. الأبلق هو الأبلق". ضحك الأب الذي لا يبتسم إلاّ نادراً، وهدّده بسبابته ربما إعجاباً بجوابه.

أكثر ما يثير سخرية الأهالي في النجع أن المهري الصغير يتجوّل معه بين المضارب ويقتفي أثره كالكلب. يهرول وراءه حتى عندما يذهب للسهر في ليالي السمر في العراء ولا ينام إلاّ عندما يهجع هو للنوم. يرافقه حتى عندما يسرح

في الخلاء كي يقضي حاجته. وهذا أكثر ما أضحك عليه أقرانه، ولكنه لم يهتم. يستسلم لتمسّحات الجمل ومداعباته ويجيب أقرانه، الحمقى: 'الشيخ يقول ذلك'. الشيخ موسى يقرأ الكتب ويتلو القرآن ويؤم الناس في الصلاة. وهو مقطوع. لا زوجة ولا أولاد ولا أقارب. يعيش متنقلاً مع القبيلة برغم أنه ليس من القبيلة. ويقال إنه جاء من غرب الصحراء.. من 'فاس' بلاد الفقهاء وعلماء الشريعة. الشيخ موسى هو الذي تمتم له بالسرّ وخلّص أبلقه. قال له: 'الكلام بيننا ولكن شفاء جملك في آسيار[1]. لا تضحك عليّ واسمع كلامي. إذهب إلى قرعات ميمون في الربيع القادم: آسيار لا ينبت إلا في تلك السهول. أوثق المهري جيداً حتى لا يفرّ واتركه يرتع يوماً أو يومين وسوف ترى'، ثم كرر له بلغة غامضة: 'لا تنس أن تعقله جيّداً'. نعم. آسيار في القبيلة مرادف للجنّ والجنون. من ذاقه جنّ سواء أكان ذلك حيواناً أو إنساناً. وخشية الأهالي من هذا النبات الخرافي متوارثة. أول ما يعقل الولد الحياة الدنيا وتسلّم له أمر الجديان يقولون له: 'إياك أن ترعى الجديان في قرعات ميمون. هناك آسيار. في العشبة ألف داء. ولكنها تمرّ كلها من باب الجنّ. الجنّ هو الذي يملك المفتاح إلى الشفاء من الألف داء. إذا استولى عليك شفاك من أي مرض. ولكن ما فائدة ان تشفى من الداء إذا كنت ستفقد عقلك؟ من فقد عقله فقد نفسه. إيّاك من آسيار في قرعات ميمون!'.

قرأت أمّه على رأسه هذه التعويذة أيضاً عندما وعى الدنيا وتهيأ للانطلاق كي يرعى الجديان في الوديان.

سرّ الشيخ موسى أرعبه. هل سيجنّ الأبلق؟ هل سيفقد عقله؟ كيف يفقد

---

[1] – آسيار: يعتقد انه بقايا السلفيوم. وهو نبات اسطوري يعطي طاقة هائلة. انقرض من ليبيا في القرن الثالث قبل الميلاد. ويجمع المؤرخون القدماء انه كان دواء سحرياً لكل الأمراض المعروفة في العالم القديم. وكان ملوك ليبيا القدماء يصدرونه إلى مصر وما وراء البحار.

إذ ويعتقد الكثيرون أن فيه يكمن سرّ التحنيط إذ استخدمه الفراعنة لهذا الغرض.

الحيوان عقله؟ هل تجحظ حدقتاه وتحمر مقلتاه ويعلو الزبد شفتيه ويحطم رأسه على الأحجار كما يفعل الرجال المقيدون بالوجد في حفلات السمر الليلية، أو الدراويش من أتباع الطرق الصوفية الذين يطوفون على النجوع ويهيمون في البرية، يضربون الدفوف ويجذبون طوال الليالي؟

لا. لا. هذا مصير أتعس من الجرب. طاف به النجوع بحثاً عن الخبراء العليمين بداء الحيوان، لم يطق أن يرى صديقه يعاني من الاضطهاد على أيدي الرعاة الأشقياء. عزلوه عن قطعان الإبل خشية العدوى، وتركوه يرتع وحيداً في المراعي، فآثر أن يرافقه بنفسه في محنته. يذهب معه إلى المراعي منذ الفجر ولا يعود إلا في الليل. يقسو عليه أحياناً فيوبخه قائلاً:

'هذه نتيجة طيشك. ماذا كسبت الآن من مغامراتك؟ ألم تسمع كلام الشيخ موسى؟ الأنثى أكبر مصيدة للذكر. سيدنا آدم أغوته امرأته فلعنه الله وطرده من الجنّة. ولولا تلك المرأة الجهنميّة هناك ننعم بالنعيم ونسرح في الفردوس. في الحفر دائماً تختبئ الأفاعي والعقارب، تلدغ كل مستهتر يحشو عضواً من أعضائه هناك. فماذا فعلت بك ناقتك الناعمة؟ هي أيضاً أفعى. ناعمة ولكنها تلدغ. العدوى هي الثمن، فتحمّل الآن واصبر'.

يسبل الحيوان جفنيه خجلاً ويجيبه في ندم ' أو – ع – ع – ع'. يبتسم أوخيّد بمرارة ويواصل: آه. الندم، الندم لا يفيد. ماذا سنفعل بداء كالجرب؟ إلا تفهم أنه أخطر من الوباء. اخطر من الجدري ومن الطاعون؟ إنه. إنه.. اللّهمّ احفظنا. أنت لا تفهم أن الحياة كلها مصائد. إذا لم تتته لمواقع رجلك وقعت في الفخ. يا لطيف! ولكن معك حق. أنا أيضاً ساهمت في غفلتك لأني شاركت في تربيتك: أمّك لم تنعم برؤياك جملاً عندما جاءني بك الزعيم الجليل. ولكن قل لي بالله: كيف أنير عقلك إذا كنت أنا نفسي مثلك أحتاج إلى من يعينني على تنوير عقلي؟ الغشاوة قدرنا، والمصائد هي التي تعلّم الحيلة. آه. الغفلة.

الفضلة. اقترب المهري الحزين وتمسّح بذراعه. تألم أوخيّد مغيراً لهجته: لا يهم. لا يهم. لا بد أن نجد حيلة. أصبر فقط. لا بد أن تصبر كثيراً إذا أردت أن نخرج من الورطة. الحياة هي الصبر كما تقول العجائز.

أخذ رأسه في حضنه، ووقف طويلاً في المرعى يعزيه.

الصدّيق يراعي نفس بهيمته. أمّا مراحم الأشرار فقاسية.

العهد القديم

سفر الأمثال

الإصحاح الثاني عشر

(٥)

في تجواله بين النجوع حصل على زيت غريان من رعاة قبائل أولاد بوسيف. جزّ الوبر ومسّد الجلد المسودّ بالزيت ثلاث مرات في اليوم. لانت الجلدة بعد أيام ولكن السواد ظلّ يأكل الجسم وينتشر إلى أسفل ليطوّق البطن ويلتهم القوائم. خبير آخر عليم بداء البعير جاء من آير[1] برفقة قافلة تجار أعطاه مرهماً معتماً في قنينة صغيرة وقال إنه استحضره من الأعشاب. استعمل الدواء حتى نفد. بعد أسابيع تساقطت الجلدة السوداء فنزّ الدم ولم يلتئم الجرح. ما عاد يطيق أن يرى خيوط الدم وهي تقطر من جسم الأبلق. في عيون الناس رأى الشفقة والتعاطف.. تعاطف معه لامع الحيوان المصاب.

الأبلق الآن ليس أبلق. اختفت البقع البديعة من الجسد الرمادي. اختفت النظرة الذكية من العينين الساحرتين. القوام الرشيق الممشوق تحول إلى هيكل أسود مترهل مبقع بالظلمة. خيال شاحب وبائس لكائن آخر. سبحان الله كيف يصنع ذلك مع الناس أيضاً. المرض الطويل يفعل ذلك.

---

[1] - آير: الصحراء بين مالي والنيجريا.

في هذه المرحلة لم يعد الأبلق يقترب منه في النهار. يقضي اليوم مهموماً يتابع انسياب الملائكة في سراب الفق. أصبح يخجل من مداعباته أمام الناس. وحتى إذا أقبل إليه ليمسده بقطرات الدواء يتملّص ويحاول أن يفلت. وفي بعض الأحيان يشتكي في بؤس: 'أو و - ع - ع - ع....'

في تلك الأثناء يتسلل إليه مع الظلمات بعد أن يكون كل شيء في الصحراء قد همد ومات. ولا يبقى في عمق الليل إلا الجن، يسعون في العراء ويهمهمون بالمحاورات الخفية. يزحف المهري المسكين ويدس رأسه في لحاف صديقه النائم.. صديقه الذي يعاني الأرق ويحاول أن يختطف إغفاءة قبل أن يضرب الفجر الأفق بالنور. يتمسّح بالغطاء ويتحسس بشفتيه المتدليتين الأجزاء المكشوفة من جسمه ثم يدس رأسه المستطيل داخل اللحاف مصدراً أنيناً موجعاً. يحيطه أوخيّد بذراعيه ويبكيان معاً، كل منهما يمسح دموع الآخر بلسانه، يتذوق طعم الملح والألم. عندما تنزل ظلمات الموت لا يملك المخلوق إلا أن يبكي ويلعق الدمع والألم. يخرج أوخيّد رأسه ويرفع بصره إلى القمر الخجول الشاحب ويشكو: 'لماذا يخلق الله الخلق إذا كان الموت بالمرصاد؟ لماذا يتعذّب المخلوق قبل أن يموت؟'. ثمّ يعضّ شفته ويردد: 'لعن الله الأنثى! لعن الله الأنثى!'

وفي يوم ملّ الشكوى.

قال لصديقه في الليل، تحت الغطاء، حتى لا يسمعهما مخلوق: 'خلاص. يكفي شبعنا من العذاب. يجب أن نفعل شيئاً حتى لو كان جنوناً. سنجرب حيلة الشيخ الحكيم، علماء الشريعة القادمون من فاس حكماء. الصحراء كلها تعرف ذلك. حتى لو كان ثمن ذلك هو الجنون فماذا يضرّ المخلوق أن يكون مجنوناً؟ ثم ألا ترى أننا سنجنّ ذقنا آسيار أو لم نذقه. أنا وأنت في طريق الجنون. لا

أريد أن أرى جسدك يتساقط قطعة قطعة. سأجنّ قبل أن تموت. نعم. أنت ستموت وأنا سأجنّ. هل رأيت ماذا يمكن أن تكلف حماقة صغيرة في ساعة صغيرة؟.

سافر إلى الحمادة الغربية. توجه إلى النصب الوثني القديم القائم بين الجبلين. ولم يكن يعلم أنه لو تأخر في سفره أياماً أخرى لنجح الوالد في قتل الحيوان المريض.

الأب كان يخطط لإنهاء الألم بإطلاقه رصاصة على رأس المهري الأجرب.

(٦)

في مدخل الجبلين المتقابلين، في خلاء لا ينتهي، وقف نصب المجوس في صدر ربوة وحيدة. في الزمان القديم لم يظنوا أنه صنم. كان الضريح مزاراً للجميع.. حتى الفقهاء وعلماء الدين. اجمع الجميع أنه ولي شهد بداية الفتوحات. بل قالوا إنه أحد الصحابة مات عطشاً في الصحراء وهو يجاهد في سبيل الله. فقصده الرجل في الصحراء، يأتون خلسة أو يجيئونه زمراً. ينحرون له القرابين ويسفحون دم النذور. حتى جاء العرّاف الوثني من كانوا. زنجي عجوز يزين رقبته المجعدة بالغصون، بعقد من أصداف النهر. يضع على رأسه عمامة سوداء. جبّته الفضفاضة أيضاً سوداء. يقال إنه مثل الغراب. يتنقل وحيداً على ناقة عجفاء ويكره العرّاف المخيف أول من حطم الأسطورة وقرأ الرموز المحفورة على قاعدة الصنم. قال إنه اللقب لإله صحراوي قديم. وتوصّل إلى فكّ الشيفرة في أبجدية التيفيناغ، ولكنه رفض أن يبوح بالسرّ المحفور عند قدمي الإله. وبعد شهور وجدوه ميتاً في السهل المجاور دون أن يتمكّن الأهالي من حملة على إفشاء سرّ التميمة الوثنية قبل وفاته المفاجئة.

قاعدته صخرية مثلثة الزوايا. في نهاية المثلث تُجسم صورة الإله مباشرة

بصخرة كبيرة. فوق الصدر، ارتفع الرأس، فتم الاستغناء عن الرقبة أيضاً.

ملامحه خفية تنطق آلاف السنين. الأحجار التي تعوّدت أن تتلقى التوسلات أمداً طويلاً تكتسب هذه الملامح فقط. خليط من اللين والقساوة، الرحمة والانتقام، الحكمة والكبرياء، و.. الصبر.. صبر الخالدين الذين ألفوا غدر الزمان ووحشة الوجود. العين اليمنى أكلتها رياح القبلي المحملة بالحصى والغبار. ورياح آلاف السنين. أكلت العين جزءاً من الوجه. أما الناحية اليسرى فما زالت تنطق بتاريخ الصحراء الحزين، تتجه صوب الجبل الشمالي، تنظر إلى أعلى، نحو القمة الملفوفة بعمامة خفيفة زرقاء. حول الوثن انتشرت بقايا عظام قديمة. تفتت بعضها وظلّت أطراف أخرى سالمة.. أطراف النذور القديمة.

أناخ أوخيد أبلقه الأسود، ووقف طويلاً يحاول ان يقرأ أسرار الصحراء في هيئة الصنم الخفي. أخيراً ركع ورفع يديه وصاح: 'يا وليّ الصحراء. إله الأولين. أنذر لك جملاً سميناً، سليم الجسم والعقل. اشف أبلقي من المرض الخبيث واحمه من جنون آسيار. أنت السميع. أنت العليم'. ثم عفّر جسم المهري المتآكل بتراب الضريح، وتوسده ونام حتى توهجت الصحراء ببهاء الفجر. صنع كوباً من الشاي الأخضر، وواصل رحلته إلى القرعات الغربية.

في الليل، عندما توسد الحجر ونعس، رأى الأبلق يغرق في الوادي، جرفه السيل المباغت وابتلعه. وتشبث باللجام ونازع الماء البارد. السيل ينتزعه وهو ينتزع المهري من الجهة الأخرى. سقط مرات على ركبته الأماميتين وغرق في الماء العاتي حتى اختفى رأسه. قاوم. وشدّ هو الرسن من الناحية المقابلة. لاحظ تقصّد الدم من خياشيم الحيوان المناضل، وخشي أن تتمزق الشفة الملجومة. استمرّ الصراع طويلاً.. طويلاً جداً.

حتى خف الهدير ونزل مستوى الماء المعتم في الوادي الهائج. ثم رأى

لدهشته أن الماء الداكن يتحول إلى رجال شياطين يشدّون مهرية من ذيله إلى أسفل عازمين أن يرموا به في هاوية ظلماء. أفاق من نومه ورأى الوهج الأول يشق ظلمات الفجر.

فكر طويلاً في هذه الإشارة. أحلام الأضرحة تستدعي خبرة العرافين في التفسير. الشيخ موسى فهيم في رؤى المقابر الإسلامية. أمّا عرافو كانو فوحدهم يتخصصون في قراءة الرؤى التي توحي بها الأضرحة القديمة.. الأضرحة الوثنية. عرافو كانو يرافقون قوافل التجار في الصحراء، فأين يستطيع أن يرابط للقوافل؟ لا ينبغي الأستهانة بوحي القبور. والمكابدة في البحث عن العلماء والعارفين واجب في شريعة المسلمين، مثل الجهاد في سبيل الله. هكذا يروي الشيوخ. ولكن أين يمكنه أن يجد عالماً في الأضرحة عبر هذا الخلاء؟ أين يقابل عارفاً بإشارات الأصنام؟

جدّه لأمه شيخ حكيم. إذا رأى رؤيا في نومه لا يغادر فراشه حتى ياتوا له بالعرافين ويفسروا له الرؤيا. ويتردد في القبيلة من يحلو له أن يقول: 'إذا حذرك الله وكشف لك السرّ فعليك أن تتمهّل وتتعظ وإلا فلا تلوم، إلا نفسك'. وقد أمن غدر الخائنين': الزمان والإنسان، فلم يباغته حدث ولم يفاجئه عدوّ. ويجمع الجميع أن كل حكمته كانت تنبع من عنايته بالإشارات الخفية. ويقال إن الموت أيضاً لم يفاجئه. رأى في منامه أنه يقف تحت السدرة الأسطورة[1] الضائعة في غرب الصحراء ويشرب من ماء البحيرة. فقال له العراف في الصباح: 'اعدّ نفسك للرحلة. إنها سدرة المنتهى[2]'. فحضر كفنه، وغسل جسده

---

[1] - السدرة الأسطورية الضائعة: أسطورة تتحدث عن سدرة في مكان ما من الصحراء، تحتها نبع، من وجدها وشرب من النبع عاش خالداً أبد الدهر.

[2] - سدرة المنتهى: وردت في القرآن في سورة النجم: "ما كذّب الفؤاد ما رأى. افتمارونه على ما يُرى. ولقد رآه نزلة اخرى. عند سدرة المنتهى". الآيات من ١١ إلى ١٤. وقد اولاها محي الدين بن عربي اهتماما كبيراً سواء في "الفتوحات المكية" أو "كتاب المعراج". يقول في سدرة المنتهى في "الفتوحات": "قلت حسبي حسبي. قد ملأ أركاني، فما

وارتدى أفخر لباسه، وانتظر ملك الموت. وظلّ يفعل ذلك كل يوم حتى لفظ أنفاسه بعد أسبوع من تاريخ الرؤيا.

(٧)

فوق 'قرعات ميمون' تدلّت سحب بنفسجية كثيفة وتلاحمت على رؤوس الجبّال المتباعدة في الخلاء الأبدي الممتد. كل جبل يقوم وحيداً في العراء، ويصطف في الطابور الذي يخرق الصحراء إلى شطرين. في المسافات الفاصلة بين الجبال المعزولة في بحر الأرض الطينية الحمراء، انتشرت دوائر العشب وفاحت الزهور البرية. نهاية الربيع. ولكن الشمس لم تتجبّر بعد. جنى بضع قطع من الترفاس[1]، وقتل ثعباناً بشعاً بالهراوة، ثم جدّ في البحث عن العشبة الموعودة.

مع الأصيل عثر على حقل كامل. ارتفعت النبتة الخرافية مسافة ذراع عن الأرض. وتخلت عن الساق الرقيقة الساحرة. في قمة الساق تكشفت زهرة صفراء، وفاحت بشذى غامض. زهرة الجن!.

جرّ الجمل إلى الحقل مغالباً القشعريرة والخوف.. خوف دسّه في رأسه ميراث الأجيال من الأساطير والإرهاب. قيّد قائمتيه الأماميتين بعقال الليف المتين. شدّ اللجام إلى الذيل، وحرص أن يترك الحبل مرتخياً حتى يعطى للرقبة حرية الحركة في أثناء الرعي. وقف متفكراً، محاولاً أن يتذكرّ حيل الجنّ. خاطب نفسه: 'العجائز تؤكد أن الجنّ ليس كالإنس. لا خبث ولا حيل للجن. الاختلاف في النبل. الجنّ أنبل من الإنس في المبارزة. إذا أسأت له أساء لك وإذا أحسنت له أحسن لك. الجنّ لا يعرف الخيانة. الجن يلتزم بقوانين اللعبة. المهم ان تعرف ما أنت مقدم عليه'.

بدا الحيوان الجائع يلتهم نبتة الجن، يملأ فمه،ويرفع رأسه نحو الأفق،

وسعني مكاني، وازال عني به إمكاني، فحصلت في هذه الأسرار معاني الأسماء كلها، فرأيتها ترجع إلى مسمّى واحد وعين واحدة، فكان ذلك المسمّى مشهودي، وتلك العين وجودي، فما حكمت رحلتي إلا فيّ، ودلالتي إلا عليّ".

[1]- الترفاس: هو الكمأ ينمو أساساً في الحمادة الحمراء وهو ثلاثة انواع: الأبيض والأسود والأحمر، حسب التربة.

ويلوك طويلاً قبل أن يبتلع اللقمة.

وقف يراقبه حتى المساء. أوقد النار، وشوى الترفاس فوق الجمر. لم يغفل عن ملاحظة الأبلق ولم ير بوادر الجنون. شبع وبرك في الحقل الأخضر، وانهمك يجتّر العشب المحرّم. خيل إلى 'اوخيد' أن البريق عاد إلى عينيه. الحياة عادت إلى المقلتين الميتتين. لم يتبيّن الحدقتين تماماً بسبب العتمة، ولكن الوميض الطيّب، الذكي، الهادئ، برق في ضوء النار مراراً.

تكاثفت الظلمات. عمّ السكون.. سكون لا يخدشه إلاّ اجترار الأبلق وهو يمضغ العشبة المسحورة. توسد ذراعه وهجع.

في الصباح تفقد صاحبه. يقظ ونشط. تدير رأسه يميناً ويساراً في التفاتات عصبية. إذن بريق البارحة لم يكن وهماً. عاد إلى العينين المصقولتين حقاً.

الحزن اختفى من الحدقتين السوداوين. الحمد لله. أهي بادرة للشفاء أم علامة على اقتراب الجنون؟ الشفاء مرتبط بالجنون. إذا لم يصب الحيوان بالخبل لن يطمع في الشفاء. إذا لم يذهب العقل لن ترى العافية. سبحان الله. ولكن لن ييأس. المعجزات تتحقق كثيراً في الصحراء. وهو لا يطلب معجزة كبيرة. لا يطلب سوى أن يذهب الجنّ بالأذى ويتركوا له صديقه. لم يتوقف عن الابتهال والتوسل والصلوات. ضريح الولي القديم لن يخذله. لن يفقد الأمل. ولكن أين سحرك يا آسيار؟ أين لوثتك؟ أين فعلك؟ هل البريق إشارة؟ آه. الإشارات . يجب الانتباه لفشارة. كما في الحلم. كما في الرؤى الخفية. الإشارات لغة الله. مهملها سوف يلعن في الدنيا. من أهلها نال القصاص. يا ساتر. يا ساتر.

كان البريق إشارة خفية حقاً، ففي اليوم التالي بدأت المعركة، بدأت مع الأصيل. وقف المهري مستنفراً. يحرك ذيله المشدود كأنه يطارد ذبابة وهمية.

ثم تبعته حركة الأذنين، ثم الجلدة المسودّ. الجلدة السوداء أيضاً انتفضت وارتعدت. حاول أن يفك القوائم الأمامية. في العينين، تحول الألق إلى قلق أيضاً. ثم بدأ يلوك الهواء ويتقيأ زبداً ناصعاً. تصاعدت الرغوة حول شفتيه ثم بدأت تتساقط على الأرض في قطع كبيرة منقوشة. من الجسد الملتهب تفصّد العرق. لم ير عرقاً حاراً وغزيراً على الجلد كما رآه يومها. بدا ينتفض ويحاول أن يحرر قوائمه من القيود. ثم.. رغى. رغى بصوت فجيع.. أليم. أحس أوخيد بالوخزة في قلبه. صاح بلا وعي وهو يسارع ويمسد على جسده:

-أصبر اصبر. الحياة هي الصبر. ألم نتفق؟ لو صبرت نلت الشفاء. أعرف أن الجنّ قوي ولكن الصبر أقوى من الجن.

ولكن المهري لم يصبر. اشتكى بصوت عال، طويل، أليم: - ى - آ - آ - آ...

تردد الصدى في القمم المعزولة في الفلاة الأبدية، وغابت الإبرة في قلب أوخيد. دار يميناً ويساراً. داعب رقبة الجمل. ازداد تدفق العرق. الزبد بدا يتفصد من الجلد بدل العرق. رغوة ناصعة كثيفة تغمر الجلد الأسود. انهار على ركبتيه الأماميتين ثم عاد وانتصب بحدّة. الألم في جوفة لا يطاق. الألم جعله لا يجد راحة في وضع ولا مكاناً على أرض. انتزع رأسه وانتفض، فتفصد الدم في خياشيمه حيث خرم اللجام.

همهم أوخيد:

-أوه. لا تحاول أن تفعل ذلك مرة أخرى. ستمزّق شفتيك. ستهلك نفسك. أصبر. الصبر. الصبر. الفرسان يدوسون الجمر ويسكتون. يدخلون النار ولا يشكون. اصبر على النار في جوفك ليلة.. ليتين تكسب العافية إلى الأبد. هل اتفقنا؟

المهري لا يصغي إلى التوسلات. اللّي رجله في النار لا يسمع.. آه من النار.

قفز البدوي إلى العراء وخاطب الله:

-خفف يا ربي. خفف. يا ربي قوّه على الجن.

ثم عاد ومسح الزبد عن الأبلق، وخاطبه:

-ماذا أستطيع أن أفعل من أجلك؟ آه لو أستطيع ان أشاركك. آه لو أستطيع. ولكن الله خلقنا هكذا. عجزة. لا أحد يتألم نيابة عن أحد.

ثم سارع جانباً، وخاطب الله مرة أخرى:

-يا ربي أعطني قليلاً من ألمه. يا رب قاسمني ألمه. اجعلني أساهم في التخفيف عن الأبلق. هو تألم كثيراً. شهور وهو يتألم. ليس عدلاً أن يتعذب وحده طوال هذا الزمان. هو أخرس. لا يشكو. ولكنه يفهم. يتألم. ألمه فظيع. وإلا لما صرخ. النبيل لا يصرخ إلاّ إذا تجاوز الألم حدّه. أزح عنه جزءاً من العبء وضعه فوق رأسي. حملني أعواماً فلماذا لا أحمله ساعات؟ لماذا لا أتحمّل عناءه بضعة أيام؟

في الزبد الناصع، نزف العرق ممزوجاً بدم.. بقيح. عرق أسود. ماء أسود. السيل الأسود. سيل الرؤيا. هل هذه هي الرؤيا؟

استمرّ الحيوان يحاول الإفلات. العقال حفر جرحاً عميقاً في القائمتين الأماميتين. الدم ينزف من القوائم. فوق الخف. فك العقال الأمامي. انقطع حبل الليف. قفز أوخيد، وأمسك باللجام. فتح الحيوان فكيه حتى نهايتها. تدفق الزبد واللعاب والقيء الأسود. آه. القيء السود. عين الحسد. يجمع العرافون على ذلك. لقد حسدوه على الأبلق. كل ما حدث بسبب الحسد. الحسد الأقوى من السم في تعاليم العرافين. عين الحسود أفتك من السهم المسموم، ومن ضربة السيف أو المدية. افتك من كل الأسلحة. متى حسده الأوغاد؟

شق المهري سكون الخلاء:

.آ.آ.آ.آ....

اندفعت الصرخة عبر المدى اللانهائي. رددتها الصحراء طويلاً قبل أن يبتلعها السكون الجليل.

تقافز أوخيّد هنا وهناك. قال دون وعي:

- خلاص. ركبه الجنّ. أصبر على الجنّ تقهرهم. الصبر. الصبر. الصبر هو الحياة.

استمر يمسك اللجام. خاطب الله مرة أخرى:

- يا ربي هل سيموت؟ ماذا أفعل وحدي إذا ذهب؟ يا ربي. أعطيتني صديقاً أخلص من كل الأصدقاء وتأخذه مني هكذا بين يوم وليلة وتتركني وحيداً؟ ماذا سأفعل في النجع الموحش مع هؤلاء الوحوش بدون الأبلق؟ لا تأخذه مني يا رب. أنت لست قاسياً يا رب. أنت رحيم. أنت..

ثم انبثقت في مقلتيه دمعتان كبيرتان، .. حارتان مثل الجمر. أحس بالنار في عينيه، فقال عاجزاً:

-إذا كان ذلك ضرورياً فخذني معه. لا أريد أن أبقى. أنا يتيم. أنا وحيد.. أنت تعرف. خذني. خذنا معاً.

في تلك اللحظة، انتزع المهري رجيله من الأرض، وانطلق عبر الخلاء. تشبث أوخيد باللجام، وجرى محاولاً أن يساير الأبلق ويعيده إلى الصواب.

بدأت الشمس تحتضر، توارت في غلالة بنفسجية لسحب شفافة، التفّت حول قمة الجبل المعزول عن الأفق، في أقصى الغرب.

انطلق الجمل تجاه القمة. عبر سهلاً كثيف الأعشاب، وصعد المرتفع، ثم هبط وادياً مزدحما بالسدر. دخل في أدغال الشوك، ومزّق جسده، فنزّ المزيد من الدم. من أطراف أوخيد أيضاً تفصّد الدم. تمزّق ثوبه عند الأكمام. شوك السدر اقتطع من القماش الفضفاض، فكشف ذراعه حتى الكتف الأيمن. سال الدم من الذراع والساعد.

توسل للحيوان المجنون:

-ماذا تفعل؟ توقف. الهرب لن يفيد مما تهرب؟ هل تهرب من نفسك؟ هل تهرب من قدرك؟ الشجاع لا يهرب من نفسه. الحكيم لا يهرب من قدره. إذا هربت منه تمكّن منك أيها الأبله. إذا أدبرت اعتبر ذلك جبناً. سيلاحقك ويغلبك. الجنّ قدرك. ألم أقل لك أن الأمر لن يستقيم إلا بالصبر؟ ألم أخبرك

أن الحياة هي الصبر؟ توقف حالاً. انتظر. لديّ سرّ آخر...

ولكن الحيوان لم يلتفت لتوسلات صديقه. في جوفه ألم أكبر من العقل ومن تحذيرات الأصدقاء. في جوفه نار موقدة. اللي رجله في النار...

اللّي جوفه في النار...!

استمرت المطاردة. أوخيد يلهث ويسفح العرق من أطرافه يسيل الدم. المهري يسفح العرق والزبد والصديد والدم. النار تغلي في جوفه، فيزداد جنوناً، ويطير في الهواء. أمام عينيه حجاب. طار العقل وحل العماء. سادت الظلمات، وفقد الإحساس بالزمن وبالأشياء. لا يدري ما إذا كان يجري أم يقف ساكناً في المرعى. لم يعد يحس بجسمه، بنفسه بأطرافه. الألم أكل الأطراف، أكل الأحساس. الألم أكل الألم. فمات الجسم، ومات الإحساس، ولم يبق إلا الجنون في الرأس. قطع وادي السدر، وقع أوخيد على الأرض، فجرجوه المهري بضعة أمتار. تمزقت الشفة العليا، وتحرر الجمل من اللجام. تدحرج أوخيد عبر المنحدر ويده تمسك باللجام. سيطر على عجزه بمحاولة بطولية ونهض. إذا افلت منه الآن وهو في قمة جنونه فلن يدركه إلى الأبد. سيفترقان إلى الأبد. هل كتب الله أن يودع صديقه القديم في هذه السقطة؟ في هذا المنحدر الشقي؟ هل حلت لحظة الوداع الأبدي؟ قفز وركض صاعداً المرتفع بيديه ورجليه معاً ممسكاً باللجام. تمزقت رئتاه وأنشلت أطرافه، وعلا الزبد شفته أيضاً. تناثر الزبد وهو يهبط المرتفع إلى الناحية الأخرى. آه. الهبوط فرصة. إذا لم يدركه في هذا المنحدر فسيفلت إلى الأبد. استجمع كل رجولته.. كل الشهامة.. كل النبل.. كل الأساطير المضادة للعار، واندفع عبر المنحدر. طار عبر المنحدر. سقط. نهض في لمحة بصر كأنه لم يسقط أبداً.. لم يسقط. وفي لحظة كوميض البرق وجد نفسه يمسك بالذيل. لم يصدق. هل حدثت المعجزة؟ هل أدركه حقاً؟ هل ساعدت الأساطير الموروثة المضادة

للعار؟ هل أنتصر على نفسه؟ على عجزه؟ على ضعفه؟ إذن بالإمكان قهر الضعف الرهيب بالصبر. الصبر تعويذة ضد القدر. الصبر هو الحياة. هذا ليس وهماً. تأكد من ذلك منذ قليل. يا ربي هبني مزيداً من الصبر فيما تبقى من الرحلة.

تشبث بالذيل بيده اليمنى. باليد اليسرى استمر يمسك باللجام. هدّه التعب فتباطأ بلا إرادة. انتزعه الجمل وجرّه في العراء. وجد أن الجرّ يتيح له أن يلتقط نفساً فاستسلم. تعلق بالذيل فحرث الأرض الطينية برجليه. حرثها طويلاً. صعد الأبلق الوهاد، نزل الروابي، عبر السهول، اخترق الأودية، أكلت الأحجار مداسه الجلدي، سلخت قدميه وساقيه، نهشت الأشجار البريّة فخذيه، مزّقت ثيابه. استرد وعيه، فحرك رجليه دون أن يتخلّى عن الذيل. سحبه وراءه في خطوات شاسعة. جفّ حلقه ويبس فمه. فشل في أن يستحلب اللعاب. العطش. العطش. قدر الصحراء. يا رب هبني صبراً. إذا وهبك الله الصبر في الصحراء وهبك كل شيء، الصبر تميمة خالدة أيضاً في الصحراء. الآلام في يديه لا تطاق. ألم يطلب هو بنفسه الآلام؟ ألم يطلب تخفيف الوزر عن الأبلق؟ الألم لا يهمّ. المهم الا يفلت الأبلق. المهم شفاء الأبلق. المهم أن يقف على مفعول آسيار المسحور في النهاية. من يدري: ربما حدثت المعجزة وتعافى المسكين؟ ولكن يا ربي: هل من الضروري أن يمر الشفاء عبر الجحيم؟ هل يعدم الخلاص إلاّ في أقصى الألم؟ هل ثمن الإثم فادح إلى هذا الحد؟ هل الأنثى بلوى إلى هذا الحد؟ هل عين الحسد شريرة وقاتلة؟

ذراعه الأيمن سينتزع من كتفه. ذراعه الأيسر أيضاً. إذا لم يفعل شيئاً فلن يستطيع الصمود. ستنسلخ اليد وتنفصل عن عظمة الكتف. ماذا يفعل؟ اكتشف أن طرف اللجام ما زال في يده اليسرى. بدأ يربط يده على الذيل بواسطة اللجام الذي كان مضفوراً من الجلد. اللجام لزج. تملّص أكثر من مرّة. لا. لا.

أنصاف الحلول لا تجدي. لا من أن يحكم القيد. إذا لم يحكم الرباط جيداً أفلتت اليد وانزلقت عن الذيل. سيفلت الحيوان ويذهب كل العمل هباء. استعان بأسنانه ويده اليمنى. شد اليسرى إلى الذيل وأحكم ويده اليمنى. شدّ اليسرى إلى الذيل وأحكم حولها القيد. استجمع كل القوى الباقية كي يساير المهري في ركضه الخرافي. طمأن نفسه بمكافأة. قال لنفسه إنه سينال راحة بمجرد أن يحكم القيد. إذا كان القيد محكماً ضمن أن يلتقط نفساً. إذا نجح في أن يربط اللجام جيداً نجح في أن يربط مصيره بمصير الأبلق إلى الأبد. لن يفلت. لن تختطفه منه الجنّ. سيقهر الشيطان نفسه. شعرة أخرى من. الصبر. شعرة واحدة فقط.

نزل ستار العتمة.

ازدادت الصحراء وحشة وغموضاً وامتداداً.

زغردت الجنيات في جبل الحساونة.

شحنته الزغاريد بالقوة. بالزغاريد تشحن الفرسان حتى لو كانت هدية من حناجر الجنيات.

أرخى يده اليمنى، وترك رجليه، فحرث الصحراء والظلمات.

تدريبات

١-هل هناك من أثر للاحتكاك بالثقافة الغربية، وبهموم المجتمع الدولي المعاصر في أي من النصوص الثلاثة المتخيرّة؟

٢-في أي نص من النصوص الثلاثة سطع همك الذاتي، أو تطلعك الجمالي؟.

٣-ما صلة هذه النصوص بهموم الإنسان العربي المعاصر؛ أم هل هي نتاج هم ذاتي ونزوع جمالي فردي؟

٤-كيف تنظر إلى أثر التداعي والتذكر والاسترسال في أساليب هذه النصوص؟

٥-ما أثر أحداث الواقع ولغة الحياة اليومية في السرد الروائي الذي بين يديك؟

Damascus University

We and the West:
From "the Clash of Civilisations" to "Partnership in the Realm of Knowledge"

Abdul-Nabi Isstaif

Introduction:

There is a consensus among scholars interested in the East-West relationship that it has been all along problematic. For in addition to being overburdened by a long historical legacy of conflicts and confrontations, which span more than two thousand years of human history , this relationship is imbued with various ideological dimensions which have some bearing on the thought, religion, and worldview of human life. It is also inextricably linked to both present and future worldly interests, and is subject, therefore, to divergent future visions, underlying the positions of every party involved in such a relationship.

We have witnessed in the last decade the most serious shift in the balance of power in our world - a conspicuous shift from a world dominated by two superpowers (The U. S. S. R. and U. S .A.) which had ensured a minimum equilibrium in world affairs at all levels, to a world governed by one superpower (the U. S. A.) with its subsequent temptation of confronting " the Other ", particularly when this confrontation

is highly likely to end in the containment, defeat and control of the Other. In fact, some political analysts in the West, particularly in the United States, started, in response to this new situation, to propagate the notion of inevitable clash between civilisations as the governing principle of future development in international relations. Having assured the outcome of any confrontation with any challenger of the so called **New World Order**, the intention behind this notion of clash of civilisations seems to be the attempt to extend and strengthen American hegemony over the rest of the world .

Despite the many theoretical fallacies, contained within this notion of clash of civilisations as well as its blatant ignorance of the major facts of human history, it, nonetheless, enjoys a great popularity among the decision-making circles of the West. This is no more so than in Washington which seems determined to spread the climate of confrontation over the whole world and to transform it into an arena of conflicts in order that the United States plays the role of arbiter. In so doing, it would be able to resolve any conflict in a way that achieves its short and long-term objectives and ultimately establishes its own values as supreme in order to justify its hegemony over the entire world.

Yet, the foundation on which such a notion is based is unsound. For the distinction between civilisations underpinning the concept of "the clash of civilisations" is a false premise. In fact, there is no national, regional, continental or geographical civilisation that can truly claim any purity. All human civilisations and cultures are "hybrid". They are the product of an interaction among all nations and peoples across different places and ages. No single civilisation can, therefore, claim a superior status for its own, or seek to dominate other

civilisations on the ground of such an assumption. It is wiser, in this sense, to substitute the notion of "clash of civilisations" with the principle of "partnership in the realm of knowledge", which aims at improving the quality of human knowledge (the knowledge of the Self, the Other and the World) and putting it at the service of man irrespective of colour, race, religion, country and nation. It is only through this kind of partnership that we can ensure a more secure future and welfare for humankind during the third millennium.

The East and the West: a complex problematic

The relationship between the East and the West is not just a geographical relation between two entities bordering and identifying each other. The question is not that there is a certain region which lies to the east of another region or that the latter lies to the west of the former. The fact of the matter is that each region has it own west and east. It all depends on the centre from which one views what is west and east. There are some scholars who tend to employ the term East to refer to the part of the globe that lies to the east of Western Europe, regardless of the richness and diversity of that region, which are rendered invisible by this generalisation. In the meantime, they will use the term West to refer mainly to "the developed world", "the first world" or "Western Europe and North America" in addition to "Japan". This is, however, an ontological, geopolitical, ideological and even cognitive division based on a crack in thinking that cannot conceive the universe except in terms of opposites that determine and identify each other. There are as many wests as the different political, national, ethnic, and cultural entities in the West, and likewise there are as many easts as the various entities in the

East. Hence, to simply divide the world in such a way is a false and futile generalisation fraught with many paradoxes and fallacies.

The most regrettable fact, however, is that this division is so pervasive and widely accepted nowadays that it has become an unquestionable maxim. The prevalence of this division may be attributed to a number of reasons and justifications, the most conspicuous of which is that the relationship between East and West dates back to times immemorial: the era of Alexander the Great ,and the successive clashes between the Persians and Romans and the Arabs and Byzantine; between the Turks and the Europeans; between the Arabs and the Crusaders, and the Arabs and the Europeans in Andalusia and Sicily; between the Ottomans and Europeans in south Europe, in addition to the overall clashes between the colonising West and the Arab world during the last two centuries.

Not only is the relationship an ancient one, it has also had ideological dimensions involving religion and thought , especially after the West embraced Judaism and Christianity. It viewed both mainly as Western religions standing in opposition to Islam, which, in turn, was viewed as an oriental religion aspiring to spread its realm at the expense of the West. The West has ever since set as its mission to ward off and contain that oriental religion. The irony these days is that Islam has increasingly been spreading in the West and there is an earnest fear that the European "house of war" (Dar al-Harb) will become "the house of Islam" (Dar al-'Islam) as was the case in some parts of Europe in the Middle Ages.

In addition, this binary division of the world is inextricably linked to present and future worldly interests that the West considers vital; the West believes that any threat to these

interests is a threat to the national security interests of its various nations. To protect and defend these interests, the West is always ready to deploy all available resources and to use the most sophisticated military arsenal (as was the case in the second Gulf War). In the final analysis, what matters most for the West is to maintain such a divisive relationship between a Western world in possession of knowledge, power and high standards of social welfare, and an Eastern world possessing energy, raw materials, cheap labour and huge markets. The first party must be the absolute master who decides on everything, whereas the second party must remain passive, secondary and obedient.

This division should be maintained especially in the wake of the shift that has taken place from bi-polarity to a world dominated by single superpower, which leads and mobilises other regional forces to protect its interests, while pressing the United Nations to support all that is vital to its national security.

Climate of clash and confrontation

The main question now is how can the West propagate such a division of the world at a time when the Communist threat, which the Soviet Union and states of the Warsaw Pact used to represent, no longer exists? And who dares today to defy the political, economic and military will of the West without paying so heavy a price that will make him eventually bow to that will?

The answer is that the West is now in need of creating a new rival in order to direct its forces against, containing and

controlling it. There is hence a need for the West to invent a new clash with the other in order to engage it in a confrontation that will increasingly accentuate the tendency of conflict between the two. This rests, of course, on the comforting assumption that the outcome of such conflict can only be the in victory of the most powerful politically, militarily and cognitively: the West.

Samuel Huntington writes about the West as opposed to the rest of the world:

"The West is now at an extraordinary peak of power in relation to other civilisations. Its superpower opponent has disappeared from the map. Military conflict among Western states is unthinkable, and Western military power is unrivalled. Apart from Japan, the West faces no economic challenge. It dominates international political and security institutions and with Japan international economic institutions. Global political and security issues are effectively settled by a directorate of the United States, Britain and France, world economic issues by a directorate of the United States, Germany and Japan, all of which maintain extraordinarily close relations with each other to the exclusion of lesser and largely non-western countries. Decisions made at the U.N. Security Council or in the International Monetary Fund that reflect the interests of the West are presented to the world as reflecting the desires of the world community. The very phrase "world community" has become the euphemistic collective noun (replacing "the Free World") to give global legitimacy to actions reflecting the interests of the United States and other Western powers. Through the IMF and other international economic institutions, the West promotes its economic interests and imposes on other nations the economic polices it thinks

and superior civilisation) and incite them to engage in new colonial wars on the followers of other civilisations. Using the same slogans and justifications used by the Crusaders in the Middle Ages, it is a call for a search for a new alternative to the old enemy, the evil empire of Communism, which has ceased to exist as the super glue that drew together all the oppressed masses in Western countries. In short it is an attempt to create a unified stand in the West that would only serves the multinational corporations. In fact, it is a call to sustain enmity and disputes among people so that the interest-seekers can have the opportunity to attend to their business and, for that matter, run the ravaged world in the way they like. The theory of "the clash of civilisations" is no more than a decorated dressing for a very old idea or practice, namely "divide and rule" "[1].

As a matter of fact, further to its intent to perpetuate confrontation and conflict among nations and peoples, especially with those who are viewed as a threat to, the purported "Western model", the book "The Clash of Civilisations" raises a myriad of problematic questions that bear testimony to many aspects of the disorder haunting Western thinking in its approaches to our present world.

However, the key question which the author of "the clash of civilisations" should tackle is: is there any pure national, regional or continental civilisation that is unadulterated by any other civilisation? Let us look at what Huntington himself defends, i.e., "the Western Civilisation" which he thinks has to defend itself against other civilisations, and should dominate

---

[1] See Salah Qansuh's "introduction" to the Arabic translation of Huntington's book by Tal'at al-Shayib, published by ***Sutur House***, Cairo, 1998, particularly pp. 24-25.

other civilisations of the world in the third millennium, and consider what distinguishes it from other civilisations.

Huntington points out a number of distinct qualities of the West that distinguish it from the rest of other continental entities:

1- The classical heritage of the Greeks and Romans;

2- Western Catholic and Protestant Christianity;

3- .European languages;

4- The separation between the spiritual and temporal powers, or between the state and religion;

1- Rule of law;

2- Social multiplicity and civil society;

3- Representative institutions; and

4- Individualism.

Huntington argues that although these qualities may separately be claimed by other civilisations, their existence in "one consistent composition" is the source of uniqueness in the West[1]"

To consider carefully these qualities as well as the observations made by several reviewers of the book, one cannot help advocating the view of Dr. Salah Qansuh , in his introduction of the Arabic translation of Huntington's book. Dr. Qansuh argues that those qualities and attributes that

[1] Ibid., pp. 11-12

Huntington claims characterise the West even before the modernisation that was brought about by the emergence of Capitalism, "all date back to an historical period, i.e., the Enlightenment, and all that followed that was an outcome of interactions, exchanges, and even bloody clashes between, on the one hand, the Islamic empire in the East, which was spreading all over the Mediterranean and including many Arab states in the West on the French border, and the Holy Roman Empire embracing a large number of contesting Dukedoms and Monarchies, on the other. And the concept of what is now called "the West" appeared only after the emergence of Capitalism and the subsequent colonisation of the East[1]".

Furthermore, what is now called "Western civilisation" with all its antiquated history and ancient, middle and modern ages is greatly indebted to other civilisations, especially Oriental civilisations. The supposed Western "ingenuity" that is said to have been born out of the West's "own decisions", thus giving it the supremacy over other civilisations, is just a "myth" and cannot be accepted by any scientific and logic measures. What is usually known as the main components of Western civilisation- that is to say, (a) the classical component of the Greek and Roman heritage; (b) the religious component: Judaism and Christianity; and (c) the historical experiences of European nations and peoples at times of peace and war- have always been influenced by other civilisations. The presence of the East, especially the ancient Near East and the Arab East at a later stage, was so ubiquitous in Western civilisation as to render denial or oversight impossible.

A host of Western scholars themselves acknowledge the debt that the West owes to the East. Three examples have been

[1] Ibid., pp. 16

chosen here to give the reader some idea about the earliest debt. They are three books, all published in the last decade of the Twentieth century. In the first book, entitled "***The Orientalising Revolution: Near Eastern Influence on Greek Culture in the early Archaic Age***"[1], Walter Burkert disproves what is usually known as the Greek miracle that is said to have come as a result of the Greeks own genius. The extraordinary culture of the ancient Greeks was often projected as a miracle that was born out of their own ingenuity, and that it was not practically indebted to any of their neighbours. Burkert points out, however, that this is an unfounded proposition and argues that Greek culture reached its unique prosperity under the influence of the Semitic Orient, and that it was indeed indebted in attaining that prosperous status in the eastern part of the Mediterranean to those Oriental authors, craftsmen, merchants and scientists who signally contributed to that culture. He further argues that what is now called the Greek miracle was therefore an immediate result of the openness of Greek culture to the neighbouring cultures, particularly Oriental culture.

In the second book, entitled "***The Black Athena: the Afro-Asiatic Roots of the Classical Civilisation***"[2], Martin Bernal points out the roots of classical civilisation and attributes them to Afro-Asian origins, specifically the civilisations that appeared across the Nile, in Damascus and across the Euphrates.

---

[1] Walter Burkurt, ***The Orientalising Revolution: Near Eastern Influence on Greek Culture in the early Archaic Age***, translated by Margaret E. Binder and Walter Burkert (Harvard University Press, Cambridge, Ma., 1992).

[2] Martin Bernal, ***Black Athena: the Afro-Asiatic Roots of Classical Civilisation, Volume I, the Fabrication of Ancient Greece 1785-1985*** (Vintage Books, London, 1991).

In the third book, entitled ***Greek Myths and Mesopotamia : Parallels and Influence in the Homeric Hymns and Hesiod***[1], Charles Penglase investigates the nature and extent of Mesopotamian influence on Greek religious mythological works. He shows how a knowledge of Mesopotamian ideas and motifs can increase our understanding of, for instance, the Homeric hymns to Apollo, Aphrodite or Athena , and of the works of Hesiod. The saddest fact about Western scholarship is that those real roots and parallels have been systematically subject to omission since the eighteenth century owing to purely ethnic and racial considerations.

So much for the archaic and ancient ages[2]. As for the Middle Ages, the European debt to the Arab and Muslim civilisation is too obvious that it cannot be denied. E. L. Ranelagh writes in his book entitled "***The Past We Share: the Near Eastern Ancestry of Western Folk Literature***" that

"the great part of Greek knowledge which included the sciences and philosophy was handed down by the Byzantine through translation from Greek into Arabic , was further developed by the Arabs, and in the Middle Ages was conveyed from Arabic into Latin. The massive translation projects in twelfth-century Spain and Sicily were major bridges over which scientific learning was carried from Arabs into the then

---

[1] Charles Penglase, ***Greek Myths and Mesopotamia : Parallels and Influence in the Homeric Hymns and Hesiod*** (Routledge, London, 1994).

[2] See also the treatise of the Syrian Arab scholar Monzer Muhammad, , ***Babylonian Dimensions in Greek Mythology*** (Dar Tlas, Damascus, 1996).

primitive western Europe."[1]

Now, everyone agrees that without the Arab-Islamic contribution to the European Enlightenment the West would never have known such an era. Indeed, the Enlightenment counted heavily on the Arab-Islamic civilisation, which was, in turn, a melting pot of contributions of diverse nations and peoples and whose medium of communication and thinking was Arabic[2].

Because the West has reached its peak of industrial and technical progress and is now enjoying high standards of social welfare--at the expense of colonial exploitation during the last two centuries- it may see itself in a position in which it may entertain a feeling of self-sufficiency. As such, it may turn its back to any foreign contribution to its civilisation as was the case until the advent of the Enlightenment. However, the West can never legitimately entertain such feeling. A host of Western scholars have acknowledged time and again the Western cognitive debt to the rest of the world, which sadly, others have been trying to block this out in the hope of affirming their superiority as "Westerners". Once again, suffice it to briefly point to the works of such authors as the German Reinhard May who wrote, in 1989, a book entitled ***"Heidegger's Hidden Sources: East Asian influences on his***

---

[1] E. L. Ranelagh, ***The Past We Share: The Near Eastern Ancestry of Western Folk Literature*** (Quartet Books, London, 1979)," Introduction".

[2] Dionisius. A. Agius and Richard Hitchcock, ***The Arab Influence in Medieval Europe*** (Ithaca Press, Reading, 1994).
W. Montgomery Watt, ***The Influence of Islam on Medieval Europe*** (Edinburgh University Press, Edinburgh, 1972).

words"[1], and the American Harold Coward who wrote "***Derrida and the Indian philosophy***"[2]. The latter points out the debt that Derrida concealed from his readers and disciples, especially when it came to his thesis on languages. Moreover, Graham Barks[3] wrote "***Nietzsche and Asian Thought***" in which he compiled a number of treatises on Nietzsche's debt to, and encounter with, the Asian thought. One may also make mention of the provocative book written by Jack Goody[4] with the revealing title of "***the Orient in the West***" where he exposes the fallacy of the concept of Western superiority and excellence even in the fields that are considered to have stimulated the West's progress. In addition, Fred Dallmayr's[5] "***Beyond Orientalism: Essays on Cross-cultural Encounter***", and J. J. Clark's[6] "***Oriental Enlightenment: the Encounter Between the Asian and Western thought***", among others, stress the fact that there is not any pure culture, that all cultures are hybrid, and that the supposed "Western ingenuity" is just a mirage. **Human civilisations** (be they national, continental, regional, modern or ancient), and however

---

[1] Reinhard May, ***Heidegger's Hidden Sources: East Asian Influences on his words***, translated, with a complementary essay, by Graham Parkes(Routledge, London, 1996).

[2], Harold COWARD, ***Derrida and Indian Philosophy*** (State University of New York Press, New York, Albany, 1990).

[3], Graham Parkes (ed.), ***Nietzsche and Asian Thought*** (the University of Chicago Press, Chicago and London, 1991).

[4] Jack Goody, ***The East in the West*** (Cambridge University Press, Cambridge, 1996).

[5] Fred Dallmayr, ***Beyond Orientalism: Essays on Cross-cultural Encounter*** (State University of New York Press, New York, Albany, 1996).

[6] J. J, CLARK ,***Oriental Enlightenment: The Encounter Between Asian and Western Thought*** (Routledge, London, 1997).

original and unique they may be, are **hybrid** (or Muwallad, in the Arabic sense of the word, used in the 'Abassid era). Moreover, **they are the product of an interaction with the "other" more than the product of a pure ingenuity unadulterated by foreign elements.**

In other words, no one can claim that any civilisation, no matter how much it is venerated and admired by its adherents or others, may claim for itself a status superior to other civilisations or to view itself as a master and other foreign civilisations as servants. In the final analysis, **human culture is a common human effort undertaken by successive generations of peoples and nations throughout several stages of its evolution. As such, it is like a pool from which everyone can draw water and quench his/her thirst, for it is indeed the common human heritage.**

If the uniqueness of "Western civilisation" is just an illusion and if "Western culture" is hybrid and owes much to the multi-temporal, spatial, ethnic, racial and religious Other, as is the case with all cultures of the world, it is advisable that those who care about "it" and about its "own values" should abandon the call for a "clash of civilisations". Instead, they would do well to consider options other than the "clash" as a cardinal principle of global politics in the future.

Throughout the centuries, human civilisation in all places and times has always been a product of "an indirect human partnership" where each nation and people have contributed something until it reached its current stage. It is therefore natural to strengthen this partnership and make it an explicit and "direct partnership" for which we devise and implement plans as we do in other trumpeted forms of partnership, such as the "Euro-Mediterranean Partnership."

We should be, therefore, calling now for a partnership between all producers of knowledge and science from both East and West, South and North, and in other parts of the world. In the meantime, **we should be also calling for utilising and putting the outcome of this partnership and all its products at the service of man, regardless of race, colour, language, religion, gender or age, and to combat the monopoly of knowledge under whatever pretext.**[1]

In brief, let us launch a new call: **"NO to the clash of civilisations", and "YES to partnership in the realm of knowledge".**

---

[1] Abdul-Nabi Isstaif, , "Why the East and the West need each other", in ***For a change*** (London), vol. 12, no. 6, December/January 2000 (Guest Column)

حقوق الطبع والترجمة والنشر محفوظة
لمديرية الكتب والمطبوعات

وقل رب زدني علما
Damascus University